إيزابيل ألليندي

حكايات إيفا لونا

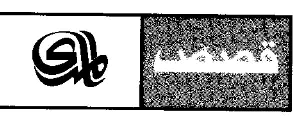
قصص قصيرة

ترجمة:

صالح علماني



حكايات إيفا لونا



Author : Isabel Allende
Title : Cuentos de Eva Luna
Translator : Saleh Almani
Al- Mada : P.C.
First Edition : 2008

اسـم المـؤلـف :إيزابيل ألليندي
عنوان الكتـاب :حكايات إيفا لونا
تـرجــمــة :صالح علماني
النـاشـــر :المدى
الطبـعـة الأولى :٢٠٠٨



سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦ -فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان - بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٣-بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣
www.almadapaper.com
almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

إيزابيل ألليندي

حكايات إيفا لونا

قصص قصيرة

ترجمة صالح علماني



إلى ويليام غوردون،

للأوقات التي أمضيناها معاً

إ. أ.

وأمر الملك وزيره بأن يأتيه كل ليلة بفتاة عذراء، وما إن تنقضي الليلة حتى يأمر بقتلها. وبقي على هذه الحال ثلاث سنوات حتى لم تعد هناك في المدينة فتاة واحدة تنفع لغزوات هذا الفارس. وكانت للوزير ابنة باهرة الجمال تدعى شهرزاد... وكانت محدثة بارعة يطيب للأذن سماع حديثها.

(ألف ليلة وليلة)

تنزعين مشد الخصر، تخلعين صندلك، تلقين إلى أحد الأركان تنورتك الواسعة، وهي من القطن على ما أظن، وتحلين العقدة التي تقيد شعرك على شكل ذيل. كانت بشرتك مزبئرة وكنتِ تضحكين. كنا قريبين إلى حد لايمكن فيه لأحدنا أن يرى الآخر، كلانا مستغرق في طقس متعجل، منغمس في الدفء وفي الرائحة التي نصنعها معاً. تشقين لي طريقي في دروبك، يداي على خصرك المشبوب ويداك جزعتان. تنزلقين، تجوبينني، تتسلقينني، تلفينني بساقيك المتينتين، تقولين لي ألف مرة تعال بشفتيك فوق شفتي. وفي اللحظة الأخيرة تعترينا ومضة وحدة تامة، كل واحد منا يضيع في هوته الحارقة، ولكننا سرعان مانبعث من الجانب الآخر للنار لنستكشف أنفسنا متعانقين في فوضى الوسائد، تحت الكلّة البيضاء. أُبعد شعرك لأنظر إلى عينيك. وتجلسين أحياناً بجانبي وأنت تضمين ساقيك وتضعين شال الحرير على كتفك، في صمت الليل الذي بدأ للتو. هكذا أتذكرك، بهدوء.

أنت تفكرين بالكلمات، فاللغة بالنسبة إليك هي خيط لاينفد، تحوكينه كما لو أن الحياة تتشكل وأنت تروينها. أنا أفكر في صور متجمدة في لقطة فوتوغرافية. هذه اللقطة مع ذلك ليست مطبوعة على صفيحة، تبدو وكأنها مرسومة بريشة دقيقة، إنها ذكرى منمنمة وكاملة، ذات أحجام ناعمة وألوان دسمة، تنتمي لعصر النهضة، مثل نية ملتقطة ومثبتة فوق ورقة محببة أو قماش. إنها لحظة نبوئية، إنها كل وجودنا، كل ما عشناه وما سنعيشه، كل العصور متداخلة، دون بداية ولا نهاية. أنظر من مسافة معينة إلى هذا الرسم، حيث أنا موجود أيضاً. إنني مشاهد ومشارك. إنني في الظل، مغلل بغمامة ستارة شفافة. أعرف أنني

أنا، ولكنني كذلك هذا الذي يراقب من الخارج. أعرف ما يشعر به الرجل المرسوم على هذا السرير المشعث، في حجرة ذات دعائم قاتمة وسقف كاتدرائية، حيث يبدو المشهد كما في تفصيل من احتفال طقسي قديم. إنني معك هناك، وهنا أيضاً؛ وحيداً، في زمن آخر للوعي. العاشقان في اللوحة يستريحان بعد ممارسة الحب، بشرتاهما تلمعان رطبتين. الرجل يغمض عينيه، واضعاً إحدى يديه على صدره ويده الأخرى على فخذها في تواطؤ حميم. هذه الرؤيا بالنسبة لي مطروقة وثابتة، لاشيء يتغير، الابتسامة المطمئنة نفسها على الدوام من الرجل، والخمود نفسه من المرأة، وثنايا شراشف السرير نفسها وأركان الحجرة القاتمة نفسها، وضوء المصباح يضمخ دائماً نهديها ووجنتيها من الزاوية نفسها، وشال الحرير والشعر الأسود يتهدلان دائما بالرقة نفسها.

كلما فكرتُ فيكِ أراك هكذا، أرانا هكذا، محتجزين إلى الأبد في هذه اللوحة التي لا يؤثر فيها تلف سوء الذاكرة. يمكنني أن أتلهى مطولاً في هذا المشهد، إلى أن أشعر بأنني أدخل إلى فضاء اللوحة ولست مجرد مشاهد، بل الرجل الراقد إلى جوار المرأة. وعندئذ ينكسر التناسق الهادئ للرسم وأسمع صوتينا قريبين جداً. فأقول لك:

- احكي لي حكاية.

- كيف تريدها؟

- احكي لي حكاية لم تحكيها لأحد من قبل.

رولف كارليه

كلمتان

كان اسمها العجيب هو بيليسا كريبوسكولاريو، وهو اسم لم يأت من شهادة العماد أو من سداد بصيرة أمها، وإنما بحثت هي نفسها عنه إلى أن وجدته ولبسته. كانت تمتهن بيع الكلمات، وتجوب العالم قاصدة المهرجانات والأسواق لتنصب أربعة عصي ومظلة من أكياس، تحتمي تحتها من الشمس والمطر أثناء تلبيتها طلبات زبائنها. لم تكن بحاجة للإعلان عن بضاعتها، فلكثرة ما تنقلت من مكان إلى آخر، صار الجميع يعرفونها، وهناك من كانوا ينتظرون قدومها من سنة إلى أخرى، وحين تظهر في القرية وحزمتها تحت إبطها يصطفون أمام محلها بالدور. كانت تبيع بسعر مناسب. فبخمسة سنتافو تقدم أشعاراً مرتجلة، وبسبعة تحسّن من نوعية الأحلام، وبتسعة تكتب رسائل للمحبين، وباثني عشر تعلم شتائم محدثة لأعداءٍ لدودين. ومن يشتري منها بخمسين سنتافو تهمس له في أذنه بهدية هي كلمة سرية لها قدرة على إبعاد الكآبة. ولم تكن تقول الكلمة نفسها للجميع بالطبع. فكل واحد يتلقى كلمته التي لا يستخدمها لهذا الغرض أحد سواه في الكون الرحب كله أو فيما وراء الكون.

كانت بيليسا كريبوسكولاريو هي الابنة الخامسة لأسرة كثيرة الأولاد وبائسة لدرجة أنها لم تكن تملك أسماء لأبنائها. ولدت وبدأت تنمو في المنطقة الأكثر جفافاً. وحتى بلوغها الثانية عشرة من العمر لم تكن لها مهنة معينة ولم تكن تتمتع بفضيلة أخرى سوى قدرتها على الحياة رغم الجوع الدائم والعطش الدهري. وفي سنة شديدة الجفاف، كان عليها أن تدفن أربعة من

أخوتها، وحين جاء دورها قررت أنه من الأفضل لها أن تهيم على وجهها باتجاه المنطقة الساحلية، لترى إن كانت تستطيع مغافلة الموت في الطريق. لم تتمكن من ذلك وحسب، بل إنها اكتشفت كذلك الكلمات في ورقة من جريدة طوّح بها الهواء لتعلق بقدميها عند وصولها إلى قرية ملتهبة في المناطق القريبة من البحر. تناولت ذلك القماط الأصفر المتيبس وتأملته طويلاً دون أن تدرك فائدته، إلى أن تجاوز فضولها رهبتها، فاقتربت لتسأل رجلاً كان يغسل جواداً بالماء الذي أشبعت منه عطشها قبل قليل.

- إنها صفحة الرياضة في الجريدة المحلية. قال لها الرجل ذلك دون أن يبدي أمارات الدهشة حيال وجه الصبية، إذ إن الناس المتعلمين كانوا قلة في تلك الأنحاء.

حيرت الإجابة بيليسا، ولكنها لم تشأ الظهور بمظهر الوقحة، واكتفت بالاستفهام عن معنى قوائم الذباب المرسومة على الورقة.

- إنها كلمات أيتها الصغيرة. يقولون هنا إن فولخينسيو باريّا قد أسقط نييغرو تيزناو بالضربة القاضية في الجولة الثالثة.

وكان ذلك هو اليوم الذي عرفت فيه بيليسا كريبوسكولاريو أن الكلمات مثل العصافير، تمضي طليقة دون نظام ولا وعي وبإمكان أي كان بقليل من السحر أن يحبسها ليتاجر بها. تأملت في وضعها وأدركت أن الأعمال التي يمكن لها أن تقوم بها لتكسب عيشها، بعيداً عن الدعارة أو العبودية في مطابخ الأثرياء، كانت قليلة جداً، وبدا لها بيع الكلمات خياراً سعيداً، فبذلت جهدها منذ تلك اللحظة لاقتناصها وتدجينها، وتقديمها إلى زبائن كانوا يستغربون الأمر في البدء، ولكنهم يبدون الرضى بعد تجربتها والاعتياد على استخدامها. مارست هذه المهنة دون أن

تهتم بمهنة سواها في يوم من الأيام. باعت بضاعتها لسنوات دون أن يخطر ببالها أنه يُمكن للكلمات أن تُكتب أيضاً. وحين عرفت ذلك أدركت أن الكتابة تقدم آفاقاً غير محدودة لتجارتها، ولهذا دفعت مئتي بيزو عداً ونقداً إلى خوري ليعلمها القراءة والكتابة، واشترت بالبيزوات العشرة التي بقيت بحوزتها معجماً، قرأته كله، من الألف إلى الياء ثم ألقت به إلى الزبالة، لأنها لم تكن تريد الاحتيال على الناس ببيعهم كلمات معلبة.

في صباح يوم من أيام شهر آب، وكانت تحت مظلتها تبيع كلمات في العدالة لشيخ يطالب براتبه التقاعدي منذ أحد عشر عاماً، حين داهم الساحة فجأة رجال الكولونيل بقيادة الخلاسي، المعروف في كل أرجاء المنطقة بسرعة مديته وبولائه المطلق لقائده. لقد خلّف مروره فراغ إعصار: ابتعدت الدجاجات طائرة، وهرعت الكلاب لتختبئ، وركضت النسوة مع أطفالهن، ولم تبق في السوق نفس واحدة حية سوى بيليسا كريبوسكولاريو التي لم تكن قد رأت الخلاسي في حياتها قط، ولهذا السبب ذاته استغربت أنه اتجه نحوها وسألها موجهاً إليها سوطه المطوي:

- أأنت التي تبيع الكلمات؟

فردت:

- في خدمتك.

لم تكد تقول ذلك حتى انقض رجال الفرقة عليها مقوضين مظلتها ومهشمين دواة حبرها، وحملوها على الأكتاف مثلما يحمل البحارة كيسهم وألقوا بها على ردف الدابة التي يمتطيها الخلاسي، وانطلقوا على جيادهم صوب الجنوب.

كانت بيليسا كريبوسكولاريو على وشك فقدان الوعي بسبب

ارتجاجات الجواد حين أحست أنهم قد توقفوا، وأن أربع أيدٍ قوية أنزلتها إلى الأرض. حاولت الوقوف على قدميها ورفع رأسها بوقار، لكن قواها خانتها وانهارت وهي تطلق أنَّة، لتغرق بعد ذلك في حلم سعيد. واستيقظت بعد عدة ساعات على همس الليل في الريف الذي زود أذنيها بأصوات جديدة. حاولت فك رموز هذه الأصوات بالبحث عن كلمات في لغات السكان الأصليين التي قد تنفعها في مهنتها، ولكنها لم تجد الوقت الكافي لذلك. فما إن فتحت عينيها حتى وجدت نفسها أمام الخلاسي الذي كان يراقبها بجزع.

- أخيراً استيقظت أيتها المرأة. قال لها ذلك وهو يمد إليها زمزميته لتشرب رشفة من خمرة كالبارود أعادت إليها وعيها.

أرادت أن تعرف سبب كل هذه المعاملة القاسية، فرد عليها الخلاسي بأن الكولونيل بحاجة إلى خدماتها. سمح لها بصب الماء على وجهها وقادها في الحال إلى أحد أطراف المعسكر، حيث كان أكثر الرجال إثارة للخوف في المنطقة كلها يرقد في أرجوحة نوم معلقة بين شجرتين. لم تستطع رؤية وجهه. لأن ظلال أوراق الشجر كانت تغطيه، وكذلك ظلال سنوات طويلة من العيش كقاطع طريق، لكنها تخيلت أنه لابد أن يكون رهيباً إذا كان الخلاسي يكلمه بكل ذلك التذلل. ولهذا فوجئت حين سمعت صوته، ناعماً ومرخماً مثل صوت أستاذ.

- أأنتِ التي تبيعين الكلمات؟

فدمدمت وهي تشرئب في العتمة لتراه بصورة أفضل:

- تحت أمرك.

حينئذ نهض واقفاً، فأنار المشعل الذي يحمله الخلاسي وجهه، رأت

المرأة بشرته القاتمة وعينيه اللامعتين كعيني أسد البوما فأدركت في الحال أنها أمام أكثر الرجال وحدة في هذا العالم. ثم أكدت كلماته هذه الرؤية: فالكولونيل يريد أن يصير رئيساً. لقد أرهقه ذرع البلاد في حروب لاطائل منها وهزائم لا يمكن لأي حيلة أن تحولها إلى انتصارات، فقد أمضى سنوات طويلة وهو ينام في الخلاء، يلسعه الناموس، ويتغذى ببيض العظاءات وحساء الحيات، ويعرج بإحدى ساقيه في أيام البرد لأن رصاصة في إليته كانت تتهيج بالرطوبة. لكن هذه المضايقات الصغرى لم تكن مبرراً لاستبدال نمط الحياة. فما كان يضايقه حقاً هو رؤية الرعب في عيون الآخرين. وكان يرغب في دخول القرى تحت أقواس النصر، ووسط الرايات والأزهار المقطوفة لتوها. لقد ملّ رؤية الرجال يهربون، والنساء الحوامل يجهضن، والصغار يبكون لدى مروره. ولهذا كان مصراً على أن يصير رئيساً. اقترح عليه الخلاسي الذهاب إلى العاصمة والدخول على صهوات خيولهم إلى القصر للسيطرة على الحكم، تماماً مثلما استولوا من قبل على أشياء كثيرة دون استئذان، لكنه لم يكن راغباً في التحول إلى طاغية، لأن ذلك لا يمنحه تعاطف الناس. كان يفكر في أن يتم اختياره في اقتراع شعبي خلال انتخابات الرئاسة التي ستجرى في شهر كانون الأول.

وسأل الكولونيل بيليسا كريبوسكولاريو:

- لكي أحقق ذلك لابد لي من التحدث كمرشح. أيمكنك أن تبيعيني الكلمات اللازمة لخطاب انتخابي؟

كانت قد كُلفت بأعمال كثيرة، لكن أياً منها لم يكن بمثل هذه الصعوبة. ومع ذلك لم تجد الشجاعة للرفض، لأنها خافت أن يطلق عليها الخلاسي رصاصة مابين عينيها، أو أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك، كأن

ينفجر الكولونيل في البكاء. كما أنها رغبت من جهة أخرى في مساعدته لأنها أحست للمرة الأولى في حياتها كامرأة بخفقة دفء في جلدها، وبرغبة جامحة في لمس هذا الرجل، وفي أن تجوبه بيديها، وأن تضمه بين ذراعيها، وعرفت دون أي ريب أنها قد أحبت.

أمضت بائعة الكلمات طوال تلك الليلة وقسطاً كبيراً من نهار اليوم التالي باحثة في فهرسها عن أكثر الكلمات ملاءمة لخطاب رئاسي، يحرسها عن قرب الخلاسي الذي لم يكن يرفع نظره عن ساقيها المتينتين، ساقي المرأة الجوّالة، وعن نهديها العذراوين. استبعدت من ذهنها الكلمات الفظة والجافة، والكلمات شديدة التنميق، والباهتة والمستهلكة من كثرة الاستخدام، والتي تقدم وعوداً باطلة وخاوية من الحقيقة، لتحتفظ فقط بتلك القادرة على ملامسة تفكير الرجال وبداهة النساء بصورة صائبة، مستخدمة المعارف التي اشترتها بمئتي بيزو من الخوري. كتبت الخطبة على صفحة واحدة من الورق وأشارت إلى الخلاسي كي يفك الحبل الذي يربط به كاحليها إلى شجرة. اقتادوها ثانية إلى الكولونيل، وما إن رأته حتى أحست بتسرع الحب الذي أحست به في اللقاء الأول. أعطته الورقة وانتظرت بينما هو يحدق مطولاً في الكتابة.

ثم سألها أخيراً:

- ما الذي تقوله؟

- ألا تعرف القراءة؟

فرد الكولونيل:

- ما أعرفه هو خوض الحروب.

عندئذ قرأت له الخطبة بصوت عالٍ ثلاث مرات، كي يستطيع

حفظها في ذاكرته. وعندما انتهت رأت رجال الفرقة الذين تجمهروا لسماعها يبكون، ولمحت عيني الكولونيل تشعان بالحماسة. كان واثقاً من أن كرسي الرئاسة قد أصبح ملك يديه بهذه الكلمات.

وقال الخلاسي:

ـ لابد أن هذا الشيء سينفع، طالما أن الرجال مازالوا يبكون بعد أن سمعوه ثلاث مرات.

سألها الكولونيل:

ـ كم الأجر يا امرأة؟

ـ بيزو واحد، يعني مئة سنتافو أيها الكولونيل.

ـ ليس غالياً. قال القائد ذلك وهو يفتح محفظة جلد الغزال التي يعلقها في صدره، وفيها بقايا الغنيمة الأخيرة.

قالت بيليسا كريبوسكولاريو:

ـ ولك الحق كذلك بكلمتين سريتين.

ـ ما الذي يعنيه هذا؟

فراحت توضح له أنها مقابل كل خمسين سنتافو يدفعها الزبون تهدي إليه كلمة لا يستخدمها أحد سواه لمكافحة الكآبة. هز الكولونيل كتفيه، لأنه لم يكن مهتماً بالعرض، لكنه لم يشأ أن يكون فظاً مع من قدمت له خدمة جليلة. دنت ببطء من الكرسي ذي المقعد الجلدي حيث كان يجلس وانحنت لتُسرّ له بكلمتيه. حينئذ أحس الرجل برائحة الحيوان البري التي تفوح من المرأة، وبحرارة الحريق التي تشع من إليتيها، وملامسة شعرها الرهيبة، وأنفاس النعناع تهمس في أذنه بالكلمتين السريتين اللتين يستحقهما.

وقالت وهي تبتعد عنه:

- هاتان هما كلمتاك أيها الكولونيل. يمكنك استخدامهما متى شئت.

رافقها الخلاسي حتى حافة الطريق دون أن يتوقف عن النظر إليها مثل كلب فاقد الصواب، ولكنه حين مدَّ يده ليلمسها، أوقفته بيليسا بسيل من كلمات مبتكرة كانت قادرة على إفزاعه لأنه ظنها كلمات لعنة لا رد لها.

ألقى الكولونيل الخطبة خلال شهور أيلول وتشرين الأول وتشرين الثاني مرات ومرات، بحيث لو لم تكن مصاغة من كلمات متألقة، لكانت كثرة الاستعمال قد حولتها إلى رماد. جاب البلاد في جميع الاتجاهات متوقفاً في القرى المنسية، هناك حيث بقايا البراز هي الإشارة الوحيدة إلى الحضور البشري، ليُقنع الناخبين بأن يصوتوا له. وبينما هو يخطب على منصة في وسط الساحة، كان الخلاسي ورجاله ينظفون الشوارع، ويرممون أبراج الكنائس، ويوزعون سكاكر الينسون على الأطفال وينقشون اسمه بزركشة مذهبة على الجدران. وحين ينتهي خطاب الكولونيل، كان رجال فرقته يطلقون المفرقعات الملونة. وعندما ينسحبون في آخر الأمر، يخلّفون وراءهم خطاً من الأمل يبقى عالقاً في الهواء لعدة أيام، مثل ذكرى نيزك مذنب. وسرعان ما صار الكولونيل هو المرشح الأكثر شعبية. لقد كان ذلك الرجل الذي برز من الفراغ ظاهرة لم يُعرف لها مثيل. وانتشر صيته في أنحاء البلاد محركاً قلب الوطن. الصحافة اهتمت به، وسافر الصحفيون من أماكن بعيدة لإجراء مقابلات معه، وتكاثر عدد أعدائه.

قال الخلاسي لدى إكمال الأسبوع الثامن من النجاح:

- إننا نتقدم جيداً أيها الكولونيل.

لكن المرشح لم يصغ إليه، إذ كان يكرر لنفسه كلمتيه السريتين، كما هي عادته في هذه الفترة. كان يذكرهما حين يبدأ بالحزن، ويهمس بهما وهو نائم، ويحملهما معه على جواده، ويفكر فيهما قبل أن يلقي خطبته الشهيرة، ويفاجئ نفسه وهو يتذوقهما في لحظات شروده. وفي كل مناسبة ترد فيها هاتان الكلمتان إلى ذهنه كان يعود إلى الإحساس بالرائحة البرية، وحرارة الحريق، والملامسة الرهيبة، وأنفاس النعناع، إلى أن صار يسير مثل منوَّم وأدرك رجاله أن حياته ستنتهي قبل أن يصل إلى كرسي الرؤساء.

- أية شياطين أصابتك أيها الكولونيل - سأله الخلاسي مرات كثيرة، إلى أن قال له القائد أخيراً إن سبب حالته المعنوية تلك هو الكلمتان اللتان انغرستا في بطنه.

فقال الخلاسي:

- أخبرني بهما، فقد تفقدان بذلك سلطانهما.

ورد الكولونيل:

- لن أخبرك بهما، إنهما لي وحدي.

ولتعبه من رؤية قائده يذوي يوماً بعد آخر، حمل الخلاسي بندقيته على كتفه وخرج بحثاً عن بائعة الكلمات. اقتفى آثارها في هذه الجغرافية كلها إلى أن وجدها تحت المظلة وهي تمارس مهنتها، فوقف أمامها مباعداً مابين ساقيه ومسدداً سلاحه نحوها، وقال آمراً:

- ستأتين معي.

لقد كانت تنتظره. فالتقطت دواة الحبر، ونزعت مظلة خيمتها،

وألقت الشال على كتفيها وصعدت بصمت على ردف الجواد. لم يتبادلا ولا إيماءة واحدة خلال الطريق كله. وبعد يومين وصل الخلاسي إلى المعسكر وقاد المرأة أمام الفرقة لتمثل بين يدي المرشح.

ـ أعدْ إليها كلمتيها أيها الكولونيل لكي تعيد إليك الرجولة ـ قال وهو يسدد سلاحه إلى عنق الأسيرة.

تبادل الكولونيل وبيليسا كريبوسكولاريو النظرات طويلاً، وتفحص كل منهما الآخر عن بعد، وحينئذ أدرك الرجال أن الوقت قد فات للتخلص من هاتيك الكلمتين اللعينتين، لأنهم استطاعوا جميعهم أن يروا عيني أسد البوما الضاريتين وهما تتحولان إلى عينين وديعتين حين تقدمت نحوه دون أن تبتسم وأمسكت بيده.

طفلة خبيثة

وهي في الحادية عشرة من عمرها كانت إيلينا ميخياس ما تزال جروة ضامرة، ذات بشرة لابريق فيها مثل غيرها من الأطفال المتوحدين، لها فم فيه بعض الفجوات بسبب تبديل متأخر للأسنان، وشعر له لون جرذ، وهيكل عظمي مرئي يبدو مطابقاً تماماً لحجمها ويهدد بالخروج من ركبتيها ومرفقيها. لم يكن هناك في مظهرها ما يشي بأحلامها الحامية أو يكشف عن المخلوقة العاطفية التي كانتها. لقد كانت تمر دون أن تُرى بين الأثاث المبتذل والستائر الباهتة في نُزل أمها. كانت مجرد قطة كئيبة تلعب بين نباتات الجرانيوم المعفرة بالغبار والسراخس الضخمة في الفناء أو تنتقل بين مواقد المطبخ وموائد صالة الطعام حاملة أطباق العشاء. ونادراً ما كان أحد الزبائن ينتبه لوجودها، وإذا فعل أحدهم ذلك فلكي يأمرها بأن ترش أعشاش الصراصير بمبيد للحشرات أو لتملأ خزان الحمّام حين تحجم المضخة المهلهلة عن رفع الماء إلى الطابق الثاني. ولم يكن لدى أمها المنهوكة من الحر وأعمال البيت أي حماسة للحنان أو أي متسع من الوقت لمراقبة ابنتها، ولهذا لم تعرف متى بدأت إيلينا بالتحول إلى كائن مختلف. لقد كانت خلال سنوات حياتها الأولى طفلة صموتاً وخجولة، مشغولة دائماً بألعاب سرية، تتحدث وحدها في أحد الأركان وتمص إصبعها. لم تكن تخرج إلا إلى المدرسة أو إلى السوق، ولم يكن يبدو عليها الاهتمام بقطيع الأطفال الصاخبين الذين في مثل عمرها وهم يلعبون في الشارع.

لقد توافق تحول إيلينا ميخياس مع مجيء خوان خوسيه بيرنال، أو **العندليب**، كما كان يلقب نفسه، وكما كان يعلن عن ذلك ملصق علقه على جدار حجرته. كان معظم نزلاء البانسيون من الطلبة أو الموظفين في فروع غامضة في الإدارة العامة. إنهم سيدات وسادة محترمون كما كانت تقول أمها التي تتباهى بأنها لا تقبل أي شخص تحت سقف نزلها، وأن جميع نزلائها هم أناس محترمون، لهم وظيفة معروفة، وعادات حميدة، ويسار كاف لكي يدفعوا أجرة شهر مقدماً، واستعداد للالتزام بأنظمة البانسيون التي هي أقرب إلى أنظمة دير رهبان منها إلى أنظمة فندق. "فعلى أي أرملة مثلي أن تحافظ على سمعتها وتفرض احترامها، ولست أريد لمحلي أن يتحول إلى وكر للمشردين والفاسدين" هذا ما كانت تردده الأم بكثرة، حتى لا يتمكن أحد ـ وخاصة إيلينا ـ من تجاهله.

كانت إحدى مهمات الطفلة مراقبة النزلاء وإطلاع أمها أولاً بأول على أية تفاصيل مريبة. وكانت هذه الأعمال التجسسية قد أرهفت الحالة اللاجسدية للصبية التي كانت تصبح ضبابية في عتمة الحجرات، فتتواجد بصمت وتظهر فجأة وكأنها قد رجعت للتو من بعدها غير المرئي. وكانت الأم وابنتها تنجزان معاً أعمال النزل الكثيرة، كل منهما مستغرقة في روتينها الصامت، دون حاجة إلى التواصل. والحقيقة أنهما كانتا مقلتين في الكلام، وحين تفعلان ذلك في لحظات فراغ وقت القيلولة، يكون حديثهما عن الزبائن فقط. وفي بعض الأحيان كانت إيلينا تحاول تزيين الحياة الرمادية لأولئك الرجال والنساء العابرين الذين يمرون بالبيت دون أن يخلفوا ذكريات، فتنسب إليهم حدثاً غريباً، وتلونهم بألوان حب سري أو مأساة ما، ولكن الأم كانت تملك غريزة صائبة تمكّنها من كشف تخيلات ابنتها. وبالطريقة نفسها كانت تكتشف

بعض المعلومات التي تحاول ابنتها أن تخفيها عنها. لقد كانت تتمتع بإحساس عملي مرهف وتصور واضح لكل ما يجري تحت سقفها، فهي تعرف بدقة ما يفعله كل واحد من الزبائن في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل، وتعرف كم من السكر بقي في مستودع المؤن، ولمن يقرع جرس الهاتف، وأين أصبح المقص. لقد كانت فيما مضى امرأة سعيدة، بل وجميلة أيضاً، ولم تكن فساتينها المحتشمة قادرة على كبح جموح جسدها الذي مازال شاباً، ولكن انشغالها منذ سنوات عديدة في تفاصيل بائسة راح ينشر الجفاف في طزاجة روحها وفي تلذذها بالحياة. ومع ذلك، فقد تبدل كل شيء بالنسبة إليها، وبالنسبة إلى إيلينا أيضاً، مذ جاء خوان خوسيه بيرنال ليطلب حجرة يستأجرها. فالأم المفتونة بنبرة **العندليب** المغترة وبالإيحاء الاحتفالي للملصق، خالفت أنظمتها التي وضعتها هي نفسها ووافقت على إقامته في النزل، بالرغم من أنه لم يكن يتفق في شيء مع صورتها للزبون النموذجي. قال بيرنال إنه يغني في الليل ولابد له بالتالي من أن يستريح في النهار، وإنه بلا عمل في الوقت الراهن، ولهذا لا يمكنه أن يدفع أجرة الشهر مقدماً، وإنه موسوس جداً في عاداته في الأكل والنظافة، فهو نباتي ويحتاج للاستحمام مرتين في اليوم. وقد فوجئت إيلينا حين رأت أمها تدون، دون جدال، اسم النزيل الجديد في السجل وتقوده إلى الغرفة وهي تجر بمشقة حقيبته الثقيلة، بينما هو يحمل علبة الجيتار والأنبوب الكرتوني الذي يحتفظ فيه بالملصق. التصقت الصغيرة بالجدار متخفية، ولاحقتهما على الدرج وانتبهت إلى ملامح وجه النزيل الجديد وهو ينظر إلى مئزر أمها القطني الملتصق بإليتيها المتضمختين بالعرق. ولدى الدخول إلى الغرفة ضغطت إيلينا مفتاح الكهرباء فبدأت رياش مروحة السقف الكبيرة بالدوران مطلقة أزيز حديد صدئ.

منذ تلك اللحظة تبدل روتين البيت. فقد ازداد العمل لأن بيرنال ينام في الساعات التي يخرج فيها الآخرون لقضاء أشغالهم، ويحتل الحمّام عدة ساعات في اليوم، ويستهلك كميات مذهلة من أطعمة عمادها الأرانب التي يجب سلق كل واحد منها على حدة، ويستخدم الهاتف في كل وقت، ويصل المكواة بالكهرباء ليكوي قمصانه الاحتفالية... كل ذلك دون أن تطالبه صاحبة النزل بأجر إضافي.

كانت إيلينا تعود من المدرسة مع قيظ ساعة القيلولة، حين يقبع النهار خامداً تحت وهج ضوء أبيض رهيب، ولكن بيرنال يكون في تلك اللحظة في بداية نومه. وبأمر من أمها كانت تخلع حذاءها كي لاتخرق السكون المتكلف الذي يلف البيت.

لاحظت الطفلة أن أمها تتبدل من يوم إلى آخر. وقد انتبهت إلى علامات ذلك التبدل منذ البداية، وقبل وقت طويل من بدء نزلاء البانسيون الآخرين بالتهامس من وراء ظهريهما. كانت الرائحة هي أول مظاهر التبدل، فقد بدأ يفوح من المرأة شذى أزهار نفاذ يبقى طافياً في أجواء الغرف التي تمر منها. لقد كانت إيلينا تعرف كل ركن في البيت، وقد أتاحت لها عاداتها الطويلة في التجسس اكتشاف مخبأ زجاجة العطر وراء أكياس الأرز وعلب الأطعمة المحفوظة في مستودع المؤن. ثم لاحظت بعد ذلك خط القلم القاتم على رموش أمها ولمسة الأحمر الخفيفة على شفتيها، والملابس الداخلية الجديدة، والابتسامة الفورية حين ينزل بيرنال أخيراً عند الغروب، وقد استحم لتوه، وشعره ما يزال مبللاً، ويجلس في المطبخ ليلتهم أطعمته الغريبة التي مثل أطعمة فقير هندي. كانت الأم تجلس قبالته ويروي لها أحداثاً من حياته الفنية، محتفلاً بكل مغامرة من مغامراته بضحكة رنانة تخرج من بطنه.

أحست إيلينا بالكراهية في أول الأمر تجاه هذا الرجل الذي احتل كل فضاء البيت وكل اهتمام أمها. كانت تشمئز من شعره المطلي بالبرينتين، ومن أظفاره المطلية بطلاء شفاف لماع، ومن عادته الغريبة في تنظيف أسنانه بعود رفيع، وتحذلقه ووقاحته في جعل الآخرين يخدمونه. كانت تتساءل عما تراه أمها فيه، فهو مجرد أفاق ضئيل الأهمية.. مغني بارات بائسة لم يسمع به أحد، وربما كان قواداً مثلما ألمحت همساً الآنسة صوفيا، إحدى أقدم النزيلات. ولكن، في مساء يوم شديد الحر، حين لم يكن هناك أي عمل تقوم به، وكان الوقت محبوساً بين جدران البيت، ظهر خوان خوسيه بيرنال في الفناء ومعه جيتاره، وجلس على مقعد تحت شجرة التين وبدأ يداعب الأوتار. اجتذبت الأنغام جميع النزلاء الذين أخذوا يطلون واحداً بعد الآخر بشيء من الخجل في أول الأمر، دون أن يعرفوا سبب كل تلك الضجة، ولكنهم ما لبثوا أن أخرجوا كراسي قاعة الطعام وجلسوا حول **العندليب**. كان للرجل صوت مبتذل ولكنه قوي، وكان في غنائه شيء من الظرافة. فهو يحفظ كل أغاني البوليرو القديمة وقائمة أغاني الرانتشيرو المكسيكية وبعض أغنيات مقاتلي حرب العصابات التي تتضمن كلمات بذيئة وشتائم جعلت وجوه النساء تصطبغ بحمرة الخجل. كانت تلك هي المرة الأولى التي يعم البانسيون فيها جو احتفالي مرح مذ وعت الطفلة على الدنيا. وعندما خيم الظلام أشعلوا مصباحي الزيت وعلقوهما على الأشجار، وأحضروا بيرة وزجاجة الروم التي يحتفظون بها لعلاج حالات الرشح. قدمت إيلينا الكؤوس وهي ترتعش، فقد كانت تحس بكلمات الأغاني الحزينة وحسرات الجيتار في كل خلية من جسدها وكأنها حمى. وكانت أمها في أثناء ذلك تتابع اللحن بحركة قدمها. ثم نهضت فجأة وأمسكت بيدي ابنتها وأخذتا ترقصان، فحذا

الآخرون حذوهما على الفور، بمن في ذلك الآنسة صوفيا التي كانت كلها تصنعاً وضحكات عصبية. رقصت إيلينا لبعض الوقت متابعة إيقاع صوت بيرنال ومشدودة إلى جسد أمها، متنشقة رائحة عطرها الجديد وهي سعيدة تماماً. ولكنها انتبهت فجأة إلى أن أمها أخذت تبعدها برفق وتنفصل عنها لتواصل الرقص وحدها. راحت المرأة تتمايل وهي تغمض عينيها وتميل برأسها إلى الوراء وكأنها شرشف يرف مع النسيم. تراجعت إيلينا قليلاً قليلاً، وعاد الآخرون أيضاً إلى كراسيهم تاركين صاحبة البانسيون وحدها وسط الفناء، غائبة في رقصتها.

منذ تلك الليلة صارت إيلينا ترى بيرنال بعينين جديدتين. نسيت أنها تشمئز من برينتينه ومن عيدان تنظيف أسنانه وعجرفته، وصارت كلما رأته أو سمعته يتكلم تتذكر أغنيات تلك الحفلة المرتجلة وتشعر مجدداً بالهياج في جلدها والاضطراب في روحها، وباحتدام محموم لا تعرف كيف تصوغه في كلمات. صارت تراقبه خفية من بعيد، وهكذا بدأت تكتشف تلك الأشياء التي لم تستطع إدراكها من قبل: كتفيه، عنقه الثخين والقوي، الانحناءة الحسية في شفتيه الممتلئتين، أسنانه المنتظمة، تأنق يديه الطويلتين والدقيقتين. وراودتها رغبة لا تطاق في الاقتراب منه لتدفن وجهها في صدره الأسمر، وسماع تردد الهواء في رئتيه ودقات قلبه، واستنشاق رائحته، تلك الرائحة الجافة والنفاذة مثل رائحة الجلد المدبوغ أو التبغ. صارت تتصور نفسها تداعب شعره، تلمس عضلات ظهره وساقيه، تكتشف شكل قدميه متحولة إلى دخان لكي تنفذ من حنجرته وتحتله كاملاً. ولكن، إذا ما رفع الرجل بصره والتقت عيناه بعينيها، كانت إيلينا تركض هاربة لتختبئ في أبعد أجمة في الفناء وهي ترتجف. لقد هيمن بيرنال على كل أفكارها، ولم يعد بإمكان الطفلة تحمل ثبات

الزمن بعيداً عنه. ففي المدرسة كانت تتململ وكأنها في كابوس، لا ترى ولا تسمع شيئاً سوى الصور التي في داخلها، حيث لا وجود لأحد سواه. ما الذي يفعله في هذه اللحظة؟ ربما ينام منبطحاً على سريره في غرفته الغارقة في العتمة بستارة نافذتها الخشبية المسدلة، حيث الهواء الساخن يتحرك مع حركة أذرع المروحة، وحيث هناك خط من العرق على طول عموده الفقري، ووجهه غارق في الوسادة.

وما إن يقرع جرس المدرسة حتى تخرج مهرولة إلى البيت، متضرعة ألا يكون قد استيقظ بعد، وأن تتمكن من الاغتسال وارتداء ثوب نظيف والجلوس في المطبخ بانتظار مجيئه متظاهرة بأنها تكتب واجباتها المدرسية حتى لا ترهقها أمها بالأعمال المنزلية. بعد ذلك، حين تسمعه يخرج من الحمام وهو يصفر، كانت تحتضر من الهلع والخوف، واثقة من أنها ستموت من السعادة إذا ما لمسها أوكلمها، متلهفة لحدوث ذلك، ولكنها مستعدة في الوقت نفسه للاختباء بين الأثاث، فهي لا تستطيع أن تحيا دونه، ولكنها عاجزة كذلك عن تحمل حضوره المتأجج. كانت تتابعه خفية في كل مكان، وتقدم له خدماتها في كل أمر، وتحزر رغباته لتقدم له ما يحتاجه قبل أن يطلبه، ولكنها كانت تتحرك دوماً وكأنها شبح لكي لاتكشف عن وجودها.

لم تكن إيلينا تستطيع النوم في الليل لأنه لا يكون في البيت. فكانت تغادر أرجوحة نومها وتخرج لتتجول في الطابق الأول مثل شبح، وتستجمع شجاعتها أخيراً لتدخل بتكتم إلى غرفة بيرنال. وكانت تغلق الباب وراءها وتفتح أباجور النافذة قليلاً كي تدخل انعكاسات أضواء الشارع وتضيء الطقوس التي ابتدعتها لتستحوذ على أجزاء من روح هذا الرجل المبثوثة في أشيائه. كانت تدنو من الزجاج بعينين مفتوحتين على

اتساعهما لترى نفسها بعينيه، وتقبل شفتيها في قبلة باردة وقاسية تتخيلها دافئة مثل فم الرجل. وتحس بسطح المرآة يلامس صدرها فتنتصب حبتا الكرز الصغيرتان في نهديها مسببتين لها ألماً أصم يجتاح جسدها نحو الأسفل ويستقر في نقطة بين ساقيها. فتعيد الكرَّة بحثاً عن هذا الألم مرة بعد أخرى. وتُخرج من الخزانة أحد قمصان بيرنال وجزمته وتلبسهما. وتخطو بضع خطوات في الغرفة بحذر شديد، كي لا تثير ضجة. وبينما هي بهذه الملابس، تأخذ بتقليب أدراجه، وتسرح شعرها بمشطه، وتمص فرشاة أسنانه، وتلحس معجون حلاقته، وتداعب ملابسه المتسخة. بعد ذلك، ودون أن تدري السبب، كانت تخلع القميص والجزمة وقميص نومها وتستلقي عارية على سرير بيرنال، مستنشقة رائحته بجشع، ومستحضرة دفء جسده لتغرق فيه. كانت تلامس جسدها كله، ابتداء من قمة رأسها ذات الشكل الغريب، فإلى غضاريف أذنيها البراقتين، فمحجري عينيها، وفتحة فمها، ثم تواصل نحو الأسفل متتبعة العظام والتكورات والانحناءات في هذا الكل التافه الذي يشكله جسدها، متمنية أن تصبح ضخمة وثقيلة وكثيفة مثل حوت. وكانت تتخيل نفسها تمتلئ بسائل لزج وحلو مثل العسل، وأنها تنتفخ وتكبر إلى حجم دمية غير عادية إلى أن تملأ السرير كله، والحجرة كلها، والبيت كله بجسدها المنتفخ. وكانت تستنفد قواها في البكاء، فتغرق في النوم للحظات أحياناً.

في صباح أحد أيام السبت رأت إيلينا من نافذتها بيرنال يقترب من أمها وهي منحنية على الحوض تغسل الملابس. وضع الرجل يده على خصر المرأة فلم تتحرك، وكأن ثقل تلك اليد كان جزءاً من جسدها. ولمحت إيلينا من بعيد حركة التملك التي قام بها، وسلوك أمها المستسلم، وحميمية الاثنين، وذاك التيار الذي يوحدهما في سر مهيب. أحست الطفلة بدفقة

عرق تحممها بالكامل، ولم تعد تستطيع التنفس، وصار قلبها عصفوراً مذعوراً بين أضلاعها، وأحست بوخز في يديها وقدميها، كأن الدم يندفع ليمزق رؤوس أصابعها، فبدأت منذ ذلك اليوم تتجسس على أمها.

راحت تكتشف الأدلة التي تبحث عنها واحداً بعد الآخر، في البدء النظرات، والمصافحات التي تطول أكثر من اللازم، والابتسامات المتواطئة، والشك بأن ساقيهما تلتقيان تحت الطاولة وأنهما يبحثان عن ذرائع ليبقيا وحدهما. وأخيراً، في إحدى الليالي، وبينما هي عائدة من غرفة بيرنال بعد أن أتمت طقوس عشقها، سمعت خرير ماء تحت أرضي آتٍ من حجرة أمها. عندئذ أدركت أنه طوال ذلك الوقت، وبينما هي تظن أن بيرنال يكسب قوته من الغناء الليلي، كان الرجل يقضي وقته في الجانب الآخر من الممر، وبينما هي تقبّل ذكراه في المرآة وتتنشق أثره في ملاءات السرير، كان هو مع أمها. وبالمهارة التي اكتسبتها طوال سنوات في جعل نفسها غير مرئية، نفذت من الباب المغلق ورأتهما مستسلمين للذة. كانت كلّة المصباح ذات الأهداب تهيج ضوءاً دافئاً يكشف العاشقين في السرير، وكانت أمها قد تحولت إلى مخلوقة مكورة، وردية، متأوهة، شهية، إخطبوط بحري متلوٍ، مجرد مجسات وملامس، كلها فم وأيد وأرجل وفتحات، تتقلب وتتقلب ملتصقة بجسد بيرنال الضخم الذي بدا لها بالمقابل متيبساً، بليداً، متشنج الحركات.. قطعة خشب تهزها ريح غامضة. لم تكن الصغيرة قد رأت حتى ذلك الحين رجلاً عارياً، وقد فوجئت بالاختلافات الأساسية. لقد بدت لها الطبيعة الذكرية همجية، واحتاجت لبعض الوقت كي تتغلب على الرعب وتجبر نفسها على النظر. وفجأة، فتنها المشهد وراحت تراقب باهتمام كامل لكي تتعلم من أمها الحركات التي استطاعت بها أن تنتزع بيرنال منها، فقد كانت تلك

الحركات أشد جبروتاً من حبها ومن كل صلواتها وأحلامها ونداءاتها الصامتة، ومن كل طقوسها السرية لاستحضاره إلى جانبها. كانت واثقة من أن تلك المداعبات والوشوشات تتضمن مفتاح السر، فإذا ما تمكنت من امتلاكها فإن خوان خوسيه بيرنال سينام معها في أرجوحة النوم التي تعلقها بخطافين في حجرة الخزائن.

أمضت إيلينا الأيام التالية في حالة غسقية. لقد فقدت الاهتمام تماماً بكل ما يحيط بها، بما في ذلك بيرنال نفسه الذي صار يحتل مقصورة احتياطية في ذهنها، وغرقت في واقع خيالي أحلته بالكامل محل عالم الأحياء. واصلت إنجاز أعمالها الروتينية بقوة العادة، ولكن روحها كانت غائبة عن كل ما تقوم به. وعندما لاحظت أمها انعدام شهيتها، عزت ذلك إلى اقترابها من سن البلوغ، على الرغم من أن إيلينا كانت ما تزال فتية جداً بكل المعايير، فأفسحت من وقتها لتجلس على انفراد مع ابنتها وتوضح لها سخرية ولادتها أنثى. استمعت الصغيرة بصمت ماكر إلى كلام مطول عن اللعنة التوراتية ودم الحيض، موقنة من أن هذا كله لن يحدث لها مطلقاً.

في يوم الأربعاء أحست إيلينا بالجوع لأول مرة منذ نحو أسبوع. فدخلت إلى مستودع المؤن ومعها فتاحة علب وملعقة، والتهمت محتويات ثلاث علب بازيلاء، ثم نزعت بعد ذلك الغلاف الأحمر الذي يغطي كرة جبن هولندي وأكلتها مثلما تأكل تفاحة. ثم ركضت إلى الفناء وهي منحنية الظهر، وتقيأت خليطاً أخضر على نبتات الجرانيوم. وقد أعادها ألم بطنها وطعم الحموضة في فمها إلى الإحساس بالواقع. وفي تلك الليلة نامت بهدوء، متكورة في أرجوحة نومها وهي تمص إصبعها كما في أزمنة المهد. استيقظت الصبية مرحة، وساعدت أمها في إعداد القهوة للنزلاء ثم تناولت

الفطور معها في المطبخ قبل أن تذهب إلى دروسها. ولكنها وصلت إلى المدرسة وهي تشكو من مغص حاد في معدتها، وبقيت تتلوى وتطلب الإذن بالذهاب إلى دورة المياه حتى سمحت المعلمة لها عند الضحى بالعودة إلى البيت.

قامت إيلينا بالتفافة طويلة حتى تتفادى المرور من شوارع الحي، واقتربت من البيت من جهة الجدار الخلفي الذي يطل على هوة. وتمكنت من تسلق الجدار والقفز إلى الفناء بمخاطرة أقل مما كانت تتصور. كانت قد قدرت بأن أمها تكون في السوق في مثل هذا الوقت، وحيث أن هذا اليوم هو يوم بيع السمك الطازج فإنها ستتأخر كثيراً قبل أن تعود. ولم يكن هناك في البيت أحد سوى خوان خوسيه بيرنال والآنسة صوفيا التي لم تذهب إلى عملها منذ أسبوع بسبب التهاب في مفاصلها.

خبأت إيلينا كتبها وحذاءها تحت بعض الأغطية، وتسللت إلى داخل البيت. صعدت الدرج ملتصقة بالجدار، حابسة أنفاسها، إلى أن سمعت صوت المذياع يدوي في غرفة الآنسة صوفيا، فأحست بطمأنينة أكبر. انفتح باب غرفة بيرنال فوراً. كان الظلام دامساً في الداخل، ولم تستطع رؤية أي شيء للحظات، لأنها آتية من الوهج الصباحي في الخارج، ولكنها كانت تعرف الغرفة عن ظهر قلب، فقد قاست أبعادها مرات ومرات، وكانت تعرف أين يوجد كل غرض، وتعرف بدقة الأماكن التي تصرّ فيها الأرضية الخشبية، وكم خطوة يبعد السرير عن الباب. ومع ذلك، فقد انتظرت إلى أن اعتادت عيناها على العتمة وظهرت هياكل قطع الأثاث. ثم استطاعت بعد ذلك أن ترى الرجل الذي على السرير أيضاً. لم يكن منبطحاً مثلما تصورته مرات كثيرة، وإنما كان مستلقياً على ظهره فوق الشراشف، ولا يلبس شيئاً سوى السروال الداخلي. وكانت إحدى

ذراعيه ممدودة بينما الأخرى مستقرة على صدره، وخصلة من شعره تغطي عينيه. أحست إيلينا فجأة بأن كل مشاعر الخوف والجزع المتراكمة طوال الأيام السابقة قد تلاشت تماماً وتركتها نظيفة، بطمأنينة من تعرف ما الذي عليها عمله. بدا لها أنها قد عاشت هذه اللحظة مرات كثيرة؛ وقالت لنفسها انه ليس هناك ما تخشاه، وإن الأمر هو مجرد طقس مختلف بعض الشيء عن الطقوس السابقة. خلعت زيها المدرسي ببطء، ولكنها لم تتجرأ على التخلص من سروالها الداخلي القطني. ثم دنت من السرير. لقد صار بإمكانها أن ترى بيرنال بصورة أفضل. أحست بنفسها عند الحافة، على مقربة من يد الرجل، وكانت تحاول ألا تسمح لثقل جسدها بأن يخلّف ولو انثناءة واحدة في الشراشف. انحنت ببطء إلى أن أصبح وجهها على بعد سنتيمترات منه، واستطاعت أن تشعر بحرارة أنفاسه ورائحة جسده الحلوة. وبحذر بالغ استلقت إلى جانبه، ومدت ساقيها واحدة بعد الأخرى بحرص شديد كي لا توقظه. انتظرت، مصغية إلى الصمت، قبل أن تقرر وضع يدها فوق بطنه بمداعبة تكاد تكون غير محسوسة. بعثت هذه الملامسة موجة خانقة في جسدها، وظنت أن دقات قلبها ترن مدوية في كل أرجاء البيت وتوقظ الرجل. لقد احتاجت إلى بضع دقائق كي تستعيد وعيها، وحين تأكدت من أنه لا يتحرك استرخت من توترها وأسندت يدها بكل ثقل ذراعها، وهو ثقل خفيف جداً على أي حال بحيث لم يؤثر على استكانة بيرنال. تذكرت إيلينا الحركات التي رأت أمها تمارسها، وبينما كانت تدس أصابعها تحت مطاط سرواله الداخلي، بحثت عن فم الرجل وقبلته مثلما فعلت مرات ومرات قبالة المرآة. تأوه بيرنال وهو ما يزال نائماً، وأحاط خاصرة الصبية بذراعه، بينما كانت يده الأخرى تمسك بيدها لتقودها، وكان فمه ينفتح ليرد إليها القبلة وهو يهمس باسم عشيقته.

سمعته إيلينا يذكر اسم أمها، ولكنها التصقت به أكثر بدلاً من أن تنسحب. حملها بيرنال من خصرها ووضعها فوق جسده وهو يبدأ أولى حركات الحب. عندئذ فقط أحس بالهشاشة المطلقة لهيكل العصفور العظمي الذي فوق صدره، فاخترق وميض وعي غمامة نومه القطني المنفوش، وفتح الرجل عينيه. أحست إيلينا بجسده يتوتر، ووجدت جسدها محمولاً ومستبعداً بعنف كاد يلقي بها إلى الأرض، ولكنها انتصبت واقفة ورجعت إليه لتعانقه من جديد. صفعها بيرنال على وجهها وقفز من السرير، ربما كان مذعوراً من محرمات وكوابيس لا يدري أحد كنهها.

صرخ بها:

- خبيثة، طفلة خبيثة!

عندئذٍ فُتح الباب وظهرت الآنسة صوفيا عند العتبة.

❖ ❖ ❖

أمضت إيلينا السنوات السبع التالية في مدرسة داخلية تديرها الراهبات، ثم ثلاث سنوات أخرى في جامعةٍ في العاصمة، ودخلت بعد ذلك للعمل في مصرف. وفي أثناء ذلك تزوجت أمها من عشيقها وأصبحا يشرفان كلاهما على إدارة النزل، إلى أن جمعا مدخرات تكفي لكي يتقاعدا في بيت ريفي، حيث صارا يزرعان أزهار القرنفل والأقحوان لبيعها في المدينة. علق **العندليب** ملصقه الفني في إطار مذهب، ولكنه لم يعد إلى الغناء في استعراضات ليلية ولم يشعر أحد بالحنين إليه. لم يرافق زوجته مطلقاً حين كانت تذهب لزيارة ابنتها، ولم يكن يسأل عنها كذلك، لكي لا يوقظ شكوك روحه نفسها، ولكنه كان يفكر فيها في أحيان كثيرة. لقد بقيت صورة الطفلة على حالها بالنسبة إليه، لم تؤثر

فيها السنون، فهي الطفلة الشبقة التي غلبها الحب، والتي طردها هو نفسه. والحقيقة أن ذكرى تلك العظام الخفيفة، وتلك اليد الطفولية على بطنه، وذاك اللسان الصغير في فمه كانت تنمو في ذاكرته حتى تحولت إلى هاجس متسلط على عقله. فكلما احتضن جسد زوجته الثقيل، كان عليه أن يركز ذهنه على تلك الرؤى، مستحضراً إيلينا بتفاصيلها، لكي يوقظ دافع اللذة الذي كان يخبو لديه أكثر فأكثر. وكان في كهولته يذهب إلى محلات بيع ملابس الأطفال ويبتاع سراويل داخلية قطنية يتلذذ بمداعبتها. ولكنه كان يخجل بعد ذلك من هذه اللحظات غير اللائقة، فيحرق تلك السراويل أويدفنها عميقاً في الفناء، في محاولة غير مجدية لنسيانها. استحوذت عليه عادة الطواف حول المدارس والحدائق لكي يراقب من بعيد البنات الغريرات اللواتي يُعدن إليه للحظات بالغة القصر هوّة ذلك الخميس الذي لايُنسى.

كانت إيلينا قد أصبحت في السابعة والعشرين من عمرها حين ذهبت لزيارة أمها أول مرة لتعرّفها على خطيبها، وهو نقيب في الجيش أمضى قرناً من الزمان وهو يتوسل إليها الموافقة على الزواج به. وصل الشابان في إحدى أمسيات شهر تشرين الثاني الباردة، وكان الشاب يرتدي ثياباً مدنية، بينما كانت إيلينا محملة بالهدايا. وكان بيرنال ينتظر هذه الزيارة بلهفة مراهق. لقد تأمل نفسه في المرآة مطولاً، متفحصاً صورته ومتسائلاً عما إذا كانت إيلينا ستلحظ الفروق التي طرأت عليه أم أن **العندليب** مازال في ذهنها عصياً على عاديات الزمن. كان قد هيأ نفسه للقاء منتقياً كل كلمة ومتصوراً كل الإجابات المحتملة. والشيء الوحيد الذي لم يخطر بباله هو أنه بدلاً من الطفلة النارية التي عاش معذباً من أجلها، ستظهر أمام عينيه امرأة وقورة وخجولة. وقد أحس بيرنال عندئذ بأنه وقع ضحية خيانة.

عند الغروب، وبعد انقضاء بهجة الوصول، وبعد أن تبادلت الأم وابنتها الحديث عن آخر المستجدات، أخرجوا بضعة كراسٍ إلى الفناء ليستمتعوا بالبرودة. كان الهواء مثقلاً برائحة القرنفل. وقد أعرب بيرنال عن رغبته في تقديم كأس من النبيذ للجميع، ولحقت به إيلينا لإحضار الكؤوس. بقيا وحيدين للحظات، وجهاً لوجه في المطبخ الضيق. وعندئذ، تقدم الرجل الذي انتظر هذه الفرصة طويلاً، وأمسك بذراع المرأة وقال لها إن كل ذلك كان خطأ فظيعاً، وإنه كان نائماً في ذلك الصباح ولم يعرف ما الذي فعله، وإنه لم يكن راغباً على الإطلاق في إلقائها أرضاً ولا في الصراخ بها مثلما فعل، وطلب منها أن ترأف بحاله وتغفر له لعله يستطيع بذلك أن يستعيد اتزانه، لأن سخطه المتأجج على مافعله كان يحاصره دون رحمة طوال كل تلك السنوات، فيحرق دمه ويفتت روحه. نظرت إيلينا بدهشة دون أن تدري ما تقول. عن أي طفلة خبيثة يتحدث؟ لقد أصبحت الطفولة بالنسبة إليها بعيدة جداً، وكانت آلام ذلك الحب الأول المصدود مركونة في مكانٍ مختوم من الذاكرة. ولم تكن تحتفظ بأي ذكرى من ذلك الشاب النائي.

فم الضفدع

كانت أزمنة شديدة القسوة في الجنوب . ليس في جنوب هذه البلاد، وإنما في جنوبي العالم، حيث الفصول مختلفة والشتاء لا يأتي في أعياد الميلاد مثلما هو الحال في البلدان المتحضرة، وإنما في منتصف السنة، كما في المناطق الهمجية. صخور وأعشاب كويرون وثلج، سهوب فسيحة تتفكك في تييرا دي فويغو متحولة إلى مسبحة من الجزر، وذرى سلاسل جبلية مكللة بالثلوج تسد الأفق في البعيد، وصمت مستقر هناك منذ مولد الزمان تقطعه أحياناً زفرة باطنية من أنهار الجليد المنزلقة ببطء نحو البحر. إنها طبيعة فظة، يقطنها بشر أفظاظ. لم يكن هناك في أوائل القرن ما يمكن للإنكليز أن يأخذوه، ولكنهم حصلوا مع ذلك على امتيازات لتربية الأغنام. وخلال سنوات قصيرة تكاثرت المواشي إلى حد صارت تبدو معه من بعيد وكأنها غيوم راكدة ملتصقة بسطح الأرض، فأكلت كل الخضرة ووطأت آخر مذابح ثقافات السكان الأصليين. في هذا المكان بالذات كانت هيرميليندا تكسب قوتها بألعاب الوهم.

في وسط السهب كان ينتصب بيت شركة المواشي الكبير مثل كعكة مهجورة، محاطة بعشب عبثي تحميه من تعسف المناخ زوجة المدير التي لم تطق صبراً على العيش خارج قلب الإمبراطورية البريطانية وواصلت ارتداء أثواب السهرات الاحتفالية لتناول العشاء على انفراد مع زوجها، الجنتلمان الهادئ المستغرق في كبرياء عادات مهجورة. كان العمال المحليون يعيشون في براكات المعسكر، تفصلهم عن أسيادهم أسيجة من

نباتات شائكة وورود برية تسعى دون طائل إلى الحد من اتساع السهوب وخلق وهم في أذهان الأجانب بأنهم في ريف إنكليزي خالص.

كان العمال يعيشون في ظل المحنة، محرومين من الحماية مثل المواشي التي يرعونها، يراقبهم حراس الإدارة، ويعذبهم البرد القارس دون أن يتمكنوا من تناول حساء بيتي طوال شهور. وكانوا لا يعدمون في المساء من يتناول الجيتار، فيمتلئ المشهد عندئذ بالأغاني العاطفية. لقد كان العوز إلى الحب كبيراً جداً، على الرغم من ذلك الحجر اللماع الذي يضعه الطاهي في الطعام ليخمد رغبات الجسد وتداعي الذكريات، حتى إن العمال كانوا يضاجعون الأغنام، بل والفقمات كذلك إذا هي اقتربت من الشاطئ وتمكنوا من اصطيادها. خصوصاً وأن لهذه الحيوانات أثداء كبيرة مثل أثداء الأمهات، فإذا ماسُلخ جلدها وهي ما تزال حية، دافئة ونابضة، فإنه يمكن لرجل محروم أن يغمض عينيه ويتخيل أنه يحتضن حورية بحر. وبالرغم من كل هذه المشقات، كان العمال يلهون أكثر من أرباب عملهم بفضل ألعاب هيرميليندا المحرمة.

لقد كانت المرأة الشابة الوحيدة في اتساعات تلك الأراضي الشاسعة، إضافة إلى السيدة الإنكليزية التي لم تكن تجتاز سياج الورود إلا لتقتل أرانب برية برصاص بندقية صيد، ولم يكن يكاد يظهر منها في تلك المناسبات إلا طرحة قبعتها وسط العجاج الجهنمي ونباح كلاب الصيد. أما هيرميليندا بالمقابل، فكانت أنثى قريبة ومحددة المعالم، تمتزج في عروقها دماء الجرأة ولديها استعداد طيب للمرح. وقد اختارت مهنة المواساة تلك تلبية لميلها المحض والبسيط. فقد كانت معجبة بكل الرجال عموماً، وبعدد كبير منهم على وجه الخصوص. وكانت تسود بينهم مثل ملكة النحل. فهي تحب فيهم رائحة العمل والرغبة، والصوت الأجش والذقن غير الحليقة منذ

يومين، والجسد القوي والمطاوع في الوقت نفسه بين يديها، والطبيعة الصدامية والقلب الساذج. لقد كانت تعرف حصانة زبائنها الوهمية وضعفهم الأقصى، ولكنها لم تكن تستغل أياً من هذين الشرطين، بل على العكس من ذلك تماماً، فقد كان الشرطان كلاهما يثيران في نفسها الشفقة. لقد كان في طبيعتها الباسلة خيوط من الحنان الأمومي، وكثيراً ما كان الليل يداهمها وهي ترقع قميصاً أو تطهو دجاجة لأحد العمال المرضى، أو تكتب رسائل حب إلى خطيبات بعيدات. كانت تجمع ثروتها على فرشة مملوءة بصوف خام، تحت سقف من صفيح فيه ثقوب تُصدر موسيقى نايات ومزامير حين تخترقها الرياح. وكانت متماسكة اللحم لا تشوب بشرتها شائبة، تضحك برغبة ولديها من أساليب التهيج أكثر بكثير مما يمكن أن تقدمه نعجة مذعورة أو فقمة مسلوخة. أما ساقاها المتينتان مثل ساقي فارس، ونهداها اللذان لم تؤثر فيهما كثرة الاستخدام، فقد طبقت شهرتها مساحة ستمئة كيلومتر في الإقليم الوعر، فكان عشاقها يرحلون إليها من مسافات بعيدة لقضاء لحظات معها. لقد كانوا يأتون في أيام الجمعة على جياد تعدو بأقصى سرعة من جهات نائية، حتى إن تلك البهائم المغطاة بالزبد كانت تسقط مغمى عليها عند الوصول.

كان أرباب العمل الإنكليز يحظرون تناول المشروبات الروحية، لكن هيرميليندا كانت تتدبر الأمور لتقطير خمرة سرية تحسّن بها من معنويات زبائنها وتتلف أكبادهم، وكانت تستخدمها كذلك لإشعال المصابيح في أوقات اللهو. وقد كانت المراهنات تبدأ بعد تناول كأس الخمر الثالثة، حين يصبح من المستحيل تركيز النظر وشحذ الذهن.

كانت هيرميليندا قد اكتشفت طريقة للحصول على فوائد مضمونة دون اللجوء إلى أساليب الغش. ففضلاً عن ورق اللعب والنرد، كان لدى

الرجال عدد آخر من الألعاب، وكانت الجائزة الوحيدة دوماً هي شخصها بالذات. فكان الخاسرون يعطونها نقودهم، والفائزون يعطونها النقود أيضاً، ولكنهم يحصلون على حق الاستمتاع بقضاء لحظات قصيرة معها، دون مداعبات أو مقدمات تمهيدية، ليس ذلك لأنها كانت تفتقر إلى النية الطيبة، وإنما لأنه لم يكن لديها الوقت الكافي لتقدم للجميع خدمة أطول أمداً. فالمشاركون في لعبة **الدجاجة العمياء** كانوا يخلعون سراويلهم، ولكنهم يبقون بسترهم وقبعاتهم وأحذيتهم المبطنة بفراء الخراف، ليحموا أنفسهم من البرد القارس الذي يصفر ما بين الألواح الخشبية. وكانت هي تعصب أعينهم ثم تبدأ الملاحقة. وكان الصخب يعلو أحياناً حتى تجتاز ضجة الضحك واللهاث الليل إلى ما وراء سياج الورد وتصل إلى مسامع الإنكليز الذين يحافظون على لامبالاتهم، متظاهرين بأن ما يسمعونه هو مجرد نزوة من نزوات رياح سهول البامبا، ويواصلون رشف آخر فنجان من الشاي السيلاني بوقار قبل أن يذهبوا إلى الفراش. وكان أول من يلمس هيرميليندا يطلق قرقرة متهللة ويحمد حسن طالعه، بينما هو يحتضنها بين ذراعيه. وكانت **الأرجوحة** واحدة أخرى من ألعابها. فهي تجلس على قطعة خشب معلقة إلى السقف بحبال، وتلوي ساقيها متحدية نظرات الرجال القاهرة، حيث يمكنهم جميعاً أن يروا أنها لا تلبس شيئاً تحت تنورتها الصفراء. ويصطف جميع الرجال في رتل واحد، وتتاح لكل واحد منهم فرصة واحدة لنطحها، ومن يتمكن من إصابة هدفه يجد نفسه ممسوكاً بين فخذي الحسناء، ووسط ثنايا تنورتها، متأرجحاً ومهتزاً حتى النخاع، ومرفوعاً في نهاية المطاف إلى أعلى عليين. ولكن قلة منهم كانت تتوصل إلى ذلك، أما الأغلبية فكانوا يتدحرجون على الأرض وسط قهقهات الآخرين.

أما في لعبة **الضفدع** فكان يمكن للرجل أن يفقد أجر شهر كامل خلال خمس عشرة دقيقة. فقد كانت هيرميليندا ترسم بالطباشير خطاً على الأرض، ثم ترسم على بعد أربع خطوات منه دائرة واسعة تضطجع داخلها وهي تباعد مابين ركبتيها، بينما ساقاها الذهبيتان مكشوفتان على ضوء مصابيح الخمر. وعندئذ تظهر البقعة القاتمة في مركز جسدها، مفتوحة مثل ثمرة، أو مثل فم ضفدع مرح، ويصبح جو الغرفة مشحوناً وحاراً. كان اللاعبون يصطفون وراء خط الطباشير المستقيم ويقذفون قطع النقود باتجاه الهدف. كان بعضهم رماة مجربين، يتمتعون بنبض ثابت يستطيعون معه تقييد بهيمة شاردة وهي تنطلق بأقصى سرعة، بقذف كرتين حجريتين متصلتين بحبل بين قوائمها، ولكن كانت لدى هيرميليندا طريقة لا يمكن رصدها في سرقة جسدها والتهرب كي تسقط قطع العملة بعيداً عن هدفها في اللحظة الأخيرة. وكانت قطع النقود التي تسقط داخل الدائرة الطباشيرية من حق المرأة. أما إذا دخلت إحدى القطع الباب، فإنها تقدم لصاحبها كنز السلطان، أي قضاء ساعتين معها على انفراد وراء الستارة، في انشراح كامل، للبحث عن عزاء كل المحن والحلم بمتع الفردوس. ويقول من عاشوا هاتيك الساعتين إن هيرميليندا تعرف أسراراً غرامية قديمة وإنها قادرة على اقتياد رجل حتى شفير الموت والعودة به وقد تحول إلى حكيم.

وإلى أن جاء بابلو الأستوري، كان الذين كسبوا هاتيك الساعتين العجيبتين قلة قليلة، بالرغم من أن عديدين كانوا قد تمتعوا بشيء مشابه، ولكن ليس ببضعة سنتات، وإنما مقابل نصف أجرهم الشهري. وكانت قد جمعت حتى ذلك الحين ثروة صغيرة، ولكنها لم تكن قد فكرت في الاعتزال للعيش حياة عادية. والحقيقة أنها كانت تستمتع كثيراً بعملها

وتشعر بالفخر لومضات السعادة التي تقدمها للعمال. كان بابلو رجلاً ضامراً، له عظام فروج ويدا طفل. وكان مظهره الجسدي يتناقض تماماً مع عناد مزاجه الرهيب. وكان يبدو إلى جانب هيرميليندا الشابة القوية رجلاً ضئيلاً تافهاً، ولكن أولئك الذين ظنوا حين رأوه قادماً أنهم سيضحكون عليه لبعض الوقت، أصيبوا بمفاجأة غير سارة. فقد كان رد فعل الغريب الضئيل أشبه برد فعل أفعى سامة لدى أول استفزاز، وبدا مستعداً للصراع مع من يقف في طريقه، ولكن المشادة انتهت قبل أن تبدأ، لأن أولى القواعد التي فرضتها هيرميليندا هي عدم السماح بالشجار تحت سقفها. وقد هدأ بابلو واستكان بعد أن فرض مهابته. كانت له ملامح حازمة ومأتمية بعض الشيء، وكان قليل الكلام، ولكنه حين يتكلم يُظهر بوضوح نبرته الإسبانية. لقد غادر موطنه هرباً من الشرطة وعاش متخفياً عبر شعاب جبال الأنديز. لقد كان حتى ذلك الحين أشبه بناسك قاتم وعربيد يسخر من قسوة المناخ ومن الأغنام ومن الإنكليز. لم يكن ينتمي إلى أي جانب ولم يكن يعترف بالحب ولا بالواجب، ولكنه كان قد خلّف مرحلة الشباب، وكانت حياة العزلة قد استقرت في عظامه. كان يستيقظ أحيانا عند الفجر من نومه فوق الأرض المتجمدة، متدثراً بعباءته السوداء القشتالية ومستخدماً مطيته وسادة. لم يكن ما يشعر به آلام خدر في العضلات، وإنما آلام الحزن المتراكم والوحدة. لقد سئم التشرد هائماً على وجهه مثل ذئب، ولكنه لم يكن ينفع كذلك للوداعة المنزلية. وقد جاء حتى هذه الأراضي لأنه سمع بأن هناك امرأة في نهاية العالم قادرة على ليِّ اتجاه الريح، وأراد أن يراها بأم عينه. لم تستطع المسافات الهائلة ولا مخاطر الطريق أن تثنيه عن عزمه، وعندما وجد نفسه أخيراً في الحانة وصارت هيرميليندا في متناول يده، ورأى أنها مخلوقة من

معدنه الفج نفسه، قرر أنه بعد تلك الرحلة الطويلة لم تعد الحياة تستحق العيش بدونها. فقبع في أحد أركان الغرفة يراقبها بحذر ويحسب إمكاناتها.

كانت للأستوري أحشاء فولاذية وقد استطاع أن يتناول عدة كؤوس من خمرة هيرميليندا دون أن تدمع عيناه. لم يوافق على خلع ملابسه للمشاركة في لعبة **دورة سان ميغيل**؛ أو في لعبة **مانداندانون - ديرون - ديرون - دان** ولا في أي واحدة من تلك المنافسات التي بدت له صبيانية، ولكن في نهاية الليل، عندما حان موعد لعبة **الضفدع** النهائية، نفض عنه أثر طعم الخمرة، وانضم إلى جوقة الرجال حول الدائرة الطباشيرية. بدت له هيرميليندا جميلة ووحشية مثل لبوة في الجبال. أحس باضطراب غريزة الصياد فيه، وتحول ألم الهجران الغامض الذي كان يعذب عظامه طوال الرحلة إلى لذة مسبقة. رأى القدمين اللتين تنتعلان جزمة قصيرة، والجوربين المحبوكين يدوياً تثبتهما قطعتا مطاط تحت الركبتين، ورأى العظام الطويلة والفخذين المتوترين لهاتيك الساقين الذهبيتين وسط كشاكش التنورة الصفراء، وعرف أن لديه فرصة وحيدة لغزوها. اتخذ موقعاً، وثبت قدميه على الأرض وراح يؤرجح جذعه إلى أن وجد محور وجوده بالذات، وبنظرة مثل السكين جمّد المرأة في مكانها مجبراً إياها على التخلي عن حيل تلوياتها البهلوانية. أو ربما إن الأمور لم تجر على هذا النحو، وإنما هي نفسها اختارته من بين الجميع لتكرمه بمرافقتها. شحذ بابلو بصره، زفر كل الهواء من صدره، وبعد ثوانٍ من التركيز المطلق، قذف قطعة العملة. وقد رآها الجميع وهي تطير مشكلة قوساً مضبوطاً في الفضاء وتدخل رمية حرة في المكان المحدد. دوت عاصفة من الصفير والتصفيق الحاسد تحيي المأثرة. ولكن المهرب رفع بنطاله بهدوء، وتقدم ثلاث خطوات واسعة

إلى الأمام، ثم أمسك بيد المرأة وأوقفها على قدميها وهو مستعد لأن يثبت لها خلال ساعتين كاملتين أنها لن تستطيع هي أيضاً أن تتخلى عنه. خرج وهو يكاد يجرها جراً وبقي الآخرون ينظرون إلى ساعاتهم وهم يشربون إلى أن انقضى الوقت المحدد للجائزة. ولكن لم يظهر أي من هيرميليندا أو الغريب. ثم مضت ثلاث ساعات، وأربع ساعات، والليل كله، وطلع الفجر، ورنت أجراس الإدارة داعية إلى العمل دون أن يُفتح الباب.

عند الظهر خرج العاشقان من الغرفة. لم ينظر بابلو إلى أي شخص هناك، وإنما مضى ليسرج حصانه وحصاناً آخر لهيرميليندا، وبغلة لحمل الأمتعة. خرجت المرأة مرتدية بنطالاً وسترة للسفر، وكانت تربط على خصرها حقيبة من المشمع مترعة بالأوراق النقدية. كانت ثمة تعابير جديدة في عينيها واهتزازة رضى في مؤخرتها الجديرة بالخلود. وراحا يحمّلان الأمتعة معاً على متن البهائم، ثم ركبا الحصانين ومضيا معاً. لوحت هيرميليندا تلويحة وداع متثاقلة لمعجبيها المكتئبين ولحقت ببابلو الأستوري في السهوب المقفرة دون أن تنظر إلى الوراء. ولم ترجع مطلقاً بعدها.

لقد كانت الفجيعة بذهاب هيرميليندا كبيرة جداً، حتى إن شركة تربية المواشي حاولت تسلية العمال بنصب أراجيح، واشترت نبالاً وسهاماً لرميها على أهداف دائرية، وأحضرت من لندن ضفدعاً ضخماً من الخزف الملون له فم مفتوح، لكي يصوب إليه العمال قطع العملة؛ ولكن عدم المبالاة الكاملة جعلت هذه الألعاب كلها تنتهي كزينة على شرفة الإدارة، حيث مازال المديرين الإنكليز يستخدمونها لمقاومة ضجر ساعات المساء.

ذهب توماس فارغاس

قبل أن تبدأ فورة التقدم غير العادية، كان من يملكون بعض المدخرات يدفنونها في الأرض، وكانت تلك هي الطريقة الوحيدة المعروفة لحفظ المال. ولكن الناس بدؤوا يثقون بالمصارف فيما بعد. وعندما تم شق الطريق، صار الوصول إلى المدينة في الحافلة أسهل، فاستبدلوا نقودهم الذهبية والفضية بأوراق ملونة ووضعوها في صناديق معدنية وكأنها كنوز ثمينة. كان توماس فارغاس يسخر منهم مقهقهاً، لأنه لا يؤمن بجدوى هذا النظام مطلقاً. وقد أظهر مرور الزمن أنه كان على صواب في ذلك، فعندما انتهى حكم **المحسن** - الذي دام نحو ثلاثين سنة كما يقال - لم تعد تلك الأوراق النقدية تساوي شيئاً، وانتهى الأمر إلى إلصاق معظمها زينة على الجدران، كذكرى شنيعة لسذاجة أصحابها. وبينما انهمك الجميع في كتابة رسائل إلى الرئيس الجديد وإلى الصحف شاكين من الغش الجماعي في مسألة النقود الجديدة، كان توماس فارغاس يحتفظ بنقوده الذهبية في مدفن أمين، ولكن ذلك لم يخفف من عاداته في البخل والاستعطاء. لقد كان رجلاً يفتقر إلى اللياقة، فهو يستدين نقوداً وهو ينوي عدم إعادتها، ويُبقي أبناءه في الجوع وامرأته بأسمال بالية، بينما هو يعتمر قبعات من وبر الغواما ويدخن سجائر فاخرة. بل إنه لم يكن يدفع أقساط المدرسة، وقد تعلم أبناؤه الستة الشرعيون مجاناً لأن المعلمة إنيس صممت على أنها مادامت تتمتع بالعقل السليم وبالقدرة على العمل، فلن تسمح ببقاء طفل واحد في القرية لا يعرف القراءة. الحياة لم تخلصه من العربدة والشرب وملاحقة النساء. وكان يفاخر بأنه أعظم فحل

في المنطقة، ويشيع ذلك في الساحة كلما فقد رشده في السكر، ويعلن بملء رئتيه أسماء الفتيات اللواتي أغواهن وأسماء أبناء الزنا الذين تجري في عروقهم دماؤه. ولو كانوا سيصدقونه لوجدوا أن له قرابة ثلاثمئة ابن، لأنه في كل نوبة من نوباته كان يعلن أسماء مختلفة. وقد اقتادته الشرطة عدة مرات، وضربه الملازم نفسه بضع ضربات بالسوط على إليتيه لعل ذلك يصلح من طباعه، ولكن النتيجة الوحيدة التي توصل إليها هي توبيخ الخوري له. والحقيقة أنه لم يكن يحترم أحداً سوى رياض حلبي، صاحب المتجر، ولهذا كان الجيران يهرعون إليه حين يرون أنه قد تمادى في سكره وراح يجلد زوجته وأبناءه. وعندئذ كان العربي يغادر طاولة متجره بسرعة كبيرة ينسى معها أن يغلق الدكان، ويمضي وهو يختنق بالاستياء العادل ليعيد الأمور إلى نصابها في بيت آل فارغاس. ولم يكن يحتاج إلى قول الكثير، إذ يكفي أن يراه العجوز ليستعيد هدوءه. لقد كان رياض حلبي هو الشخص الوحيد القادر على جعل ذلك السافل يشعر بالخجل.

كانت أنطونيا سييرا، زوجة فارغاس، أصغر منه بسبع وعشرين سنة. وحين بلغت الأربعين من عمرها كانت قد استُنزِفت تماماً، فلم تكن قد بقيت في فمها أية أسنان سليمة تقريباً، وكان جسد الخلاسية المجرب الذي كان لها قد تشوه من كثرة العمل والولادات والاجهاضات؛ ومع ذلك فقد بقيت تحتفظ من ماضيها المتكبر بطريقة في المشي برأس منتصبة جيداً، وخصر نحيل، وأثر جمال غابر، واعتزاز رهيب بالنفس يقطع بجفاء أي محاولة لإبداء الشفقة عليها. ولم تكن الساعات تكاد تكفي لإنجاز عملها اليومي، ففضلاً عن العناية بأبنائها وبجنينة الخضروات وبالدجاجات، كانت تكسب بعض البيزوات من العمل في طهو وجبة الغداء للشرطيين، وغسل ملابس الآخرين وتنظيف المدرسة. وكانت تمضي أحياناً وجسدها مغطى ببقع

زرقاء، وقد كانت أغوا سانتا بأسرها تعرف، حتى دون أن يسألها أحد عن ذلك، أن تلك الرضوض هي من آثار الضرب الذي تتلقاه من زوجها. وكان رياض حلبي والمعلمة إنيس هما الشخصين الوحيدين اللذين يتجرآن على تقديم بعض الهدايا إليها خفية، باحثين عن أعذار لكي لا يغضباها، فيمنحانها بعض الملابس أو الأطعمة أو الدفاتر أو الفيتامينات لأطفالها.

لقد كان على أنطونيا سييرا أن تتحمل إذلالاً كثيراً من زوجها، بما في ذلك وجود محظية له في بيتها نفسه. فقد حضرت كونتشا دياث إلى أغوا سانتا في إحدى شاحنات شركة البترول، وكانت يائسة مثيرة للأسى مثل طيف. لقد أشفق عليها سائق الشاحنة حين رآها حافية على الطريق وهي تحمل صرة على ظهرها وفي بطنها انتفاخ امرأة حبلى.

كانت الشاحنات تتوقف في المتجر لدى مرورها في القرية، ولهذا السبب كان رياض حلبي هو أول من علم بالقضية. فقد رآها مذ ظهرت عند بابه، ومن الطريقة التي ألقت بها صرتها عند الطاولة أدرك على الفور أن هذه الفتاة ليست عابرة سبيل، وإنما هي آتية لتبقى. كانت شابة فتية، سمراء وقصيرة القامة، ولها أجمة شعر كثيف مجعد وحائل اللون من الشمس، يبدو أنه لم يعرف الأمشاط منذ وقت طويل جداً. وكعادته في التصرف مع الزائرين، قدم إليها رياض حلبي كرسياً وشراب أناناس مرطب واستعد لسماع قصة مغامراتها أو نكباتها، ولكن الفتاة كانت قليلة الكلام، فقد كانت تكتفي بنف أنفها بأصابعها، ونظرها مصوب إلى الأرض، ودموعها تتحدر دون تسرع على خديها، بينما تتوالى سلسلة من عبارات الندم والتأنيب من بين أسنانها.

وأخيراً استطاع العربي أن يعرف أنها تريد رؤية توماس فارغاس، فأرسل من يبحث عنه في الحانة. انتظره عند الباب، وما إن أصبح أمامه حتى

أمسكه من ذراعه ووضعه وجهاً لوجه مع الغريبة، دون أن يتيح له الوقت ليسترد أنفاسه من الذعر المفاجئ.

ـ الفتاة تقول إن الطفل منك. ـ قال له رياض حلبي بذلك الصوت الناعم الذي يبديه حين يكون ساخطاً.

ـ هذا أمر لا يمكن إثباته أيها التوركو. يمكن معرفة الأم دائماً، أما الأب فلا يمكن التأكد منه أبداً ـ هكذا أجاب الآخر باضطراب، ولكن كان لديه ما يكفي من الحماسة للغمز بخبث غمزة لم تلق إعجاب أحد.

عندئذ أخذت المرأة تبكي بحرقة وهي تتلعثم قائلة إنها ما كانت ستسافر من بعيد لو لم تكن تعرف من هو الأب. وقال رياض حلبي لفارغاس إنه يجب أن يشعر بالخجل، لأنه في عمر يجعله في مقام جد الفتاة، وأنه سيكون مخطئاً إذا كان يظن أن القرية ستغض النظر عن خطاياه مرة أخرى، ولكن عندما ازداد بكاء الصبية، أضاف قائلاً ما كان الجميع يعرفون أنه سيقوله:

ـ حسن أيتها الصغيرة، اهدئي. يمكنك أن تبقي في بيتي لبعض الوقت... إلى أن تضعي وليدك على الأقل.

أخذت كونتشا دياث تبكي بقوة أكبر، وأعلنت أنها لن تعيش في أي مكان آخر، وإنما مع توماس فارغاس وحده، لأنها جاءت من أجل ذلك. ركد الهواء في المتجر، وساد صمت طويل، ولم يعد يُسمع سوى أزيز مروحة السقف وشهقات المرأة، دون أن يجرؤ أحد على القول لها إن العجوز متزوج وله ستة أبناء. أخيراً، حمل فارغاس صرة المسافرة وساعدها على النهوض قائلاً:

ـ حسن يا كونتشيتا، إذا كان هذا ما تريدينه، فليس ثمة مجال لمزيد من الكلام. فلنذهب إلى بيتي الآن في الحال.

وهكذا، حين رجعت أنطونيا سييرا من عملها وجدتْ امرأة أخرى

تستلقي في أرجوحة نومها، وكانت تلك هي المرة الأولى التي لم يسعفها فيها الوقار لمداراة مشاعرها. تدحرجت شتائمها في الشارع الرئيسي، ووصل الصدى إلى الساحة ودخل إلى كل البيوت معلناً أن كونتشا دياث هي فأرة دنسة، وأن أنطونيا سييرا ستحول حياتها إلى جحيم إلى أن تعيدها إلى المجرور الذي كان عليها ألا تغادره مطلقاً، وأنها إذا كانت تظن أن أولادها سيعيشون تحت سقف واحد مع فأرة منتوفة الذنب فإنها ستكون واهمة، لأنها ليست غبية على الإطلاق، وأنه من الأفضل لزوجها أن يكون حذراً، لأنها تحملت الكثير من الآلام والخيبات من أجل أبنائها، هؤلاء المساكين الأبرياء، ولكن الكيل فاض، وسيرى الجميع الآن من هي أنطونيا سييرا. استمر غضبها أسبوعاً، ولكن الصراخ تحول في النهاية إلى دمدمات دائمة، وفقدت بقايا جمالها، ولم تعد لديها طريقتها المتميزة في المشي، إذ أصبحت تجرجر نفسها مثل كلبة مضروبة. وقد حاول الجيران أن يوضحوا لها بأن الذنب في كل تلك المشكلة لا يقع على عاتق كونتشا، وإنما على عاتق فارغاس، ولكنها لم تكن مستعدة لسماع تبريرات في الزهد أو في العدالة.

الحياة في كوخ هذه الأسرة لم تكن لطيفة في أي يوم من الأيام، ولكنها مع مجيء الخليلة تحولت إلى عذاب لا يتوقف. فقد كانت أنطونيا تقضي الليالي متكورة في فراش أبنائها وهي تطلق اللعنات، بينما زوجها يشخر بجانبها وهو يحتضن الفتاة. وما إن تبزغ الشمس حتى تجد أنطونيا نفسها مضطرة للنهوض كي تعد القهوة وتعجن دقيق الذرة، وترسل الأولاد إلى المدرسة، وتعنى بمزروعات الحديقة، وتطبخ لشرطيي المخفر، وتغسل وتكوي. لقد كانت تقوم بكل هذه المهمات مثل إنسان آلي، بينما تقطر من روحها حبيبات من المرارة. ولأنها رفضت أن تقدم الطعام لزوجها، فقد تولت كونتشا إعداد الطعام له بعد خروج الأخرى من البيت، حتى لا تلتقي معها

أمام موقد المطبخ. لقد كان حقد أنطونيا سييرا عظيماً إلى حد ظن معه بعض من في القرية بأنها ستنتهي إلى قتل ضرتها، وذهبوا ليطلبوا من رياض حلبي والمعلمة إنيس أن يتدخلا قبل فوات الأوان.

ولكن الأمور لم تجر على ذلك النحو على أي حال. فبعد مرور شهرين بدأ بطن كونتشا يبدو مثل ثمرة قرع، وتورمت ساقاها حتى أوشكت شرايينهما أن تنفجر، وكانت تبكي طوال الوقت لأنها تشعر بالوحدة والخوف. ملَّ توماس فارغاس من كل تلك الدموع وصمم على عدم الذهاب إلى بيته إلا للنوم. ولم تعد هناك حاجة لأن تتناوب المرأتان على الطبخ، فقد فقدت كونتشا الحافز الأخير على ارتداء ملابسها وظلت مستلقية في أرجوحة النوم تتطلع إلى السقف، عاجزة عن القيام بإعداد فنجان قهوة. تجاهلتها أنطونيا طوال اليوم الأول، ولكنها بعثت إليها مع أحد أطفالها في الليل طبق حساء وكأس حليب ساخن، حتى لا يقول أحد إنها تركت شخصاً يموت من الجوع تحت سقفها. تكرر ذلك الروتين إلى أن نهضت كونتشا بعد عدة أيام لتأكل مع الآخرين. فتظاهرت أنطونيا بأنها لم ترها، لكنها توقفت على الأقل عن إطلاق الشتائم كلما مرت الأخرى بجانبها. وشيئاً فشيئاً هزمتها الشفقة. وعندما رأت أن الفتاة تزداد نحولاً يوماً بعد يوم، وتتحول إلى فزاعة عصافير بائسة ببطن ضخم وعينين غائرتين، بدأت بذبح دجاجاتها واحدة بعد أخرى لتقدم لها حساء، وعندما انتهت دواجنها، أقدمت على ما لم تقدم عليه حتى ذلك الحين: فقد ذهبت لطلب المساعدة من رياض حلبي. وأوضحت له بحياء:

ـ لقد أنجبتُ ستة أبناء، فضلاً عن عدة ولادات غير موفقة، ولكنني لم أر واحدة من قبل تمرض من الحبل بهذه الصورة. إنها على العظم أيها التوركو، لا تكاد تبلع الطعام حتى تتقيأه من جديد. ليس هذا شأني، ولا

علاقة لي بكل ذلك، ولكن ما الذي سأقوله لأمها إذا ما ماتت عندي؟ لا أريد أن يأتي أحد ويحاسبني فيما بعد.

حمل رياض حلبي المريضة في شاحنته إلى المستشفى، ورافقتهما أنطونيا. ورجعوا بكيس أقراص دواء متعددة الألوان وثوب جديد لكونتشا، لأن ثوبها لم يعد ينسدل فوق بطنها. وفي نكبة المرأة الأخرى عادت أنطونيا سييرا لتعيش فترات من شبابها، من حملها الأول والمشقات التي تحملتها. وكانت ترغب، رغم أنفها، ألا يكون مستقبل كونتشا دياث منحوساً مثل مصيرها. لم تعد تحقد عليها، بل صارت تشعر نحوها بشفقة صامتة، وتعاملها كابنة ضالة، بتسلط جاف يكاد لا يخفي رقتها. كانت الشابة مذعورة لرؤية التحولات الوبيلة التي تطرأ على جسدها، ذلك التشوه المتضخم دون كابح، وخجلها من التبول في كل لحظة ومن مشيتها التي صارت مثل مشية البجع، وذلك الاشمئزاز المنفلت، وتلك الرغبة في الموت. لقد كانت تستيقظ في بعض الأيام مريضة لا تستطيع مغادرة الفراش، وعندئذ كانت أنطونيا تكلف الصغار بالعناية بها بينما تتصرف هي إلى إنجاز أعمالها بسرعة كي تعود باكراً وتعتني بها؛ ولكن كونتشا كانت تنهض في أحيان أخرى بحماسة عالية، وحين ترجع أنطونيا منهوكة، تجد العشاء جاهزاً والبيت نظيفاً. فتقدم لها الشابة فنجان قهوة وتبقى واقفة بجانبها إلى أن تشربه، ناظرة إليها بعيني حيوان شاكر.

ولد الطفل في مستشفى المدينة، لأنه لم يشأ الخروج إلى الدنيا واضطروا إلى فتح بطن كونتشا دياث لإخراجه. بقيت أنطونيا معها ثمانية أيام تولت خلالها المعلمة إنيس مسؤولية الأولاد. وقد رجعت المرأتان بعد ذلك معاً في شاحنة المتجر، وخرجت أغوا سانتا عن بكرة أبيها للترحيب بهما. كانت أم الوليد تبتسم بينما أنطونيا تعرض الطفل بفرح جدةٍ، معلنة أنه

سيُعمد باسم رياض فارغاس ديات، في تكريم عادل للعربي الذي لولا مساعدته لما استطاعت الأم أن تصل في الوقت المناسب إلى مستشفى التوليد، إضافة إلى أنه تحمل مسؤولية النفقات عندما صم الأب أذنيه وتظاهر بالسكر الشديد كيلا يُخرج ذهبه.

وقبل أن ينقضي أسبوعان أراد توماس فارغاس أن يطالب كونتشا ديات بالعودة إلى أرجوحة نومه، بالرغم من أن جرح المرأة المخيط كان ما يزال طازجاً، وبطنها ما يزال ملفوفاً بالضمادات. ولكن أنطونيا سييرا وقفت في مواجهته واضعة يديها على خاصرتها، وقالت للأول مرة في حياتها إنها ستمنع العجوز من أن يتصرف وفق نزواته. بدأ زوجها بنزع حزامه ليجلدها مثلما اعتاد، لكنها لم تتركه يكمل ذلك، بل انقضت عليه بشراسة جعلت الرجل يتراجع متفاجئاً. وكان تردده ذاك هو ضياعه، لأنها عرفت حينئذ من هو الأقوى. وفي أثناء ذلك كانت كونتشا قد وضعت طفلها في أحد الأركان وتسلحت بجفنة ثقيلة من الفخار مصممة على كسرها على رأسه. أدرك الرجل ضعف موقفه وغادر البيت مجدفاً. عرفت أغوا سانتا كلها ما حدث، لأنه هو نفسه روى ذلك لفتيات الماخور اللواتي قلن كذلك إن فارغاس أصبح عاجزاً وإن كل تبجحاته بالفحولة ليست إلا أوهاماً لا أساس لها.

ابتداء من تلك الحادثة تبدلت الأمور تماماً. فقد استردت كونتشا ديات عافيتها بسرعة، وبينما كانت أنطونيا سييرا تخرج للعمل، صارت هي تتولى مسؤولية الأولاد والعمل في الجنينة والبيت. وابتلع توماس فارغاس الإهانة ورجع ذليلاً إلى أرجوحة نومه، حيث لم يعد يجد رفيقة له. وكان ينفس غضبه بالإساءة إلى أبنائه وبالتعليق في الحانة بأن النساء مثل البغال، لا يفهمن إلا بالضرب، ولكنه في البيت لم يعد إلى محاولة ضربهن. وحين كان يسكر يروح يصرخ في الرياح الأربع عن فضائل تعدد

الزوجات، فكان على الخوري أن يخصص عدة آحاد ليفند ادعاءاته، حتى لا تشيع الفكرة وتذهب إلى الجحيم كل تلك السنوات التي أمضاها في الوعظ عن فضائل الزواج المسيحي الأحادي.

❖ ❖ ❖

كان بالإمكان التسامح في أغوا سانتا مع رجل يسيء إلى أسرته، أو رجل بطال أو مشاغب، أو مع من لا يرد مالاً استدانه، أما ديون القمار فكانت مقدسة. ففي مصارعات الديوك توضع الأوراق النقدية مطوية جيداً بين الأصابع، حيث يمكن للجميع أن يروها، وفي لعبة الدومينو أو النرد أو الورق توضع النقود فوق الطاولة إلى يسار اللاعب. لقد كان سائقو شاحنات شركة البترول يتوقفون أحياناً للعب أدوار بوكر، ومع أنهم لا يعرضون نقودهم إلا أنهم يدفعون ما يتوجب عليهم حتى آخر سنتيم قبل أن ينصرفوا. وفي أيام السبت كان يأتي حراس سجن سانتا ماريا لزيارة الماخور والمقامرة في الحانة على أجورهم الأسبوعية. ولم يكن حتى هؤلاء - وهم أكثر لصوصية من السجناء الذين في عهدتهم - يتجرؤون على اللعب إذا كانوا لا يستطيعون الدفع. ولم يكن هناك من يخرق هذه القاعدة.

لم يكن توماس فارغاس يشارك في المراهنات، ولكنه كان يحب التفرج على اللاعبين، ويمكنه أن يقضي ساعات في التفرج على لعبة دومينو، وكان أول من يحتل مكاناً في مصارعات الديكة ويتابع أرقام اليانصيب التي يعلنون عنها في المذياع، بالرغم من أنه لم يشتر ورقة واحدة منها على الإطلاق. لقد كان محمياً من هذا الإغواء ببخله الكبير. ولكن عندما قضى تواطؤ أنطونيا سييرا وكونتشا ديات الفولاذي نهائياً على اندفاعة الرجولي، انقلب نحو القمار. كان في البدء يراهن بمبالغ زهيدة جداً، بحيث

لم يكن هناك من يجلس على طاولة اللعب معه سوى أكثر السكارى فقراً، ولكن حظه في لعب الورق كان أكبر من حظه مع امرأتيه، وسرعان ما صار ينهشه حب المال السهل وبدأ يتحلل حتى النخاع من طبيعته البخيلة. وعلى أمل الثراء بضربة حظ واحدة واسترداد سمعته المنهارة كفحل - عن طريق هذا الفوز الوهمي - راح يضاعف من حجم المجازفة. وسرعان ما صار يلاعبه أشد المقامرين اندفاعاً بينما يلتف الآخرون لمتابعة تبدلات اللعب. لم يكن توماس فارغاس يضع أوراقه النقدية المجعدة فوق الطاولة مثلما هي العادة، ولكنه كان يدفع ما عليه حين يخسر. أما في بيته فكانت حدة الفقر تزداد، مما اضطر كونتشا كذلك إلى الخروج للعمل. فبقي الأولاد وحدهم وصارت المعلمة إنيس تُطعمهم حتى لايبدؤوا بالتسكع في القرية وتعلم التسول.

تعقدت أمور توماس فارغاس حين قبل تحدي الملازم وكسب منه بعد ست ساعات من اللعب مئتي بيزو. فصادر الضابط رواتب مرؤوسيه ليدفع خسارته. كان أسمر متين القوام، له شارب عجل بحر، وسترته مفتوحة دائماً كي تتمكن الفتيات من الإعجاب بصدره كثيف الشعر وبمجموعته من السلاسل الذهبية. لم يكن هناك من يحبه في أغوا سانتا لأنه رجل سليط اللسان، يمارس سلطة اختراع القوانين حسب هواه ومصلحته. قبل مجيئه كان السجن مجرد غرفتين يُحتجز فيهما البعض ليلة واحدة بعد شجار ما - إذ لم تقع في أغوا سانتا جرائم خطيرة قط. والمجرمون الوحيدون هم أولئك الذين يمرون بالمخفر وهم في طريقهم إلى سجن سانتا ماريا - ولكن الملازم تكفل بعدم مرور أحد في الحجز دون أن يتلقى شيئاً من الضرب. وبفضله صار الناس يخافون القانون. لقد فقد صوابه لخسارة المئتي بيزو، لكنه سلّم النقود دون أن ينبس بكلمة، بل إنه أرفق ذلك ببعض السخاء المتأنق، فحتى هو نفسه، ورغم كل ثقل سلطته، ما كان لينهض عن الطاولة دون أن يدفع ما خسره.

أمضى توماس فارغاس يومين وهو يتبجح بفوزه، إلى أن أخبره الملازم أنه سينتظره يوم السبت للعبة الثأر. وسيكون الرهان هذه المرة على ألف بيزو، قال له ذلك بنبرة حازمة ذكرته بالعصي التي كان قد تلقاها على مؤخرته فلم يجرؤ على الرفض. مع افتتاح اللعب وشدة الحر وانعدام الهواء في المحل، اضطروا إلى إخراج الطاولة إلى الشارع ليكون الجميع شهوداً على اللعب. لم يجر الرهان مطلقاً من قبل على مبلغ كهذا في أغوا سانتا، ومن أجل ضمان نظافة اللعب اختاروا رياض حلبي مراقباً. فبدأ هذا بالطلب من الجمهور البقاء على بعد مترين للحيلولة دون أي خدعة، وأنه على الملازم والشرطيين الآخرين أن يتركوا مسدساتهم في المخفر.

وقال الحكم:

- يجب على اللاعبين أن يضعا نقودهما على الطاولة قبل البدء باللعب.

فرد الملازم:

- كلمتي تكفي أيها التوركو.

وأضاف توماس فارغاس:

- وكلمتي أيضاً تكفي في هذه الحالة.

فأراد رياض حلبي أن يعرف:

- وكيف سيدفع من يخسر؟

- لدي بيت في العاصمة، إذا ما خسرت سيحصل فارغاس على وثائق الملكية غداً بالذات.

- حسن. وأنت؟

- أنا سأدفع من الذهب الذي أحتفظ به مدفوناً.

كانت اللعبة هي الأكثر تشويقاً في القرية منذ عدة سنوات. فقد

اجتمعت أغوا سانتا بأسرها، بما في ذلك الشيوخ والأطفال، في الشارع. والغائبتان الوحيدتان كانتا أنطونيا سييرا وكونتشا ديات. لم يكن هناك من يشعر بأي تعاطف مع الملازم أو مع توماس فارغاس، ولهذا كان سيان لديهم من سيربح؛ ولكن المتعة كانت تكمن في مراقبة كرب اللاعبين ومعرفة من راهن على كل منهما. فقد كان ما يرجح كفة توماس فارغاس واقع أنه كان محظوظاً في لعب الورق حتى ذلك الحين، ولكن الملازم كان يستفيد من برودة أعصابه ومن سمعته كقاتل.

في الساعة السابعة مساء انتهت اللعبة، وحسب القواعد المعمول بها أعلن رياض حلبي فوز الملازم. وقد احتفظ الشرطي في فوزه بالهدوء نفسه الذي أبداه في الأسبوع السابق لدى الخسارة، فلم يُظهر أي ابتسامة ساخرة، ولم ينطق بأي كلمة غير مناسبة، بل بقي ببساطة جالساً على كرسيه وهو يحك أسنانه بظفر إصبعه الصغرى.

وعندما هدأت ضجة النظارة، قال:

ـ حسن يا فارغاس، لقد حانت ساعة نبش كنزك المدفون.

كانت بشرة توماس فارغاس قد أصبحت رمادية، وكان قميصه مبللاً بالعرق، وبدا كما لو أن الهواء لا يدخل إلى جسده، وإنما يبقى عالقاً في فمه. حاول النهوض مرتين فكانت تخذله ركبتاه. فاضطر رياض حلبي لمساعدته. وأخيراً استجمع قواه ليبدأ المسير باتجاه الطريق العام يتبعه الملازم والشرطيون والعربي والمعلمة إنيس، ووراءهم مشت القرية كلها في موكب صاخب. ساروا قرابة ميلين ثم انعطف فارغاس إلى اليمين، متوغلاً بين النباتات الكثيفة التي تحيط بأغوا سانتا. لم يكن هناك أي درب، ولكنه شق طريقه دون كبير تردد مابين الأشجار الضخمة والسراخس، إلى أن وصل إلى حافة

وهدة لا تكاد تُرى، لأن الغابة كانت تشكل حاجزاً لا يمكن اجتيازه. وهناك توقف الحشد بينما نزل هو مع الملازم. كان الحر رطباً وخانقاً على الرغم من اقتراب موعد الغروب. أومأ توماس فارغاس بيده طالباً أن يتركوه وحده، ثم جثا على ركبتيه وراح يزحف حتى اختفى تحت ركام من الأوراق الكبيرة السميكة. مر بعض الوقت قبل أن يُسمع صراخه. فدس الملازم جسده بين الأوراق وأمسكه من كاحليه وسحبه بقوة.

- ماذا جرى!

- غير موجود، غير موجود!

- ماذا يعني غير موجود!

- أقسم لك أيها الملازم أنني لا أعرف شيئاً، لقد سرقوه، لقد سرقوا كنزي! - وراح يبكي مثل أرملة، وكان يائساً إلى حد لم ينتبه معه إلى الركلات التي كان الملازم يوجهها إليه.

- عرص! ستدفع لي مرغماً! بأمك ستدفع لي!

ألقى رياض حلبي بنفسه إلى أسفل وخلصه من يديه قبل أن يهرسه. وتمكن من إقناع الملازم بأن يهدأ، لأن المسائل لا تُحل بالضرب، ثم ساعد العجوز بعد ذلك على الصعود. كان هيكل توماس فارغاس العظمي متداعياً من الرعب الذي سببه له ما حدث، وكان يغرق في النشيج، ويتعثر ويتداعى مما جعل العربي يحمله بين ذراعيه تقريباً طوال طريق العودة، إلى أن أوصله أخيراً إلى بيته. وكانت أنطونيا سييرا وكونتشا دياث تجلسان على كرسيين من القش أمام الباب، تشربان القهوة وتتأملان الليل الذي يرخي سدوله. ولم تبديا أدنى اهتمام حين علمتا بما جرى، وواصلتا رشف القهوة بصمت.

بقي توماس فارغاس محموماً طوال أكثر من أسبوع، يهذي بكلام

عن نقود ذهبية وعن أوراق لعب معلَّمة، ولكنه كان من طبيعة صلبة، فقد استرد صحته بدلاً من أن يموت غماً، كما اعتقد الجميع. وعندما استطاع النهوض لم يجرؤ على الخروج لعدة أيام، ولكن حبه للقصف كان أخيراً أقوى من حذره، فحمل قبعته المصنوعة من الوبر، وانطلق إلى الحانة وهو ما يزال يرتجف خوفاً. ولم يرجع إلى بيته في تلك الليلة، وبعد يومين من ذلك جاء أحدهم بخبر موته سحقاً في الوهدة نفسها التي كان يخبئ فيها كنزه. وقد وجدوه وبطنه مفتوح بضربات متشيتي مثل ذبيحة، تماماً مثلما كان الجميع يتصورون نهايته عاجلاً أو آجلاً.

دفنته أنطونيا سييرا وكونتشا ديات دون مظاهر حداد تذكر، ودون أن يرافق جنازته سوى رياض حلبي والمعلمة إنيس، اللذين ذهبا لمرافقة المرأتين وليس لتكريم ذلك الميت الذي احتقراه وهو حي. واصلت المرأتان بعد ذلك العيش معاً، تتعاونان في تربية الأبناء وفي مصاعب الحياة. وبعد فترة قصيرة من الجنازة اشترتا دجاجاً وأرانب وخنازير، وذهبتا في الحافلة إلى المدينة ورجعتا بملابس لكل أفراد الأسرة. وفي تلك السنة أصلحتا البيت بألواح خشبية جديدة، وأضافتا إليه غرفتين أخريين، وطلتاه بطلاء أزرق، ثم أحضرتا بعد ذلك فرناً يعمل بالغاز، وأقامتا ورشة لإعداد الطعام وبيعه إلى البيوت. وكل يوم عند الظهيرة كانتا تخرجان مع جميع الأولاد لتوزيع الطعام على المخفر، والمدرسة، ومركز البريد، وإذا ما فاض لديهما شيء تتركانه على طاولة المتجر ليعرضه رياض حلبي على سائقي الشاحنات. وهكذا خرجتا من البؤس ووضعتا أقدامهما على طريق الازدهار.

إذا ما لمست قلبي

ترعرع آماديو بيرالتا في عصابة أبيه إلى أن صار قاتلاً محترفاً، مثل كل رجال أسرته. كان أبوه يرى أن الدراسة هي للمخنثين، وأن الفوز في الحياة لا يحتاج إلى كتب وإنما إلى جسارة وسعة حيلة ومكر، حسب قوله. ولهذا ربى أبناءه على الخشونة. ولكنه أدرك مع مرور الوقت أن العالم آخذ بالتبدل بسرعة وأنه يحتاج إلى ترسيخ أعماله على أسس ثابتة. فعصر عمليات السطو المكشوفة قد ولى ليحل محله عصر الفساد والسلب المبطن، وأن الأزمنة الجديدة تفرض عليه إدارة ثروته برؤية حديثة وتجميل صورته. جمع أولاده وفرض عليهم مهمة عقد صداقات مع أناس متنفذين وتعلّم الشؤون القانونية، لكي يواصلوا ازدهارهم دون التعرض لخطر أن تنالهم يد العقاب. وطلب منهم أيضاً أن يبحث كل واحد منهم عن خطيبة له من بنات الأسر ذات الأسماء الأكثر عراقة في المنطقة، لعلهم يتمكنون بذلك من غسل كنية آل بيرالتا من الوحل والدم اللذين طالما تلطخت بهما. كان آماديو قد أكمل في ذلك الحين اثنتين وثلاثين سنة من عمره، وقد تأصلت لديه عادة إغواء الفتيات اللواتي لا يلبث أن يهجرهن، ولهذا لم ترق له قط فكرة الزواج، ولكنه لم يجرؤ على عصيان أمر أبيه. بدأ بمغازلة ابنة إقطاعي عاشت أسرته في المنطقة نفسها منذ ستة أجيال. وعلى الرغم من سمعة العريس غير النظيفة، فقد وافقت عليه الفتاة لأن حظها من الجمال كان ضئيلاً، وكانت تخشى أن تبقى عانساً. بدأا كلاهما عندئذ واحدة من فترات الخطوبة الريفية المملة. فكان آماديو يزورها يومياً تحت

نظرات حماته المستقبلية المتيقظة أو إحدى الخادمات بينما هو يختنق في بدلته البيضاء وجزمته اللامعة. وبينما كانت الآنسة تقدم له القهوة وحلوى الجوافة، كان هو يرمق الساعة متحيناً اللحظة المناسبة للوداع.

قبل أسابيع قليلة من حفلة الزفاف، اضطر آماديو بيرالتا إلى القيام برحلة عمل في المقاطعة. وهكذا وصل إلى اغوا سانتا، وهي واحدة من تلك القرى المنسية التي لا يستقر فيها أحد، ونادراً ما يتذكر المسافرون اسمها. كان يمر من شارع ضيق في ساعة القيلولة، لاعناً الحر وتلك الرائحة الحلوة المنبعثة من مربى المانجا التي تُثقل الهواء، عندما سمع فجأة صوتاً بلورياً مثل صوت ماء ينزلق بين الصخور آتياً من بيت متواضع، طلاؤه باهت من الشمس والمطر، مثل كل البيوت هناك. ومن خلال قضبان حديد البوابة رأى دهليزاً ذا بلاط قاتم وجدران مطلية بالكلس، يليه فناء في أقصاه رؤيا مفاجئة لفتاة جالسة على الأرض متقاطعة الساقين، تضع على ركبتيها سالتيرو* من خشبٍ أشقر. بقي يراقبها لبعض الوقت. ثم ناداها أخيراً:

- تعالي أيتها الصغيرة.

رفعت رأسها، وبالرغم من بعد المسافة استطاع أن يميز العينين المذهولتين والابتسامة المرتبكة على وجهٍ ما يزال طفولياً.

وقال آماديو آمراً.. متضرعاً، بصوته الجاف:

- تعالي معي.

ترددت الصبية. وبقيت الأنغام الأخيرة طافية في هواء الفناء مثل سؤال. ناداها بيرالتا مجدداً، فنهضت واقفة واقتربت. مدّ ذراعه بين قضبان البوابة، وسحب المزلاج، وفتح الباب وأمسك يدها، بينما كان يرتل لها كل عبارات

---

* سالتيرو (salterio) : آلة موسيقية وترية قديمة، تشبه القانون.

الغزل التي يحفظها، مقسماً لها بأنه رآها في أحلامه، وأنه بحث عنها طوال حياته، وأنه لا يستطيع تركها تمضي، وأنها المرأة التي خصه بها القدر. وقد كان بإمكانه إغفال كل ذلك، لأن الصبية كانت بسيطة الروح ولا تفهم معنى كلماته، ولكن ربما تكون نبرة صوته قد أغوتها. كانت هورتينسيا قد أكملت خمس عشرة سنة لتوها، وكانت جسداً جاهزاً للمعانقة الأولى، مع أنها لم تكن تعرف ذلك، ولم يكن بإمكانها إطلاق تسمية على ذلك القلق وتلك الارتعاشات التي أحست بها. وكان من السهل عليه اقتيادها إلى سيارته وأخذها إلى أرض خلاء، لكي ينساها تماماً بعد ساعة من ذلك. ولم يستطع أن يتعرف عليها بعد مرور أسبوع، حين ظهرت فجأة في بيته على بعد مئة وأربعين كيلومتراً، وهي ترتدي مئزراً قطنياً أصفر وصندلاً من القنب، وتحمل آلة السالتيرو تحت إبطها، وقد اشتعلت بحمى الحب.

بعد سبع وأربعين سنة من ذلك، حين أُخرجت هورتينسيا من القبو الذي كانت مدفونة فيه وهي حية، وجاء الصحفيون من كل أنحاء البلاد لتصويرها، لم تكن هي نفسها تعرف ما اسمها ولا كيف وصلت إلى ذلك المكان.

توجه الصحفيون إلى آماديو بيرالتا بنبرة اتهام:

- لماذا حبستها طوال هذا الوقت وكأنها بهيمة بائسة؟

فرد عليهم بهدوء:

- لأني رغبت في ذلك.

كان قد بلغ الثمانين من عمره آنذاك، وكان صافي الذهن مثلما كان طوال حياته، ولكنه لم يفهم معنى كل تلك الضجة من أجل شيء حدث منذ زمن بعيد جداً.

لم يكن مستعداً لتقديم أية تفسيرات. فقد كان رجلاً اعتاد على إصدار الأوامر.. كان بطريركاً وجداً لديه أحفاد أحفاد، ولم يكن هناك من يتجرأ على النظر إلى عينيه. وحتى رجال الدين أنفسهم كانوا يحيونه وهم يطأطئون رؤوسهم. فعلى امتداد حياته كان قد ضاعف الثروة التي ورثها عن أبيه، واستولى على كل الأراضي ابتداء من أطلال الحصن الاسباني القديم وحتى حدود الولاية، ثم انغمس بعد ذلك في الحياة السياسية ليصبح أقوى الزعماء في المنطقة كلها. لقد تزوج من ابنة الإقطاعي القبيحة، وأنجب منها تسعة أبناء شرعيين، وأنجب من نساء أخريات عدداً غير معروف من أبناء الزنا، دون أن يحتفظ بذكرى أي واحدة منهن، لأن قلبه كان لا يعرف الحب. والوحيدة التي لم يستطع استبعادها من ذاكرته نهائياً هي هورتينسيا، لأنها بقيت ملتصقة بضميره مثل كابوس متسلط. فبعد اللقاء القصير معها بين الأعشاب في الأرض الخلاء، رجع إلى بيته، إلى عمله، وإلى خطيبته المزعجة التي تنتمي إلى أسرة راقية. وكانت هورتينسيا هي التي بحثت عنه إلى أن عثرت عليه، وكانت هي من واجهته وتشبثت بقميصه بخشوع عبدةٍ رهيب. وفكر هو حينئذ: يا لهذه الورطة! أنا على وشك الزواج بأبهة وصخب، وتأتي هذه الصبية المخبولة لتعترض طريقي. أراد التخلص منها، ولكنه حين رآها بفستانها الأصفر وعينيها المتوسلتين بدا له أن عدم استغلال الفرصة السانحة سيكون ضرباً من التبذير وقرر إخفاءها إلى أن يخطر له حلّ آخر.

وهكذا، وفيما يشبه الاستخفاف، انتهت هورتينسيا إلى قبو معصرة قصب السكر القديمة التي يملكها آل بيرالتا، وبقيت محبوسة هناك طوال حياتها. كان القبو عبارة عن ردهة فسيحة رطبة ومظلمة، مؤثثة ببعض الأشياء التافهة وبفرشة من التبن. ولم يتوفر لآماديو بيرالتا فائض من الوقت ليوفر لها مزيداً من وسائل الراحة، مع أن الوهم كان يراوده أحياناً

لتحويل الصبية إلى محظية كما في الحكايات الشرقية، مسربلة بالحرائر الشفافة ومحاطة بريش الطواويس وستائر البروكار المزركشة ومصابيح الزجاج الملون، وبأثاث مذهب ذي قوائم مائلة وسجاجيد سميكة الوبر يمكنه المشي عليها حافياً. وربما كان سيفعل ذلك لو أنها ذكّرته يوماً بوعوده لها. ولكن هورتينسيا كانت قد أصبحت أشبه بطائر ليلي، مثل واحد من طيور الغواتشارو* التي تسكن الكهوف، لا تحتاج إلا إلى قليل من الغذاء والماء. أما الفستان الأصفر فقد تعفن وتحلل على جسدها وأصبحت عارية.

- إنه يحبني، لقد أحبني دائماً - هذا ما قالته عندما أنقذها أهل القرية. وكانت خلال سنوات حبسها الطويلة قد فقدت القدرة على استخدام الكلمات، فكان صوتها يخرج مرتعشاً، مثل حشرجة محتضر.

في الأسبوع الأول كان آماديو قد أمضى معها وقتاً طويلاً في القبو، مشبعاً شهواته التي كان يظنها لا تنضب. ولخشيته من أن يكتشف وجودها أحد، ولغيرته عليها من عينيه بالذات، لم يشأ أن يعرضها للضوء الطبيعي، ولم يترك سوى شعاع خفيف يدخل إليها من كوة التهوية. كانا يتداعبان في العتمة بأقصى قدر من تشوش الحواس، وقد تأجج جلداهما وتحول قلباهما إلى سرطانين نهمين. كانت الروائح والطعوم تكتسب هناك مواصفات نهائية. فإذا ما لمس أحدهما الآخر في العتمة يتمكن من التغلغل إلى جوهره ويغرق في أشد نواياه سرية. وكانت أصواتهما في ذلك المكان ترن بأصداء متكررة، وتعيد إليهما الجدران أصداء الهمسات والقبلات مضخمة. تحول القبو إلى قمقم مختوم يتقلبان فيه مثل توأم

---

* الغواتشارو (guacharo): جنس طيور ليلية في أميركا الوسطى، يدعونه كذلك صقر الليل.

مشاكس يبحر في ماء نشادري، مثل مخلوقين متخمين وغائبين عن الوعي. وقد تاها لبعض الوقت في حميمية مطلقة ظنا أنها الحب.

حين كانت هورتينسيا تنام، كان عشيقها يخرج بحثاً عن شيء يأكلانه، ويرجع قبل أن تستيقظ وقد تجددت قواه، فيعانقها من جديد. كان على كل منهما أن يحب الآخر هكذا إلى أن يموتا تحت وطأة الرغبة.. كان على كل منهما أن يلتهم الآخر أو أن يشتعلا معاً مثل شعلة مزدوجة؛ ولكن شيئاً من هذا لم يحدث. بل حدث بالمقابل ما هو أكثر بعداً عن التصور وعن الواقع اليومي.. ما هو أقل عظمة بكثير. فقبل مضي شهر واحد كان آماديو قد ملّ تلك اللعبة التي صارت تتكرر، وأحس بالرطوبة تقرض مفاصله وبدأ يفكر بكل ما هو خارج ذلك الكهف. كانت قد أزفت عندئذ ساعة العودة إلى عالم الأحياء واستعادة الإمساك بزمام مصيره.

قال لها عند الوداع:

- انتظريني هنا يا صغيرتي. سأخرج خارجاً لأصبح ثرياً جداً. سآتيك بهدايا وفساتين ومجوهرات تليق بملكة.

فقالت هورتينسيا:

- أريد أبناءً.

- لا أبناء. ولكنني سأُحضر لك دمى.

في الشهور التالية نسي بيرالتا الفساتين والمجوهرات والدمى. وصار يزور هورتينسيا كلما تذكرها، ليس لممارسة الحب دائماً، وإنما لمجرد سماعها أحياناً وهي تعزف لحناً حزيناً قديماً على السالتيرو. فقد كان يحب رؤيتها منحنية على آلتها الموسيقية تداعب أوتارها. وفي بعض المرات يكون مستعجلاً جداً بحيث لا يتبادل معها كلمة واحدة، بل يملأ دنان الماء ويترك

لها صرة المؤن وينصرف. وعندما نسي القيام بذلك طوال تسعة أيام وجدها بعدها على وشك الموت، أدرك ضرورة الاستعانة بمن يساعده في العناية بأسيرته، لأن أسرته وأسفاره وأعماله والتزاماته الاجتماعية كانت تبقيه مشغولاً طوال الوقت. وقد وجد لهذه المهمة هندية متكتمة. فصارت الهندية تحتفظ بمفتاح القفل وتدخل بانتظام لتنظف الزنزانة وتكشط الطحالب التي كانت تنمو على جسد هورتينسيا مثل نباتات حساسة وشاحبة لا تكاد تكون مرئية للعين المجردة، لها رائحة التراب المنبوش والأشياء المهجورة.

- ألم تشعري بالأسى على هذه المرأة البائسة؟ - هكذا سألوا الهندية عندما اعتقلوها هي أيضاً، واتهموها بالتواطؤ في عملية الاختطاف. ولكنها لم ترد على السؤال واكتفت بالنظر إليهم مواجهة بعينين ثابتتين، وقذف بصقة سوداء من التبغ نحوهم.

لا، لم تشعر بالحزن عليها لأنها ظنت أن لدى تلك المرأة ميلاً إلى العبودية وأنها سعيدة بذلك، أو أنها مجنونة منذ ولادتها، مثل كثيرات غيرها، وبقاؤها محبوسة أفضل من تعريضها للسخريات والأخطار في الشوارع. ولم تحاول هورتينسيا تبديل فكرة سجانتها عنها، فهي لم تبد أي نوع من الفضول إلى العالم مطلقاً، ولم تحاول الخروج لاستنشاق الهواء النقي، ولم تكن تشكو من أي شيء. ولم يكن يبدو عليها الضجر كذلك، فقد كان ذهنها متوقفاً عند لحظة طفولية، وقد انتهت العزلة إلى تشويشها بالكامل. والواقع أنها أخذت تتحول إلى مخلوقة تحت أرضية. ففي ذلك القبر اكتسبت حواسها الرهافة وتعلمت رؤية ما هو غير مرئي، فكانت تحيط بها أرواح تقودها إلى عوالم أخرى. فبينما جسدها يقبع في أحد الأركان، كانت نفسها ترحل في الفضاء الكوني مثل ذَرّة زاجلة، تعيش في عالم مظلم فيما وراء العقل. ولو كانت لديها مرآة تنظر فيها

إلى نفسها لفزعت من مظهرها، ولكنها لم تكن قادرة على رؤية نفسها، ولهذا لم تنتبه إلى مدى انحطاطها، ولم تعرف بأمر الحراشف التي كانت تظهر على بشرتها، ولا بأمر ديدان القز المعششة في شعرها الطويل الذي تحول إلى ما يشبه نسالة القنب، ولا بالغمامة الرصاصية التي غطت عينيها فماتتا من كثرة التحديق في العتمة. ولم تشعر كيف نمت أذناها لتلتقطا الأصوات الخارجية، بمافي ذلك أكثرها خفوتاً وبعداً، مثل ضحك الأطفال في باحة المدرسة، وأجراس بائع البوظة، وطيران العصافير، وخرير النهر. ولم تنتبه كذلك إلى أن ساقيها اللتين كانتا جميلتين وقويتين من قبل، إلتوتا لتتوافقا مع حاجتها إلى البقاء ساكنة أو الزحف، ولا إلى أن أظفار قدميها قد نمت مثل أظلاف البهائم، وتحولت عظامها إلى أنابيب زجاجية، وغار بطنها وظهرت لها حدبة في ظهرها. يداها فقط هما اللتان احتفظتا بشكلهما وحجمهما لانشغالهما دائماً بالتمرينات على السالتيرو، بالرغم من أن أصابعها لم تعد تتذكر الألحان التي كانت قد تعلمتها، ولكنها بالمقابل كانت تنتزع من الآلة الموسيقية النحيب الذي لا يخرج من صدرها. كانت هورتينسيا تبدو من بعيد وكأنها قرد مهرجانات كئيب، أما عن قرب فتبعث في النفس أسى لاحدود له. ولم تكن هي نفسها تعي أي شيء من هذه التحولات المشؤومة، بل كانت تحتفظ لنفسها في ذاكرتها بصورة نقية، ترى فيها أنها ما تزال تلك الصبية التي رأت صورتها تنعكس للمرة الأخيرة على زجاج نافذة سيارة آماديو بيرالتا، يوم اقتادها إلى محبسها. كانت تظن أنها مازالت جميلة جداً مثلما كانت، وواصلت التصرف كما لو أنها كذلك، وهكذا بقيت ذكرى جمالها قابعة في أعماقها، وقد كان بإمكان من يقترب منها أن يلمح ذلك الجمال تحت القزم الخرافي الغريب الذي صارت إليه.

في أثناء ذلك كان آماديو بيرالتا، الثري المرهوب، يمد شباك سلطته في كل الاتجاهات. وكان في أيام الآحاد يجلس على رأس مائدة طويلة مع أبنائه وأحفاده الذكور، وأتباعه وأعوانه، ومع بعض المدعوين الخاصين من سياسيين وقادة عسكريين يعاملهم بملاطفة صاخبة، لا تخلو من الغطرسة الضرورية لكي يتذكروا من هو السيد. وكان الهمس يدور من وراء ظهره عن ضحاياه، وعن عدد أولئك الذين أوصلهم إلى الإفلاس والخراب أو جعلهم يختفون من الوجود، وعن الرشوة والسلطات، وعن أن نصف ثروته أتت من التهريب؛ ولكن أحداً لم يكن مستعداً للبحث عن أدلة. كانوا يقولون أيضاً إن بيرالتا يحتفظ بامرأة أسيرة في أحد الأقبية. وكان هذا الجزء من أسطورته السوداء يتردد بيقين أشد رسوخاً من ذاك الذي يتحدثون به عن صفقاته المشبوهة. والحقيقة أن كثيرين كانوا يعرفون بذلك إلى أن تحول مع مرور الزمن إلى سر تتداوله الألسن في كل مكان.

في عصر يوم شديد الحر، هرب ثلاثة أطفال من المدرسة وذهبوا ليستحموا في النهر. أمضوا قرابة ساعتين وهم يلعبون في مياه الضفة الموحلة، ثم ذهبوا للطواف بالقرب من معصرة آل بيرالتا القديمة لقصب السكر، المقفلة منذ نحو جيلين، حين لم يعد قصب السكر مربحاً. كان يشاع بأن المكان مسحور، ويقال إنه يُسمع هناك صخب شياطين، وقد رأى كثيرون في ذلك المكان ساحرة مشعثة الشعر تستحضر أرواح العبيد الميتين. الصغار الثلاثة الذين كان يستثيرهم حب المغامرة، دخلوا إلى المكان، واقتربوا من مبنى المعصرة. وسرعان ماتجرؤوا على الدخول إلى الأطلال، وجالوا في الحجرات الفسيحة ذات الجدران الطينية السميكة والعوارض التي نخرها السوس، ثم تجاوزوا نباتات السرخس المتكاثرة على الأرض، وأكوام القمامة وبراز الكلاب، والقراميد المتعفنة وأعشاش

الأفاعي. وكانوا يتزودون بالشجاعة من المزاح ودفع بعضهم بعضاً، إلى أن وصلوا إلى قاعة عصر القصب، وهي حجرة ضخمة لاسقف لها، فيها بقايا آلات مفككة، حيث صنع المطر والشمس حديقة مستحيلة، وحيث أحسوا بوجود رائحة سكر وعرق نفاذة. وعندما بدؤوا يتخلصون من الخوف، سمعوا بكل وضوح صوت غناء ممسوخ. ارتعدوا. حاولوا التقهقر، ولكن جاذبية الرعب كانت أقوى من الخوف، فقبعوا في أماكنهم منصتين حتى النغمة الأخيرة التي بقيت مغروسة في جباههم. وتمكنوا شيئاً فشيئاً من التغلب على جمودهم، ونفضوا الخوف عنهم وبدؤوا يبحثون عن مصدر تلك الأصوات الغريبة، المختلفة عن أي موسيقى معروفة. وهكذا عثروا على غطاء صغير على مستوى الأرض، وكان مقفولاً بقفلٍ لم يستطيعوا فتحه. هزوا الغطاء الخشبي الذي يُغلق المدخل، فصفعت وجوههم رائحة وحش حبيس لايمكن وصفها. صرخوا منادين، ولكن أحداً لم يرد على النداء، وإنما سمعوا لهاثاً أصم يأتي من الجانب الآخر. عندئذ انطلقوا هاربين ليعلنوا بأصوات صارخة أنهم قد اكتشفوا بوابة الجحيم.

لم يكن بالإمكان إسكات صخب الأطفال، وهكذا تأكد أهالي البلدة أخيراً مما كانوا يشكّون فيه منذ عقود. في البدء جاءت الأمهات وراء أطفالهن لينظرن من خلال الشقوق، وسمعن هن أيضاً ألحان السالتيرو الرهيبة، المختلفة كثيراً عن ذلك اللحن المبتذل الذي اجتذب آماديو بيرالتا حين توقف يوماً في أحد أزقة أغوا سانتا ليمسح العرق عن جبهته. ثم جاء بعدهن حشد من الفضوليين، وأخيراً، وعندما أصبح هناك جمع غفير من الناس، حضر رجال الشرطة والمطافئ الذين حطموا الباب بالفؤوس ونزلوا إلى القبو بمصابيحهم وأدوات إطفاء الحرائق. ووجدوا في الكهف مخلوقة عارية، جلدها المترهل يتدلى في طيات شاحبة، تجر وراءها على الأرض

خصلات شعر رمادية وتئن مفزعة من الضجة والضوء. كانت هورتينسيا تتألق ببريق محارة لؤلؤ تحت أضواء مصابيح رجال الإطفاء التي لا ترحم. كانت شبه عمياء، أسنانها منخورة، وساقاها ضعيفتان لاتقويان على حملها. وكان الدليل الوحيد على أصلها البشري هو آلة السالتيرو القديمة التي تشدها إلى حضنها.

أثار الخبر السخط في كل أنحاء البلاد. وظهرت على شاشات التلفزيون وفي الصحف صورة المرأة المستخرجة من الجحر الذي أمضت فيه حياتها، وكانت مغطاة ببطانية ألقاها أحدهم على كتفيها كيفما اتفق. عدم المبالاة الذي أحاط بالسجينة طوال ما يقرب من نصف قرن، تحول في بضع ساعات إلى رغبة في الثأر لها ونجدتها. شكّل الجيران جماعات مرتجلة لشنق آماديو بيرالتا، فهاجموا بيته، وأخرجوه منه سحلاً، ولولا وصول الشرطة في الوقت المناسب لانتزاعه من أيديهم، لكانوا مزقوه ارباً في الساحة. ومن أجل إخماد شعورهم بالذنب لتجاهلهم إياها طوال كل ذلك الوقت، أبدى الجميع رغبتهم في رعاية هورتينسيا والعناية بها. فجُمعت الأموال لتقديم نفقة لها، وجُمعت أطنان من الملابس والأدوية التي لا تحتاج إليها، وأبدت عدة منظمات خيرية استعدادها للقيام بمهمة كشط الطحالب عن جسدها وقص شعرها وكسوتها من قدميها حتى رأسها، لتحويلها إلى عجوز عادية. وقدمت لها الراهبات سريراً في ملجأ المعوزين، وأبقينها مقيدة عدة شهور كي لا تهرب وترجع إلى القبو، إلى أن اعتادت أخيراً على ضوء النهار ورضخت للعيش مع كائنات بشرية أخرى.

استغل خصوم آماديو بيرالتا الهياج العام الذي أججته الصحافة، فاستجمعوا شجاعتهم أخيراً لينقضوا عليه. والسلطات التي وفرت الحماية لممارساته التعسفية طوال سنوات، هوت عليه بهراوة القانون. استولى الخبر

على اهتمام الجميع خلال الوقت اللازم لاقتياد الشيخ إلى السجن، ثم بدأ ذلك الاهتمام يفتر إلى أن تلاشى تماماً. أما الشيخ الذي أنكره ذووه وأصدقاؤه، وتحول إلى رمز لكل ما هو بغيض وخسيس، وعاداه سجانوه ورفاقه في بؤس السجن، فقد بقي رهين السجن إلى أن وافته المنية. كان يبقى في زنزانته لا يخرج منها مطلقاً إلى الفناء مع السجناء الآخرين. ومن هناك كان يستطيع سماع ضجة الشارع.

في كل يوم، في الساعة العاشرة صباحاً، كانت هورتينسيا تمضي بخطوات المجنونة المتعثرة وتسلم إلى حارس البوابة قدر طعام ساخن ليوصله إلى السجين.

وكانت تقول لبواب السجن بنبرة اعتذارية:

ـ لم يكن يتركني أجوع تقريباً.

ثم تجلس بعد ذلك في الشارع لتعزف على السالتيرو. فكان بعض المارة يمنحونها قطعاً نقدية آملين في صرف انتباهها عن العزف وجعلها تصمت.

وكان آماديو بيرالتا يتكور على نفسه في الجانب الآخر من الجدران، ويستمع إلى ذلك اللحن الذي يبدو وكأنه آتٍ من أعماق الأرض ليخترق أعصابه. لابد أن ذلك التأنيب اليومي كان يعني شيئاً، ولكنه لم يكن قادراً على التذكر. كانت تراوده في بعض الأحيان مشاعر الإحساس بالذنب، ولكن الذاكرة كانت تخونه على الفور، وتختفي صور الماضي في غمامة كثيفة. لم يكن يدري سبب وجوده في ذلك القبر. وشيئاً فشيئاً راح ينسى الضوء كذلك، ويسلم نفسه للبؤس.

واليماي

الاسم الذي منحني إياه أبي هو واليماي، ويعني الريح بلغة أشقائنا في الشمال. يمكنني أن أخبرك بذلك لأنك الآن مثل ابنتي وسأسمح لك بمناداتي باسمي، ولو أن ذلك سيقتصر على وجودنا في الأسرة فقط. فلا بد من التزام الحذر الشديد دائماً في التعامل مع أسماء الأشخاص والكائنات الحية، لأننا حين ننطق أسماءهم نلامس قلوبهم وندخل إلى قوتهم الحيوية. وهكذا نتبادل التحية مع من تربطنا بهم قرابة الدم. لست أفهم الاستخفاف الذي ينادي به الأغراب بعضهم بعضاً دون أي إحساس بالرهبة، فهذا التصرف ليس إساءة احترام وحسب، بل إنه قد يؤدي إلى مخاطر كبيرة. لقد لاحظت أن أولئك الناس يتكلمون بمنتهى الخفة، دون أن يأخذوا في الاعتبار أن التكلم هو كينونة أيضاً. فالإيماءة والكلمة هما فكر الإنسان. يجب عدم التحدث جزافاً ودون هدف، وقد علّمت أبنائي ذلك، ولكن نصائحي لا تجد آذاناً صاغية على الدوام. لقد كانت المحرمات والتقاليد تحظى بالاحترام في الزمن الغابر. فأجدادي وأجداد أجدادي تلقوا عن أجدادهم المعارف اللازمة. ولم يكن هناك أي تغيير بالنسبة إليهم. فالرجل الذي تلقى تعليماً جيداً يمكنه أن يتذكر التعاليم التي تلقاها واحدة واحدة، فيعرف كيف عليه أن يتصرف في كل لحظة وكل موقف. ولكن الغرباء جاؤوا بعد ذلك وراحوا يتكلمون ضد حكمة الشيوخ ودفعونا بعيداً عن أرضنا. أخذنا نتوغل أكثر فأكثر في الغابة، ولكنهم كانوا يلحقون بنا على الدوام.. قد يتأخرون لسنوات في بعض

الأحيان، ولكنهم يأتون أخيراً من جديد، ويتوجب علينا حينئذ أن نخرب المزروعات، وأن نحمل الأطفال على ظهورنا، ونربط البهائم ونرحل. هكذا كانت الأمور مذ وعيت على الدنيا: نترك كل شيء وننطلق راكضين مثل جرذان وليس مثل محاربين عظماء أو مثل الآلهة التي أقامت في هذه الأراضي في الأزمنة الغابرة. هنالك شبان يشعرون بالفضول تجاه البيض، فبينما نحن نرحل نحو أعماق الغابة لنواصل العيش مثل أسلافنا، ينطلق آخرون في الاتجاه المعاكس. ونحن ننظر إلى من يذهبون كما لو أنهم قد ماتوا، لأن قليلين منهم يرجعون، وحتى هؤلاء الذين يرجعون يكونون قد تبدلوا كثيراً بحيث لا يمكننا الاعتراف بهم كأقرباء لنا.

يقال إنه في السنوات التي سبقت مجيئي إلى الدنيا لم تكن ولادات الإناث كافية في قريتنا، ولهذا اضطر والدي إلى أن يجوب دروباً طويلة ليبحث عن زوجة له في قبيلة أخرى. ارتحل عبر الأدغال مقتفياً آثار آخرين اجتازوا تلك الدروب من قبل للسبب نفسه، وعادوا بنساء غريبات. وبعد مرور زمن طويل، حين بدأ أبي يفقد الأمل في العثور على زوجة، رأى فتاة عند شلال، وهو نهر يهوي من السماء. ودون أن يقترب منها كثيراً، كيلا يخيفها، تكلم إليها بالنبرة التي يستخدمها الصياد لطمأنة طريدته، وأوضح لها حاجته إلى الزواج. فأومأت إليه ليقترب، وتفحصته دون مواربة، ولابد أن مظهر الرحَّال قد أعجبها، لأنها رأت أن فكرة الزواج جنونية تماماً. وكان على أبي أن يعمل عند حميه ليدفع له قيمة المرأة. وبعد إتمام شعائر الزفاف، بدأ الاثنان رحلة العودة إلى قريتنا.

لقد ترعرعت مع اخوتي تحت الأشجار، دون رؤية الشمس مطلقاً. في بعض الأحيان كانت تسقط شجرة جريحة وتبقى هناك فجوة في القبة الغابية الكثيفة، وعندئذ كنا نرى عين السماء الزرقاء. لقد حكى لي

أبواي الحكايات، وغنيا لي الأغنيات وعلّماني ما يجب أن يتعلمه الرجال للبقاء على قيد الحياة دون مساعدة، اللهم إلا مساعدة قوسهم وسهامهم. وهكذا أصبحت حراً. فنحن أبناء القمر لا نستطيع العيش دون حرية. عندما يحبسوننا بين جدران أو وراء قضبان فإننا ننفجر نحو الداخل، فنفقد الرؤية والسمع وبعد أيام قليلة تخرج روحنا من عظام الصدر وتغادرنا. قد نتحول أحياناً إلى ما يشبه الحيوانات البائسة، ولكننا في معظم الأحيان نفضل الموت. ولهذا، نحن لا نصنع جدراناً لبيوتنا، وإنما سقوف فقط لتمنع الريح وتحرف المطر، وتحت هذه السقوف نعلق أراجيح نومنا متقاربة، لأننا نحب سماع أحلام النساء والأطفال والإحساس بأنفاس القرود والكلاب التي تنام تحت السقف نفسه. لقد عشت في الأزمنة الأولى في الغابة وأنا لا أدري أن هناك عالماً فيما وراء الجروف والأنهار. في بعض المرات كان يزورنا أصدقاء من قبائل أخرى ويحدثوننا عن **باو فيستا** وعن **الملاتانال**، وعن الأغراب وعاداتهم، ولكننا كنا نظن أنها مجرد حكايات للإضحاك. أصبحت رجلاً، وجاء دوري للحصول على زوجة، ولكنني قررت الانتظار لأني كنت أفضل مرافقة العازبين، فقد كنا سعداء وكثيري المرح. ولكنني لم أستطع مع ذلك أن أتفرغ للعب والراحة مثل آخرين، لأن أسرتي كبيرة العدد: الأخوة، وأبناء العمومة، وأبناء الأخوة.. أفواه كثيرة لابد من إطعامها... إنه عمل كثير بالنسبة لصياد.

في أحد الأيام جاء رجال شاحبون إلي. كانوا يتصيدون بالبارود من بعيد، دون مهارة أو شجاعة، كانوا عاجزين عن تسلق شجرة أو عن شك سمكة برمح وهي في الماء، وكانوا لا يكادون يستطيعون التحرك في الغابة، فهم يتعثرون بجعبهم وبأسلحتهم وحتى بأقدامهم نفسها. ولم يكونوا يرتدون ثياباً تكشف أجسادهم للهواء مثلنا، بل كانت ملابسهم

مبللة ومنتنة، كانوا قذرين ويجهلون قواعد اللياقة، ولكنهم كانوا مندفعين في التحدث إلينا عن معارفهم وآلهتهم. وقد قارنا بينهم وبين ما كنا قد سمعناه عن البيض وتأكدنا من صحة تلك الأقاويل. وسرعان ما عرفنا أنهم ليسوا مبشرين ولا جنوداً ولاجامعي مطاط، وإنما هم مجانين يريدون الأرض وأخذ الخشب. وأنهم يبحثون كذلك عن الأحجار. أوضحنا لهم أنه لايمكن حمل الغابة على الظهور ونقلها مثل عصفور ميت، ولكنهم رفضوا الإصغاء إلينا. استقروا إلى جوار قريتنا. كان كل واحد منهم مثل ريح الكارثة، يدمر كل ما يعترض طريقه، مخلّفاً وراءه أثر زبالة، ويزعج الحيوانات والبشر. في أول الأمر التزمنا بقواعد اللياقة ومنحناهم المتعة، لأنهم ضيوفنا، ولكنهم لم يكونوا يقنعون بشيء، فهم يريدون المزيد دائماً، حتى تعبنا من هذه الألعاب، وبدأنا الحرب بكل طقوسها المعتادة. إنهم محاربون سيئون، فهم يخافون بسهولة وعظامهم طرية. لم يتحملوا الهراوى التي وجهنا ضرباتها إلى رؤوسهم. بعد ذلك غادرنا الضيعة وتوجهنا نحو الشرق، حيث الغابة متشابكة، وقطعنا مسافات طويلة فوق الأشجار لكي لا يلحق بنا رفاقهم. فقد كانت قد وصلتنا أخبار عن ميلهم إلى الانتقام وعن أنهم حين يموت واحد منهم، حتى ولو في معركة نظيفة، لا يتورعون عن تصفية قبيلة بكاملها بمن في ذلك الأطفال. اكتشفنا موقعاً يمكننا إقامة القرية فيه. لم يكن جيداً من كل النواحي، فقد كان على النساء أن يسرن ساعات من أجل الحصول على ماء الشرب، ولكننا بقينا هناك لأننا اعتقدنا أن أحداً لن يبحث عنا في مكان بعيد كهذا. بعد سنة من ذلك، اضطررت إلى الابتعاد مسافة كبيرة وأنا أقتفي إثر أسد يوما، واقتربت كثيراً من أحد معسكرات الجنود. كنت منهوك القوى، ولم أكن قد تناولت طعاماً منذ عدة أيام، ولهذا كان ذهني مشوشاً. وبدلاً من

أن أعود على عقبي بعد أن لمحت الجنود الغرباء، جلست لأستريح. فأمسك الجنود بي. ولكنهم لم يذكروا مع ذلك ضربات الهراوى التي وجهناها إلى الآخرين، والحقيقة أنهم لم يسألوني عن أي شيء. ربما لم يكونوا يعرفون أولئك الأشخاص أو أنهم لا يعرفون أنني واليماي. أخذوني للعمل مع جامعي المطاط، وكان هناك رجال كثيرون من قبائل أخرى ممن ألبسوهم البنطلونات وأجبروهم على العمل دون أي اهتمام برغباتهم. المطاط يحتاج إلى جهد كبير، ولم يكن هناك أناس كثيرون في تلك الأنحاء، ولهذا كانوا يسخروننا في العمل بالقوة. لقد كانت مرحلة دون حرية ولست أريد التحدث عنها. وقد بقيت فقط لأرى إن كنت سأتعلم شيئاً، ولكنني كنت أعرف منذ البداية أنني سأرجع إلى أهلي. فليس هناك من هو قادر على اعتقال محارب رغم أنفه لزمن طويل.

كان العمل يستمر من شروق الشمس حتى غروبها، البعض يشقون الأشجار لانتزاع الحياة منها قطرة قطرة، وآخرون يطبخون السائل المستخرج لتكثيفه وتحويله إلى كرات كبيرة. لقد كان الهواء الطلق مريضاً برائحة المطاط المحروق، والهواء في الحجرات الجماعية كان مريضاً كذلك برائحة الرجال. لم أستطع التنفس بعمق مطلقاً في ذلك المكان. كانوا يقدمون لنا طعاماً من الرز والموز ومحتويات بعض العلب الغريبة التي لم أتذوقها مطلقاً، لأنه لايمكن لشيء ينمو في علب أن يكون نافعاً للبشر. في أحد أطراف المعسكر كان يقوم كوخ كبير يحتجزون فيه النساء. وبعد أن أمضيت أسبوعين من العمل في المطاط، سلمني رئيس العمل قصاصة ورق وأرسلني إلى حيث توجد النساء. وقد قدم لي كذلك كأساً من الخمر، فسكبته على الأرض لأني كنت قد رأيت كيف يدمر هذا السائل الوقار. وقفت في الدور مع الآخرين. وكنت

الأخير. وحين جاء دوري في الدخول إلى الكوخ كانت الشمس قد غابت وبدأ الليل بضوضائه التي تسببها أصوات الضفادع والببغاوات.

كانت المرأة التي دخلتُ عليها من قبيلة إيلا، ذوي القلب الحلو، الذين تنحدر منهم أكثر الفتيات رقة. هناك رجال يسافرون شهوراً لكي يقتربوا من قبيلة إيلا، ويحملون إليها الهدايا ويصطادون لحسابها على أمل الحصول على واحدة من نسائهم. وقد تعرفتُ على المرأة رغم مظهرها الذي يشبه الحرذون، لأن أمي كانت من قبيلة إيلا أيضاً. كانت المرأة عارية فوق صندوق، ومقيدة من كاحلها بسلسلة مثبتة بالأرض، غائبة عن الوعي كما لو أنها استنشقت عبر أنفها "بوبو" الاكاسيا، وكانت تنبعث منها رائحة الكلاب الميتة، وكانت مبللة بندى جميع الرجال الذين مروا فوقها قبلي. لقد كانت بحجم طفلة ذات سنوات قليلة، وكانت عظامها تقرقع كأنها أحجار في النهر. إن نساء الإيلا ينزعن كل شعر البدن، حتى الرموش، ويزينَّ آذانهن بالريش والأزهار، ويدخلن عيداناً مشذبة في وجناتهن وأنوفهن، ويرسمن على كامل أجسادهن رسوماً يلونّها بأحمر الأونوتو وبنفسجي النخيل وأسود الفحم. أما هي، فلم يكن عليها أي شيء من هذا. وضعتُ منجلي على الأرض وحييتها مثل أخت لي، محاكياً بعض تغريد الطيور وجلبة الأنهار. ولكنها لم ترد. ضربتُ صدرها بقوة لأرى إذا ما كانت روحها تتردد بين ضلوعها، فلم يكن هناك صدى. كانت روحها ضعيفة جداً ولم يكن بمقدورها الرد عليّ. جلستُ القرفصاء إلى جانبها وقدمت لها قليلاً من الماء لتشربه وتحدثت إليها بلغة أمي. ففتحت عينيها ونظرت إلي طويلاً. ففهمتُ ما عنته.

اغتسلتُ أولاً دون أن أهدر الماء النظيف. تناولتُ جرعة لابأس بها من الماء واحتفظت بها في فمي ثم أطلقتها في خيط رفيع نحو يديّ،

ففركتهما جيداً ثم بللتهما لأنظف وجهي. وفعلت الشيء نفسه معها، لأنظفها من ندى الرجال. خلعتُ البنطال الذي كان قد أعطاني إياه رئيس العمال. كانت تتدلى من الحبل الذي يحيط خاصرتي قطعتا الخشب اللتان أوقد بهما النار، وبعض أسنة السهام، وجراب تبغي، وسكيني الخشبي المثبت في مقدمته سن جرذ، وجراب جلدي ثابت تماماً يحوي شيئاً من سمّ الكُرار. وضعت قليلاً من هذا المعجون على رأس سكيني، وانحنيت فوق المرأة وأحدثت بالأداة المسمومة شقاً في عنقها. إن الحياة هبة من الآلهة. والصياد يقتل لكي يطعم أسرته، وهو يحاول ألا يذوق لحم طريدته ويفضل أن يأكل مما يقدمه إليه صياد آخر. من المؤسف أن الرجل يقدم في بعض الأحيان على قتل رجل آخر في الحرب، ولكنه لا يستطيع مطلقاً أن يلحق الأذى بامرأة أو طفل. لقد نظرتْ المرأة إليّ بعينين واسعتين، صفراوين كالعسل، ويبدو لي أنها حاولت الابتسام شاكرة. لقد خرقتُ من أجلها أكبر المحرمات لدى أبناء القمر، ويتوجب علي أن أقوم بأعمال كثيرة للتكفير عن هذا العار. كررت ذلك مرتين في ذهني لكي أكون متأكداً تماماً، ولكنني لم أنطقه بصوت عالٍ، لأنه يجب عدم ذكر الموتى حتى لا نقلق راحتهم، وهي كانت في عداد الموتى، حتى ولو كان قلبها ما يزال ينبض. وسرعان ما رأيت الشلل يدب في عضلات بطنها وصدرها وأطرافها، ففقدتْ النفس، وتبدل لونها، وأفلتت منها زفرة ومات جسدها دون صراع، مثلما تموت المخلوقات الصغيرة.

وعلى الفور أحسست بأن روحها تخرج من أنفها وتدخل في جسدي وكان علي أن أبذل جهداً عظيماً كي أتمكن من الوقوف على قدمي. كنت أتحرك بتثاقل وكأنني تحت الماء. طويت جسدها في وضع الراحة الأخير بحيث لمست ركبتاها ذقنها، وربطتها بحبال الصندوق، وجمعت

بقايا القش في كومة واستخدمتُ خشبتي القدح لأشعل ناراً. عندما رأيت النار تتأجج بصورة مضمونة، خرجت ببطء من الكوخ، وتسلقت سور المعسكر بصعوبة بالغة لأنها كانت تشدني بثقلها إلى أسفل، ثم اتجهت إلى الغابة. وكنت قد وصلت أول أشجار الغابة حين سمعت دوي أجراس الإنذار.

سرت طوال اليوم الأول دون أن أتوقف لحظة واحدة. وفي اليوم التالي صنعت قوساً وسهاماً واستطعت أن أصطاد بها من أجلها ومن أجلي أيضاً. فالمحارب الذي يحمل حياة إنسانية أخرى يجب عليه مساعدتها مدة عشرة أيام، وهكذا تضعف روح الميت وتخرج أخيراً لتذهب إلى أرض الأرواح. أما إذا لم يفعل ذلك فإن الروح ستسمن بالغذاء وتنمو داخل الرجل حتى تخنقه. لقد رأيت بعض أشداء القلوب يموتون بهذه الطريقة. ولكن قبل أن أنجز هذه المتطلبات كان علي أن أقود روح المرأة الإيلا نحو الخضرة الأكثر عتمة، حيث لايمكن العثور عليها مطلقاً. أكلتُ قليلاً جداً، ما يكفي لعدم قتلها مرة ثانية. كل لقمة في فمي كان لها طعم اللحم النتن وكل رشفة ماء كانت مرة، ولكنني أجبرت نفسي على ابتلاع ما يغذينا نحن الاثنين. وطوال دورة قمر كاملة توغلت في الغابة حاملاً روح المرأة التي كانت تزداد ثقلاً كل يوم. تحدثنا كثيراً. إن لغة قبيلة إيلا حرة وترن تحت الأشجار بصدى مديد. أما نحن فنتواصل بالغناء، بكل الجسد، بالعيون، بالخصر، بالأقدام. كررت لها الأساطير التي تعلمتها من أمي ومن أبي، رويت لها ماضيّ وروت لي هي الجزء الأول من ماضيها، حين كانت صبية سعيدة تلعب مع اخوتها في الطين وتتأرجح على أعلى الأغصان. وبدافع اللياقة لم تذكر شيئاً عن فترة تعاستها وبؤسها الأخيرة. اصطدت عصفوراً ابيض، وانتزعت أفضل رياشه وجعلت منها زينة لأذني. وطوال الليل كنت

أُبقي موقداً صغيراً مشتعلاً حتى لا تبرد، ولكي لا تزعج أسود البوما والأفاعي نومها. حممتها في النهر بعناية، ودلكتها بالرماد والأزهار المهروسة لأنتزع منها الذكريات السيئة.

وأخيراً، وصلنا في أحد الأيام إلى المكان المحدد ولم تعد لدينا ذريعة لمواصلة المشي. كانت الغابة هناك كثيفة إلى حد أنني اضطررت في بعض الأماكن إلى شق طريق بتحطيم الخضرة بمنجلي المتشيتي أو حتى بالأسنان. وكان علينا أن نتحدث بصوت خافت حتى لا نشوش سكون الزمن. انتقيتُ مكاناً بالقرب من مسيل ماء، فرفعت سقفاً من الأوراق وصنعت أرجوحة نوم لها من ثلاث قطع طويلة من لحاء الشجر. وحلقت شعر رأسي تماماً بسكيني وبدأت صيامي.

خلال الوقت الذي سرناه أنا والمرأة معاً أحب كل منا الآخر إلى حد لم نعد نرغب معه في الانفصال. ولكن الإنسان ليس سيد الحياة، حتى ولا حياته نفسها؛ ولهذا كان عليّ أن أنجز واجبي. لم أضع شيئاً في فمي طوال أيام كثيرة، اللهم إلا بعض جرعات الماء. وكلما كانت قواي تخور كانت هي تنسل مني، وكان ثقل روحها علي يتضاءل أكثر فأكثر مع تحولها إلى الخلود. وبعد خمسة أيام خطتْ أولى خطواتها حولي، بينما كنت أنا أغفو. ولكنها لم تكن مستعدة بعد لمواصلة رحلتها بمفردها، فرجعتْ إلى جواري. كررتْ هذه الجولات عدة مرات، وكانت في كل مرة تبتعد أكثر قليلاً. آلام فراقها كانت بالنسبة لي رهيبة مثل حرق، وكان عليّ أن ألجأ إلى كل الشجاعة التي تعلمتها من أبي كي لا أناديها باسمها بصوت عالٍ لأنني سأجتذبها عندئذ للعودة والبقاء معي إلى الأبد. وبعد اثني عشر يوماً حلمتُ أنها تطير مثل طائر توكان فوق قمم الأشجار وأفقت خفيف الجسد وبي رغبة في البكاء. كانت قد ذهبت نهائياً. حملت

أسلحتي وسرت ساعات طويلة لأصل إلى أحد أذرع النهر. غطست في الماء حتى خاصرتي، وغرست سمكة بعود مدبب ثم ابتلعتها كاملة بحراشفها وزعانفها وذيلها. وتقيأتها على الفور مع قليل من الدم، مثلما يجب أن يحدث. ولم أعد أشعر بالحزن. لقد أدركت عندئذ أن الموت في بعض الأحيان أقوى من الحب. ثم انصرفت بعد ذلك إلى الصيد لكي لا أعود إلى ضيعتي بيدين فارغتين.

إستير لوثيرو

حملوا إستير لوثيرو على نقالة مرتجلة وهي تنزف مثل جاموس، وعيناها القاتمتان مفتوحتان على اتساعهما من الرعب. وما إن رآها الدكتور آنخل سانتشيث حتى فقد لأول مرة هدوءه الذي يُضرب به المثل، وكان ذلك أقل ما يمكن تصوره، لأنه كان مغرماً بها منذ اليوم الذي رآها فيه، حين كانت ما تزال طفلة. لم تكن في ذلك الحين قد تخلت عن دُماها بينما كان هو عائداً من حملته الأخيرة المجيدة وقد هرم ألف سنة. لقد وصل إلى القرية على رأس فرقته، وكان جالساً على سطح سيارة شاحنة، وبندقيته فوق ركبتيه، وبلحية لم تُحلق منذ شهور، وبرصاصة مستقرة في أعلى فخذه إلى الأبد. ولكنه كان سعيداً كما لم يكن في أي يوم قبل ذلك أو بعده. رأى البنت تهز راية ورقية حمراء، وسط الحشود التي تصرخ محيية المحررين. وكان عمره آنذاك ثلاثين سنة وعمرها حوالى اثنتي عشرة، ولكن آنخل سانتشيث لمح الجمال الذي كان يتشكل في تلك العظام المرمرية وفي عمق نظرة الصبية. راقبها من أعلى السيارة مقتنعاً من أنها رؤيا مبعثها حمى المستنقعات وحماسة الانتصار، ولكنه لم يجد في تلك الليلة العزاء بين ذراعي الحبيبة العابرة التي نام معها، وفهم أنه عليه أن يخرج ليبحث عن تلك المخلوقة، لكي يتأكد على الأقل من طبيعتها السرابية. وفي اليوم التالي، عندما هدأ صخب الشوارع الاحتفالي وبدأت مهمة إعادة ترتيب العالم وكنس أنقاض الدكتاتورية، خرج سانتشيث للتجوال في القرية. وكان أول ما فكر

فيه هو زيارة المدارس، ولكنه علم بأنها قد أغلقت كلها منذ المعركة الأخيرة، فلم يجد بداً من طرق الأبواب واحداً بعد آخر. وبعد عدة أيام من التجوال الصابر، وحين صار يفكر في أن الفتاة لم تكن سوى خدعة من قلبه المستنفد، وصل إلى بيت صغير مطلي بالأزرق وعلى واجهته آثار ثقوب بالرصاص، ونافذته الوحيدة تطل على الشارع دون أي وقاية سوى ستائر مزينة برسوم أزهار. طرق الباب عدة مرات دون أن يتلقى جواباً، وعندئذ قرر الدخول. وجد في الداخل حجرة وحيدة فيها أثاث بائس، باردة ومعتمة. اجتاز الغرفة وفتح باباً فوجد نفسه في فناء فسيح تملؤه أمتعة ومعدات خربة، فيه أرجوحة نوم معلقة تحت شجرة مانغا، وحوض غسيل، وقن دجاج في أقصاه، وكثير من علب الصفيح وأصص الفخار تنمو فيها أعشاب وخضراوات وأزهار. وهناك وجد أخيراً من ظن أنه حلم بها. كانت إستير لوثيرو حافية، وبثوب عادي من القطن، وشعرها الغزير مربوط عند رقبتها برباط حذاء، وكانت تساعد جدتها في نشر الغسيل تحت الشمس. عندما رأتاه تراجعتا كلتاهما بحركة غريزية، لأنهما اعتادتا الارتياب بكل من ينتعل جزمة.

- لا تفزعا، إنني رفيق - قدم نفسه بهذه الكلمات وهو يمسك في يده قبعته الملطخة بالدهون.

ومنذ ذلك اليوم اكتفى آنخل سانتشيث باشتهاء إستير لوثيرو بصمت، فقد خجل من تلك العاطفة التي لا يمكن البوح بها نحو صبية غير بالغة. ومن أجلها رفض الذهاب إلى العاصمة حين وزعوا غنيمة السلطة، وفضل البقاء على رأس المستشفى الوحيد في تلك القرية المنسية. ولم يكن يأمل في أن يصل الحب إلى ما هو أبعد من أجواء تخيلاته. لقد كان يعيش على أدنى احتياجات الرضى: رؤيتها وهي تمضي في طريقها إلى المدرسة، ورعايتها

حين أصيبت بالحصبة، وتزويدها بالفيتامينات حين كان الحليب والبيض واللحم لا يكفي إلا لمن هم أصغر منها سناً، بينما على الآخرين أن يكتفوا بالموز والذرة؛ وزيارتها في بيتها، حيث كان يجلس على كرسي ليعلّمها جدول الضرب أمام عيني جدتها المترصدتين. وانتهى الأمر بإستير لوثيرو إلى مناداته بعمي، لأنه لم يكن هناك لقب مناسب أكثر، وصارت الجدة العجوز تتقبل حضوره كسرٍ آخر من أسرار الثورة التي لا يمكن تفسيرها.

وكانت نساء القرية الفضوليات يتساءلن:

- ماهي المصلحة التي يحصل عليها رجل متعلم ودكتور ورئيس مستشفى وبطل وطني، من حديث عجوز مسنة ومن صمت حفيدتها؟

في السنوات التالية تفتحت البنت مثلما يحدث على الدوام تقريباً، ولكن آنخل سانتشيث ظن أن تفتحها هو أعجوبة إعجازية، وأنه هو وحده من يستطيع رؤية الفتنة التي تنضج مختبئة تحت الفساتين البريئة التي تفصّلها لها الجدة على ماكينة الخياطة. كان واثقاً من أن مرورها يطيّر صواب من يراها، مثلما يحدث له، ولهذا كان يستغرب عدم وجود زوبعة من الخاطبين فيما حول إستير لوثيرو. كان يعيش معذباً بمشاعر جارفة وغيرة محددة تجاه جميع الرجال، وكآبة دائمة - هي ثمرة اليأس - وحمى جهنمية تحاصره في موعد القيلولة، حيث يتخيل الصغيرة عارية ورطبة، تستدعيه بإيماءات فاحشة في عتمة الحجرة. ولكن أحداً لم يعرف على الإطلاق أي شيء عن عذابات حالته المعنوية. فالرقابة التي يمارسها على نفسه تحولت إلى طبيعة ثانية فيه واكتسب بذلك السمعة بأنه رجل طيب. وأخيراً ملّت نساء القرية من البحث له عن عروس وانتهى بهن الأمر إلى الاقتناع بأن الطبيب هو رجل غريب الأطوار بعض الشيء.

وكن يضفن:

- لا يبدو لوطياً، ولكن ربما تكون الملاريا أو الرصاصة المستقرة بين ساقيه قد خلصته إلى الأبد من متعة النساء.

كان آنخل سانتشيث يلعن أمه التي أخرجته إلى الدنيا قبل عشرين سنة مما يجب، ويلعن قدره الذي زرع جسده وروحه بكل تلك الندوب. وكان يتوسل إحدى نزوات الطبيعة لكي تلوي التناسق وتُخفي ضوء إستير لوثيرو، حتى لا ينتبه أحد إلى أنها أجمل امرأة في هذا العالم وأي عالم آخر. ولهذا، حين جاؤوا بها في يوم الخميس المشؤوم محمولة على نقالة تتقدمها جدتها ويتبعها موكب من الفضوليين، أطلق الدكتور صرخة من أعماق أحشائه. وحين سحب الشرشف ورأى الصبية مثقوبة بجرح فظيع، ظن أنه قد تسبب هو نفسه بهذه الكارثة لكثرة ما تمنى ألا تكون لرجل آخر سواه.

أوضحت الجدة:

- لقد تسلقتْ شجرة المانغا في الفناء وسقطت عنها منغرسة بالوتد الذي نربط به الإوزة.

وقال جار كان يساعد في حمل النقالة:

- يا للمسكينة، لقد طُعنت مثل مصاص دماء. لم يكن انتزاعها عن الوتد سهلاً.

أغمضت إستير لوثيرو عينيها وتأوهت بخفوت.

منذ تلك اللحظة دخل آنخل سانتشيث في مبارزة شخصية ضد الموت. حاول إنقاذ الصبية بكل السبل. أجرى لها عملية جراحية، حقنها، نقل لها من دمه بالذات، وسكّنها بالمضادات الحيوية، ولكن كان واضحاً بعد

يومين أن الحياة تهرب من جرحها مثل تيار متدفق لا يمكن وقفه. وبينما هو جالس على كرسي إلى جوار المحتضرة، منهوكاً من التوتر والحزن، أسند رأسه على نهاية السرير وغفا للحظات مثل طفل حديث الولادة. وبينما كان يحلم بذبابات عملاقة، كانت هي تهيم شاردة في كوابيس الاحتضار، وهكذا التقيا في أرضٍ محايدة، وأمسكت هي في حلمهما المشترك يده وتوسلت إليه ألا يستسلم أمام الموت وألا يتخلى عنها. عندئذ استيقظ آنخل سانتشيث فجأة وقد تذكر بصفاءٍ الزنجي ريفاس والمعجزة غير المعقولة التي أعادته إلى الحياة. فخرج راكضاً واصطدم في الممر بالجدة التي كانت مستغرقة في دمدمة صلوات لا تنتهي. فصرخ بها وهو يمر مسرعاً:

- واصلي صلواتك، فأنا سأرجع بعد ربع ساعة.



قبل عشر سنوات من ذلك، حين كان آنخل سانتشيث يمضي مع رفاقه في الأدغال، حيث تصل الأعشاب إلى الركبة، وحيث عذاب الناموس والحر، محاصرين وقاطعين البلاد في كل الاتجاهات لينصبوا كمائن لجنود الدكتاتورية، حين لم يكونوا إلا مجرد حفنة من المجانين الواهمين المحملين بأحزمة ممتلئة بالرصاص، وحقائب ممتلئة بالكتب، ورؤوس محشوة بالمثل العليا، حين كانوا يمضون شهوراً دون أن يشموا امرأة أو يمروا بالصابون على أجسادهم، حين كان الجوع والخوف جلداً آخر والشيء الوحيد الذي يبقيهم متحركين هو اليأس، حين كانوا يرون أعداءً في كل مكان ويرتابون حتى بظلالهم نفسها، في ذلك الحين سقط الزنجي ريفاس في وهدة وتدحرج ثمانية أمتار في الهوة، مصطدماً

دون ضجة وكأنه كيس مليء بالخرق. لقد احتاج رفاقه إلى عشرين دقيقة لكي ينزلوا بالحبال مابين الصخور الحادة والجذوع الملتفة، ويجدوه غارقاً وسط الحشائش، واحتاجوا إلى نحو ساعتين لكي يرفعوه مخضباً بالدم.

كان الزنجي ريفاس رجلاً ضخماً، شجاعاً ومرحاً، الأغنية جاهزة دائماً على شفتيه، وهو مستعد على الدوام ليحمل على كاهله مقاتلاً آخر أضعف منه بنية. وحين أخرجوه كان مفتوحاً مثل رمانة، وأضلاعه مكشوفة مع شق عميق يبدأ في الظهر وينتهي عند منتصف الصدر. كان سانتشيث يحمل معه علبة الإسعاف، ولكن الحالة كانت تتجاوز تماماً إمكانياته المتواضعة. خاط الجرح دون أدنى أمل، وضمده بمزق قماشية، وقنن الأدوية المتوافرة للمصاب. ثم وضعوا الرجل على قطعة قماش ممدودة على عصوين ونقلوه بهذه الطريقة، متناوبين في حمله حتى تأكد لهم أن كل اهتزازة هي دقيقة أقل من حياته، لأن الزنجي ريفاس كان يتقيح مثل ينبوع ويهذي متحدثاً عن عظاءات اغوانا لها أثداء امرأة وعن أعاصير ملحية.

كانوا يخططون للتخييم لكي يتيحوا له الموت بسلام حين لمح أحدهم عند حافة بئر ذات مياه سوداء هنديين يتفليان بمودة. ووراءهما بقليل كانت قرية الهنود الغارقة في بخار الغابة الكثيف. لقد كانت قبيلة مستقرة منذ أزمنة سحيقة، وليس لها أي اتصال بالعصر الراهن إلا من خلال مبشر جريء جاء ليعظهم دون نجاح بشرائع الرب، والأخطر من ذلك هو أنهم لم يكونوا قد علموا **بالثورة** أو سمعوا بصرخة **الوطن أو الموت**. وعلى الرغم من هذه الاختلافات ومن حاجز اللغة، أدرك الهنود أن أولئك الرجال المنهوكين لا يمثلون خطراً كبيراً ورحبوا بهم بحذر. أشار الثائرون إلى المحتضر. فقادهم من كان يبدو أنه زعيم الهنود إلى كوخ غارق في ظلام دامس، تفوح فيه رائحة بول ووحل. وهناك مددوا الزنجي ريفاس على حصيرة

وأحاط به رفاقه والقبيلة كلها. وبعد قليل جاء الساحر بزينته الاحتفالية. فزع القومندان حين رأى أطواق البيغونيا التي تتدلى من عنق الساحر، وحين رأى عينيه المتعصبتين، وقشرة الوساخة التي تغطي جسده، ولكن آنخل سانتشيث أوضح أنه لم يعد بالإمكان عمل الكثير من أجل الجريح، وأن أي شيء يستطيع الساحر عمله ـ ولو كان مجرد مساعدة المصاب على الموت ـ هو أفضل من لاشيء. أمر القومندان رجاله بأن يخفضوا أسلحتهم وأن يلتزموا الصمت، حتى يتمكن ذلك الحكيم الغريب وشبه العاري من ممارسة مهنته دون عقبات.

بعد ساعتين من ذلك كانت الحمى قد تلاشت وتمكن الزنجي ريفاس من ابتلاع جرعة ماء. في اليوم التالي رجع المداوي وكرر العلاج. وعند الغروب كان المريض جالساً يأكل حساء ذرة كثيفاً، وبعد يومين بدأ يجرب خطواته الأولى حول المكان، بينما الجرح في أوج عملية الشفاء. وبينما كان المقاتلون الآخرون يراقبون تقدم حالة الناقه، كان آنخل سانتشيث يجوب المنطقة مع الساحر لجمع الأعشاب في جعبته. وبعد سنوات من ذلك توصل الزنجي ريفاس إلى أن يكون قائداً للشرطة في العاصمة، ولم يعد يتذكر أنه كان على وشك الموت إلا كلما خلع قميصه ليعانق امرأة جديدة، لأن كل واحدة منهن كانت تسأله عن تلك الندبة المخيطة التي تقسمه إلى نصفين.

❖ ❖ ❖

ـ إذا كان هندي عارٍ قد أنقذ حياة الزنجي ريفاس، فأنا سأنقذ حياة إستير لوثيرو، ولهذا يجب أن أعقد حلفاً مع الشيطان ـ هكذا قال آنخل سانتشيث بينما هو تجول في بيته بحثاً عن الأعشاب التي خبأها طوال تلك

السنوات، وكان قد نسيها تماماً حتى تلك اللحظة. وجدها ملفوفة بورقة جريدة، وكانت ناشفة ومكسرة في قعر صندوق مخلع، إلى جوار دفتر أشعار، وقبعته وتذكارات أخرى من زمن الحرب.

رجع الطبيب إلى المستشفى راكضاً وكأنه مُطَارَد تحت الحر الرصاصي الذي يُذيب الإسفلت. صعد الأدراج قافزاً ودخل غرفة إستير لوثيرو متضمخاً بالعرق. رأته الجدة والممرضة المناوبة يمر راكضاً فاقتربتا من كوة الباب. ورأتا كيف بدأ بخلع روبه الأبيض، وقميصه القطني، وبنطاله الأسود، وجوربه المشترى من التهريب وحذائه ذي النعل المطاطي الذي ينتعله على الدوام. ورأتاه كذلك، وهما مذعورتان، يخلع سرواله الداخلي ويبقى عارياً تماماً مثل مجند.

هتفت الجدة:

ـ يا قديسة مريم، يا أم الرب!

ومن خلال كوة الباب استطاعتا رؤية الطبيب وهو يحرك السرير إلى منتصف الغرفة، و يضع كلتا يديه على رأس إستير لوثيرو لبضع ثوانٍ، ويبدأ رقصة هستيرية حول المريضة. كان يرفع ركبتيه حتى تلامسا صدره، ويقوم بانحناءات عميقة، ويهز ذراعيه، مرفقاً ذلك بحركات بدائية، ولكن دون أن يفقد لحظة واحدة الإيقاع الداخلي الذي يضع أجنحة لقدميه. ولم يتوقف طوال نصف ساعة عن الرقص مثل مجنون، متفادياً اسطوانات الأوكسجين وقوارير المصل المعلقة. ثم أخرج بعد ذلك أوراقاً جافة من جيب روبه، ووضعها في جفنة، وسحقها بقبضته إلى أن تحولت إلى بودرة خشنة فبصق عليها بغزارة، وخلط كل ذلك ليحوله إلى عجينة ثم اقترب من المحتضرة. رأته المرأتان ينزع الضمادات، ومثلما

ذكرت الممرضة في تقريرها، فقد راح يدهن الجرح بذلك الخليط المقرف، دون أدنى اعتبار لقواعد التعقيم أو لعرضه عورته على المكشوف. وبعد انتهاء العلاج سقط الرجل جالساً على الأرض وهو مستنفد تماماً، ولكنه كان مشرقاً بابتسامة قديس.

لو لم يكن الدكتور آنخل سانتشيث مديراً للمستشفى، وبطلاً لاجدال فيه من أبطال الثورة، لكانوا ألبسوه قميص المجانين ونقلوه دون مساءلة إلى مستشفى الأمراض العقلية. ولكن أحداً لم يتجرأ على خلع الباب الذي أقفله هو من الداخل بالمزلاج، وحين اتخذ العمدة قرار خلع الباب بمساعدة رجال المطافئ، كانت قد مضت أربع عشرة ساعة، وكانت إستير لوثيرو تجلس على السرير مفتوحة العينين، تتأمل بمرح عمها آنخل الذي كان قد خلع ثيابه مرة أخرى وبدأ مرحلة العلاج الثانية برقصات طقوسية جديدة. بعد يومين من ذلك، حين وصلت لجنة وزارة الصحة المرسلة خصيصاً من العاصمة، كانت المريضة تتمشى في الممر وهي تستند إلى ذراع جدتها، وكان كل أهالي القرية يمرون في الطابق الثالث ليشاهدوا الصبية التي انبعثت، ومدير المستشفى الذي كان يرتدي ملابسه بدقة لا تشوبها شائبة وهو يستقبل زملاءه الأطباء وراء مكتبه. امتنعت اللجنة عن السؤال عن تفاصيل رقصات الطبيب غير المألوفة، وكرست كل اهتمامها للتقصي عن أعشاب الساحر العجيبة.

لقد انقضت بضع سنوات منذ سقوط إستير لوثيرو عن شجرة المانغا. وقد تزوجت الشابة من راصد جوي وانتقلت إلى العاصمة، حيث أنجبت طفلة لها عظام رخامية وعينان سوداوان. وكانت تبعث بين الحين والآخر لعمها آنخل بطاقات شوق ملطخة بفظاعات إملائية. ونظمت وزارة الصحة أربع حملات للبحث عن الأعشاب العجيبة في الغابة، دون أن تصيب أي

نجاح. فقد التهمت الخضرة القرية الهندية، والتهمت معها الأمل بدواء علمي ضد الحوادث القاتلة.

بقي الدكتور آنخل سانتشيث وحده، دون رفيق سوى صورة إستير لوثيرو التي تزوره في غرفته في وقت القيلولة، حارقة روحه في قصف ماجن أبدي. وقد اتسعت شهرة الطبيب كثيراً في المنطقة كلها، لأنهم كانوا يسمعونه وهو يتكلم إلى الكواكب بلغات السكان الأصليين.

ماريا المجنونة

كانت ماريا المجنونة تؤمن بالحب. وقد جعل منها ذلك أسطورة حية. فقد توافد إلى جنازتها جميع الجيران، بما في ذلك الشرطيون والأعمى صاحب الكشك الذي لا يغادر محله إلا نادراً. أقفر شارع ريبوبليكا تماماً، وعلقوا شرائط سوداء على الشرفات، وأطفؤوا المصابيح الحمراء في البيوت في إشارة إلى الحداد. كل شخص له قصة، والقصص في هذا الحي حزينة على الدوام تقريباً، إنها قصص الفقر والجور المتراكم، والعنف المؤلم، قصص الأبناء الميتين قبل أن يولدوا والأحباء الذين يمضون، ولكن قصة ماريا كانت مختلفة، لها بريق أنيق يدفع مخيلة الآخرين إلى التحليق. لقد تدبرت أمورها لتمارس مهنتها وحدها، فكانت تدير عملها بنفسها بتكتم ودون صخب. ولم يراودها قط أي فضول تجاه الكحول أو المخدرات، بل إنها لم تكن تولي اهتماماً بقراءات الحظ التي كانت تبيعها متنبئات الجوار بخمسة بيزوات. كانت تبدو وكأنها بمنجى من عذابات الأمل، محمية بحبها المختَرع. لقد كانت امرأة ضئيلة ذات مظهر مسالم، قصيرة القامة، ذات تقاطيع وحركات ناعمة، وكل ما فيها ينم عن الوداعة والرقة، ولكن في كل مرة يحاول أحد القوادين أن يلمسها، يجد نفسه أمام وحش ضارٍ مزبد، لأنها تتحول عندئذ إلى مخالب وأنياب وحسب، وتكون مستعدة لرد أي صفعة توجه إليها. هكذا كانت تمضي حياتها. وقد تعلموا أن يتركوها بسلام. وبينما كانت النساء الأخريات يقضين حياتهن في إخفاء تجاعيدهن بأصبغة رخيصة، كانت هي تهرم بوقار، وبمظهر ملكة ترتدي الأسمال. لم

تكن تعي شهرة اسمها ولا الأسطورة التي نسجت حولها. لقد كانت مومساً هرمة لها روح صبية بتول.

كانت تمثل في ذاكرتها بإلحاح صورة صندوقٍ قاتل ورجل أسمر له رائحة بحر، وهكذا اكتشفت صديقاتها فتات حياتها قطعة قطعة، ثم جمعن ذلك الفتات بصبر، وأضفن إليه من مخيلتهن ما كان ينقصه إلى أن أعادوا بناء ماض لها. لم تكن بكل تأكيد مثل نساء ذلك المكان الأخريات. فهي آتية من عالم ناءٍ حيث للون البشرة قيمة أكبر، وحيث تُنطق اللغة القشتالية بنبرة مفخمة وتخرج الأحرف الصوتية بقسوة أشد. لقد ولدت لتكون سيدة عظيمة، وهذا ما استنتجته النساء الأخريات من طريقتها الانتقائية في الحديث وآدابها الغريبة في السلوك، وإذا ما كانت هناك أي شكوك حول ذلك، فإنها قد تلاشت كلها بموتها. فقد غادرت الدنيا بكامل وقارها. فلم تعاني من أي داء معروف، ولم تكن خائفة ولم تتنفس من أذنيها مثلما يفعل المحتضرون العاديون، بل أعلنت بكل بساطة أنها لم تعد تطيق ضجر بقائها على قيد الحياة، فلبست فستان الحفلات، وطلت شفتيها بالأحمر وفتحت ستائر المشمع التي تحجب غرفتها، لكي يتمكن الجميع من مرافقتها.

وكان توضيحها الوحيد هو قولها:

- الآن حان موعد موتي.

استلقت في سريرها وظهرها يستند إلى ثلاث وسائد ذات أكياس منشاة كانت تحتفظ بها خصيصاً لهذه المناسبة، وشربت في نَفَسٍ واحد إبريقاً كبيراً من الشيكولاتة الكثيفة. ضحكت النساء الأخريات من ذلك، ولكن عندما لم يجدن طريقة لإيقاظها بعد أربع ساعات، أدركن أن قرارها كان حازماً فأطلقن الصوت في الحي كله. جاء البعض بدافع الفضول فقط، ولكن الأغلبية حضروا بغم حقيقي، وبقوا هناك لمرافقتها.

أعدت صديقاتها قهوة لتقديمها إلى الحاضرين، إذ بدا لهن أنه من غير المناسب تقديم الخمر، حتى لا يحسبوا ما يجري احتفالاً. وفي حوالى الساعة السادسة مساء، أصيبت ماريا بارتعاشة، ففتحت عينيها ونظرت فيما حولها دون أن تميز الوجوه، ثم غادرت هذه الدنيا على الفور. كان هذا هو كل شيء. ألمح أحدهم إلى أنها ربما تكون قد ابتلعت سماً مع الشيكولاتة، وفي هذه الحالة سيكونون جميعهم مذنبين لأنهم لم ينقلوها إلى المستشفى في الوقت المناسب، ولكن أحداً لم يعر اهتماماً إلى تلك التقولات.

وقالت سيدة البيت:

ـ إذا كانت ماريا قد قررت الرحيل، فهذا من حقها، لأنه ليس لديها أبناء ولا أبوان لترعاهم.

لم يشاؤوا السهر على جثمانها في قاعة جنائزية، لأن السكون المتعمد لموتها كان حدثاً مهيباً في شارع ريبوبليكا، وكان من العدل أن تنقضي ساعاتها الأخيرة قبل مواراتها تحت التراب في الأجواء التي عاشتها، وليس كغريبة لا يريد أحد أن يتحمل مسؤولية مأتمها. وكانت هناك آراء تقول إن السهر على موتى في ذلك البيت يجلب سوء الطالع لروح المتوفاة أو أرواح الزبائن، وتحسباً لذلك كسروا مرآة ليحيطوا بفتاتها التابوت وأحضروا ماء مقدساً من كنيسة الدير لرش أركان البيت به. توقف العمل في المحل تلك الليلة، ولم يكن هناك موسيقى ولا ضحك، ولكن لم يكن هناك بكاء أيضاً. وضعوا التابوت فوق طاولة في الصالة، وأحضر الجيران كراسي جلس عليها المعزون ليشربوا القهوة ويتحدثوا بأصوات خافتة. كانت ماريا في الوسط، رأسها يستند إلى وسادة من المخمل ويداها متقاطعتان وصورة طفلها الميت فوق صدرها. وفي أثناء الليل راح لون بشرتها يتبدل إلى أن أصبح قاتماً بلون الشيكولاتة.

عرفتُ قصة ماريا خلال تلك الساعات الطويلة التي أمضيناها في السهر على التابوت. روت زميلاتها أنها ولدت في زمن الحرب العالمية الأولى، في إقليم في جنوبي القارة، حيث تفقد الأشجار أوراقها في منتصف السنة وحيث ينخر البرد العظام. كانت ابنة عائلة مهاجرين اسبان متكبرين. ولدى البحث في غرفتها وجدوا في علبة بسكويت بعض الأوراق المصفرة والمتكسرة، بينها شهادة ميلاد وصور ورسائل. كان أبوها يملك مزرعة، وكانت أمها قبل الزواج عازفة بيانو، حسب قصاصة جريدة حائلة اللون لطول العهد. وحين كانت ماريا في الثانية عشرة من عمرها، اجتازت وهي ساهية تقاطع سكة حديدية وصدمها قطار شحن. سحبوها من بين خطي السكة الحديد دون أي إصابات ظاهرة، فقد كانت مصابة ببعض الخدوش فقط، وفقدت في الحادث قبعتها. ومع ذلك، فقد تأكد للجميع فيما بعد أن الصدمة قد نقلت الطفلة إلى حالة من السذاجة لن يكون بالإمكان أن تعود منها. لقد نسيت حتى المعارف المدرسية الأساسية التي كانت قد تعلمتها قبل الحادث، وكانت لا تكاد تتذكر إلا بعض دروس البيانو واستعمال إبرة الخياطة، وعندما كانوا يكلمونها تقف ذاهلة وكأنها غير موجودة. ولكنِ ما لم تنسه بالمقابل، هو قواعد التحضر التي حافظت عليها حتى اليوم الأخير من حياتها.

لقد خلفت صدمة القاطرة ماريا عاجزة عن المحاكمة العقلية والاهتمام والغضب. فكانت بالتالي مزودة بكل ما يلزم للسعادة، ولكن قدرها لم يكن كذلك. فحين أتمت السادسة عشرة من عمرها، قرر أبواها الراغبان في نقل مسؤولية ابنتهما المتخلفة بعض الشيء إلى شخص آخر، أن يزوجاها قبل أن يذوي جمالها، واختارا لذلك الدكتور غيفارا، وهو رجل يعيش حياة متقاعد وليس لديه استعداد للزواج، ولكنه كان مديناً لهما ببعض المال ولم يستطع أن يرفض عندما عرضا عليه الاقتران

بها. في تلك السنة بالذات أقيمت حفلة زفاف خاصة ومحدودة، لأنه زفاف عروس مجنونة وعريس يكبرها بعدة عقود.

وصلت ماريا إلى مخدع الزوجية بذهن طفلة صغيرة، بالرغم من أن جسدها كان قد نضج وصار جسد امرأة. لقد ذهب القطار بفضولها الطبيعي، ولكنه لم يستطع أن يدمر جزء حواسها. لم يكن بحوزتها إلا ما تعلمته من مراقبة الحيوانات في المزرعة، فكانت تعرف أن الماء البارد ينفع لفصل كلبين حين يلتحمان في موسم السفاد، وأن الديك ينفش ريشه ويصيح عندما يريد أن يطأ الدجاجة، ولكنها لم تجد استخداماً مناسباً لهذه المعلومات. وفي ليلة زفافها تلك رأت عجوزاً مرتعشاً يتقدم نحوها وهو يرتدي روباً مفتوحاً من الفانيلا، وكان هناك شيء لا تعرف كنهه تحت سرته. وقد سببت لها المفاجأة حالة إمساك لم تتجرأ على التكلم عنه، وعندما بدأت تنتفخ مثل بالون شربت عبوة من "ماء الأقحوان - وهو دواء مضاد للتشنجات ومقوٍ، ينفع مليناً إذا أُخذ بكميات كبيرة - وبسبب ذلك بقيت تجلس على مبولة لاثنين وعشرين يوماً، وهي في حالة إسهال كادت معها أن تفقد بعض أجهزتها الحيوية، ولكن ذلك كله لم يستطع تنفيس انتفاخها. وسرعان ما لم تعد قادرة على إحكام أزرار ملابسها، ثم أنجبت في موعدها المحدد طفلاً أشقر. وبعد أن أمضت شهراً في الفراش، كانت تتغذى في أثنائه بمرق الدجاج ولترين من الحليب يومياً، نهضت وهي أكثر قوة وصفاء مما كانت عليه طوال حياتها. بدت وكأنها قد شفيت من حالة الذهول الدائمة، بل وكانت لديها الحماسة لتشتري لنفسها ثياباً أنيقة؛ ولكنها لم تتمكن مع ذلك من ارتداء ملابسها الجديدة، لأن السيد غيفارا أصيب بنوبة صاعقة ومات وهو جالس في المطبخ وملعقة الحساء في يده. وأذعنت ماريا لطلب ارتداء ملابس الحداد مع قبعة ذات خمار،

وارتضت العيش مدفونة في قبر من القماش. وهكذا أمضت سنتين من السواد كانت تحوك خلالهما كنزات للفقراء، وتتسلى مع كلابها وابنها الذي كانت تسرح له شعره بتجعيده وتُلبسه ثياب البنات، مثلما يظهر في واحدة من الصور التي عُثر عليها في علبة البسكويت، حيث يمكن رؤيته جالساً فوق جلد دب ومضاءً بشعاع غير طبيعي.

لقد توقف الزمن بالنسبة إلى الأرملة في لحظة أبدية، صار هواء الغرف ثابتاً، له رائحة القِدَم العريقة نفسها التي خلّفها الزوج. واصلت العيش في البيت نفسه، يرعاها خدم مخلصون ويحرسها عن قرب أبوها واخوتها الذين صاروا يتناوبون على زيارتها يومياً ليراقبوا مصروفاتها ويتخذوا بدلاً منها حتى أدنى القرارات. وكانت تمر الفصول، وتسقط أوراق أشجار الحديقة، وتعود طيور الكوليبري الصيفية للظهور، دون أي تبدل في الروتين. كانت تتساءل أحياناً عن سبب ملابسها السوداء، لأنها نسيت زوجها الهرم الذي عانقها بوهن في مناسبتين تحت شراشف الكتان، ثم كان لا يلبث أن يندم بعد ذلك على شبقه، فيرتمي عند قدمي تمثال السيدة العذراء ويجلد نفسه بمقرعة حصان. وكانت بين الحين والآخر تفتح الخزانة لتنفض الملابس ولا تقاوم إغراء التجرد من ملابسها القاتمة لتجرب خفية الأثواب المطرزة بأحجار كريمة، ومعاطف الفراء، وأحذية الجلد اللماع وقفازات جلد الجدي. وكانت تتأمل نفسها في المرآة ثلاثية الأجزاء وتحيي تلك المرأة المتبرجة لحفلة رقص والتي تجد صعوبة في التعرف فيها على نفسها.

بعد سنتين من الوحدة أصبح اندفاع خرير الدم في جسدها لا يطاق. فكانت تتأخر عند باب الكنيسة في أيام الآحاد لترى مرور الرجال، تجتذبها نبرة أصواتهم الخشنة، وخدودهم الحليقة ورائحة التبغ التي تفوح منهم. وكانت ترفع الخمار عن وجهها بمداراة وتبتسم لهم. ولم يلبث والدها

وأخوتها أن انتبهوا إلى ذلك، ولاقتناعهم بأنه يمكن لهذه الأراضي أن تُفسد حتى وقار الأرامل، فقد قرروا في مجلس عائلي أن يبعثوا بها إلى أعمامها في اسبانيا، حيث تكون دون ريب في منجى من إغراءات الطيش، ومحمية بالتقاليد الراسخة وسلطة الكنيسة. وهكذا بدأت الرحلة التي بدلت مصير ماريا المجنونة.

أرسلها أبواها بحراً في عابرة محيطات برفقة ابنها وخادمتها وكلابها. وكانت الأمتعة المعقدة تضم فضلاً عن البيانو وأثاث غرفة نوم ماريا، بقرة وضعت في قاع السفينة لتأمين الحليب الطازج للطفل. وبين الحقائب وعلب القبعات الكثيرة كان هناك صندوق ضخم له زوايا مرصعة بمسامير برونزية يضم ملابس الحفلات الناجية من النفتالين. لم تكن الأسرة تفكر في أن ماريا ستجد أي فرصة لاستخدام تلك الملابس في بيت أعمامها، ولكنهم لم يشاؤوا معارضتها. لم تستطع المسافرة مغادرة سريرها في الأيام الثلاثة الأولى لأن دوار البحر كان ينهكها، ولكنها اعتادت أخيراً على اهتزاز المركب وتمكنت من النهوض. وعندئذ طلبت من الخادمة أن تساعدها على إخراج الملابس من الحقائب لاستخدامها في الرحلة البحرية الطويلة.

لقد كانت حياة ماريا موسومة بنكبات مفاجئة، مثل ذلك القطار الذي انتزع روحها وأعادها إلى طفولة لا رجعة منها. فبينما كانت ترتب الملابس في خزانة قمرتها، أطل الطفل إلى داخل الصندوق المفتوح. وفي لحظة واحدة أطبق اهتزاز السفينة غطاء الصندوق الثقيل فجأة، وهوى حده المعدني على رقبة الصغير فقطعها. وكان لابد من جهود ثلاثة بحارة ليبعدوا الأم عن الصندوق الملعون، وإعطائها جرعة لودانوم تكفي لتخدير رياضي متين ليمنعوها من انتزاع شعرها في خصل كبيرة ومن تمزيق

وجهها بأظفارها. أمضت ساعات وهي تنتحب، ثم دخلت بعد ذلك في حالة غسقية كانت تترنح خلالها من جهة إلى أخرى، مثلما كانت في الزمن الذي اكتسبت فيه سمعتها كمجنونة. أعلن القبطان عن حادثة الشؤم الجديدة عبر مكبر الصوت، وقرأ صلاة جناز قصيرة ثم أمر بلف الجثة الصغيرة بعلم وإلقائها إلى البحر، لأنهم أصبحوا في عرض المحيط وليس لديهم مكان لحفظ الجثة ريثما يصلون إلى الميناء التالي.

بعد عدة أيام من المأساة، خرجت ماريا بخطوات مترددة لكي تشم الهواء للمرة الأولى على سطح المركب. كانت ليلة دافئة، وكانت تتصاعد من قاع البحر رائحة مقلقة لطحالب وقواقع وسفن غارقة نفذت من أنفها وذرعت أوردتها بمفعول هزة أرضية. وكانت تنظر إلى الأفق وذهنها خال تماماً وبشرتها مزبئرة من كعبيها وحتى عنقها، حين سمعت صفيراً لجوجاً، وعندما التفتت اكتشفت تحتها بطابقين وجود ظل يضيئه القمر ويلوح لها. نزلت الأدراج وهي غائبة عن الوعي، ودنت من الرجل الأسمر الذي كان يومئ لها، واستسلمت بإذعان لخلع طرحتها وملابس الحداد، ورافقته إلى ما وراء لفافة ضخمة من الحبال. وحين أحست بصدمة شبيهة بصدمة القطار، عرفت في أقل من ثلاث دقائق ما هو الفرق بين زوج عجوز، مستنفد بخوفه من الرب، وبحار يوناني متأجج لا يرتوي بعد أسابيع من الحرمان في المحيط. اكتشفت المرأة المذهولة إمكاناتها الخاصة، فمسحت دموعها وطلبت منه المزيد. أمضيا جزءاً من الليل وهما يتعارفان، ولم ينفصلا أحدهما عن الآخر إلا عندما سمعا صفارة الإنذار، وعكرت سكون الأسماك ضجة غرق رهيبة. فالخادمة التي ظنت أن الأم المفجوعة قد ألقت بنفسها في البحر، أطلقت صوت الإنذار، واندفع جميع البحارة ـ باستثناء اليوناني ـ للبحث عنها.

واصلت ماريا اللقاء مع عشيقها وراء الحبال كل ليلة إلى أن اقتربت

السفينة من شواطئ الكاريبي، وجاء أريج الزهر والثمر الحلو الذي حمله النسيم ليبلبل الحواس. وعندئذ وافقت على اقتراح رفيقها بمغادرة السفينة، حيث يتألم شبح الطفل الميت، وحيث توجد عيون كثيرة تترصدهما، فدست نقود الرحلة تحت تنورتها وودعت ماضيها كسيدة محترمة. أنزلا أحد الزوارق واختفيا عند الفجر تاركين الخادمة والكلاب والبقرة والصندوق القاتل على متن السفينة. جذف الرجل بذراعي البحار القويتين نحو مرفأ رائع برز لعينيهما على ضوء الفجر مثل رؤيا من عالم آخر ببيوته الريفية وطيوره الملونة. وهناك استقر الهاربان معاً طوال الوقت الذي دامه احتياطيهما من النقود.

تكشف البحار عن عربيد وسكير. وكان يتكلم بمزيج لغات لا تفهمه ماريا ولا سكان ذلك المكان، ولكنه كان يتوصل إلى التفاهم بالمداعبات والابتسامات. ولم تكن هي تنتعش إلا عندما يأتي ليمارس معها البهلوانيات التي كان قد تعلمها في كل مواخير العالم، بدءاً من سنغافورة وحتى بالبارايسو، أما بقية الوقت فكانت تقضيه في خمود قاتل. وبينما هي تستحم في عرق ذلك المناخ، تعلمت المرأة ممارسة الحب دون رفيق، مغامرة وحدها في ارتياد مجالات هذيانية بجرأة من لا تعرف المخاطر. ولم يكن لدى اليوناني قدرة على الحدس ليدرك أنها قد اهتدت إلى فتح باب جديد، وأنه لم يكن إلا مجرد أداة الوحي، ولم يستطع بالتالي أن يقدر قيمة الهدية التي قدمها إلى تلك المرأة. كان يرى إلى جانبه مخلوقة هاجعة في ليمبو البراءة الأبدية، مصممة على استكشاف حواسها بقابلية شبل لعوب، ولكنه لم يستطع مجاراتها. أما هي فلم تكن قد عرفت متعة اللذة من قبل، بل ولم تكن قد تخيلتها، بالرغم من أنها كانت تحملها في دمها مثل جرثومة حمى حارقة. وحين اكتشفت ذلك افترضت أنه السعادة السماوية التي طالما وعدت

راهباتُ المدرسة الطالباتِ بالحصول عليها في عالم الغيب. لقد كانت تعرف القليل جداً عن الدنيا، وكانت عاجزة عن النظر إلى خريطة لتحديد موقع وجودها على الكوكب، ولكنها حين رأت الببغاوات والطيور الملونة ظنت أنها في الفردوس واستعدت لتستمتع بذلك. ليس ثمة من يعرفها هناك، وهي ستتصرف على هواها لأول مرة، بعيداً عن بيتها، وعن وصاية أبويها وأخوتها غير المفهومة، وعن الضغوط الاجتماعية وعن خمار القداس، إنها حرة في نهاية المطاف لتتذوق تيار الانفعالات الذي يولد في جلدها ويتغلغل في ذبذبات حتى أعمق كهوفها، حيث ينقلب شلالاً يخلّفها مستنفدة وسعيدة.

افتقار ماريا إلى الخبث، وعدم إدراكها للخطيئة أو المذلة بعث الهلع في قلب البحار. فأصبحت الفواصل بين المعانقات تزداد طولاً، وصار تغيب الرجل يتزايد، ونما الصمت بين الاثنين. حاول اليوناني الهرب من تلك المرأة ذات الوجه الطفولي التي تستدعيه دون توقف وهي مبتلة ومندفعة ومتأججة، مقتنعاً بأن الأرملة التي أغواها في عرض البحر قد تحولت إلى عنكبوت خبيث ستلتهمه مثل ذبابة في فوضى السرير. وعبثاً بحث عن تهدئة لرجولته المحبطة في مداعبة المومسات والتشاجر بالسكاكين مع الزعران والقوادين، والمراهنة في مصارعات الديوك بما يزيد لديه بعد السكر. وحين وجد جيوبه فارغة، تمسك بهذه الحجة ليختفي نهائياً. انتظرته ماريا بصبر لعدة أسابيع. وكانت تعرف من المذياع أحياناً أن بحاراً فرنسياً منشقاً عن سفينة بريطانية، أو هولندياً هارباً من سفينة برتغالية قد قُتل مطعوناً في أحياء الميناء الهائجة، ولكنها كانت تسمع الخبر دون تأثر، لأنها تنتظر يونانياً هارباً من عابرة محيطات إيطالية. وحين لم تعد قادرة على تحمل حرارة عظامها ولهفة روحها، خرجت لتطلب المواساة من أول رجل تقابله. وقد أمسكت بيده وطلبت منه بأكثر الأساليب تهذباً ولباقة بأن يعمل معروفاً

ويتعرى من أجلها. تردد الرجل المجهول قليلاً حيال تلك الشابة التي لا تشبه في شيء المحترفات اللواتي يعملن في الجوار، ولكن استعدادها كان واضحاً جداً على الرغم من لغتها غير المعهودة. وقدر أنه يستطيع قضاء عشر دقائق من وقته معها، وتبعها دون أن يخطر بباله أنه سيجد نفسه غارقاً في دوامة عاطفة صريحة. ولشدة ذهوله وتأثره راح يروي ذلك للجميع، بعد أن ترك لماريا ورقة نقدية فوق الطاولة. وسرعان ما جاء آخرون ممن اجتذبتهم الهمسات المتداولة عن امرأة قادرة على بيع وهم الحب للحظة. وكان جميع الزبائن ينصرفون راضين. وهكذا تحولت ماريا إلى أشهر مومس في الميناء، فنقش البحارة اسمها وشماً على سواعدهم ليعرّفوا به في بحار أخرى إلى أن جابت الأسطورة الكوكب كله.

لقد عمل الزمن والفقر والجهد في مداراة خيبة الأمل عمله في تدمير طزاجة ماريا. فتحولت بشرتها إلى اللون البني، ونحلت حتى العظام، ثم قصت شعرها مثل سجين من أجل مزيد من الراحة، ولكنها حافظت على أساليبها الراقية وعلى حماسها نفسه في كل لقاء مع رجل، لأنها لم تكن ترى فيهم أشخاصاً مجهولين، وإنما انعكاس لها نفسها بين ذراعي حبيب مُتخيَل. ولم تكن قادرة، في مواجهة الواقع، على فهم تسرع زميلها الشحيح المتبدل، لأنها كانت تسلم نفسها في كل مرة بالحب المندفع نفسه، متجاوزة رغبات الآخر مثل عروس جريئة. ثم اختلطت ذكرياتها مع التقدم في السن، فصارت تتكلم عن أشياء غير معقولة، وفي الفترة التي انتقلت فيها إلى العاصمة واستقرت في شارع ريبوبليكا، لم تعد تتذكر أنها كانت يوماً ربة الشعر التي ألهمت بحارة من كل الأعراق الكثير من الأشعار المرتجلة، فكانت تصاب بالذهول حين يسافر أحدهم من الميناء إلى العاصمة لكي يتأكد فقط إذا ما كانت ما تزال موجودة تلك التي

سمع عنها في مكان ما من آسيا. وحين يجد نفسه أمام هذه الجرادة البائسة، هذه الكومة من العظام المؤثرة، هذه المرأة الضئيلة التي لا تساوي شيئاً، حين يرى الأسطورة وقد تحولت إلى أنقاض، كان كثيرون منهم يدورون على أعقابهم ويرجعون مشوشين، ولكن آخرين كانوا يبقون بدافع الشفقة. وهؤلاء هم الذين كانوا يتلقون جائزة غير منتظرة. فقد كانت ماريا تغلق ستائر المشمع فيتبدل على الفور جو الغرفة. وفيما بعد ينصرف الرجل مأخوذاً وهو يحمل في ذاكرته صورة صبية أسطورية وليس صورة العجوز المحزنة التي ظن أنه رآها في البدء.

راح الماضي يتلاشى من ذاكرة ماريا ـ وكانت الذكرى الوحيدة الصافية في ذهنها هي خوفها من القطارات والصناديق ـ ولولا عناد زميلاتها في المهنة، ما كان أحد سيعرف قصتها. لقد عاشت منتظرة اللحظة التي ستفتح بها ستارة غرفتها ليدخل إليها البحار اليوناني، أو أي شبح آخر تصوره مخيلتها، ليأخذها في دائرة ذراعيه الدقيقة ويعيد إليها اللذة التي تقاسمتها وإياه على سطح سفينة في عرض البحر، باحثة على الدوام عن الوهم القديم في كل رجل عابر، ومضاءة بحب متخيل، ومخادعة الظلال بمعانقات هاربة كالوميض، وبشرر يُستنفد قبل أن يتأجج، وعندما ملت الانتظار غير المجدي وأحست أن روحها أيضاً بدأت تتغطى بالحراشف، قررت أنه من الخير لها أن تغادر هذه الدنيا. ولجأت عندئذ إلى إبريق الشيكولاتة بالرقة والوقار نفسيهما اللذين كانت تمارس بهما كل أعمالها.

زوجة القاضي

كان نيكولاس بيدال يعرف منذ الأزل أنه سيفقد حياته بسبب امرأة. لقد تنبؤوا بذلك في يوم مولده، ثم أكدته صاحبة المتجر في المرة الوحيدة التي سمح لها فيها برؤية طالعه في بقايا القهوة، ولكنه لم يتصور مطلقاً أن تكون تلك المرأة هي كاسيلدا زوجة القاضي هيدالغو. لقد لمحها أول مرة في اليوم الذي وصلت فيه إلى القرية لتتزوج. ولم يجدها يومئذ جذابة، لأنه كان يفضل النساء المستهترات والسمراوات، أما هذه الشابة الشفافة في ثياب السفر، ذات النظرة الزائغة والأصابع النحيلة غير النافعة لإمتاع رجل، فقد بدت له رخوة مثل حفنة رماد. ولأنه كان يعرف قدره جيداً، فقد بقي حذراً من النساء، وظل طوال حياته يتهرب من أي علاقة عاطفية، فجف قلبه من الحب واكتفى بلقاءات سريعة لكي يخدع الوحدة. لقد بدت له كاسيلدا تافهة جداً وبعيدة المنال لدرجة أنه لم يفكر فيها، ولكنه حين حانت لحظة النبوءة نسي أنها كانت حاضرة دائماً في قراراته. فمن سطح البناء الذي قبع فوقه مع اثنين من رجاله، راقب الآنسة الآتية من العاصمة حين نزلت من العربة في يوم زفافها. جاءت برفقة نصف دزينة من أقربائها، وهم أناس لا يقلون عنها شحوباً ورقة، حضروا حفلة الزفاف وهم يهوّون بمزاج تفجع واضح، ثم غادروا لكي لا يعودوا مطلقاً.

فكر بيدال مثل جميع أهل القرية بأن العروس لن تتحمل قسوة المناخ، وأنه سيتعين على الجارات بعد وقت قصير أن يهيئن مأتمها. وإذا تحقق ما هو غير محتمل واستطاعت مقاومة الحر والغبار الذي ينفذ من الجلد

ويستقر في الروح، فليس ثمة شك في أنها ستقضي نحبها أمام سوء طباع زوجها ونزواته كرجل عانس. كان عمر القاضي هيدالغو ضعف عمرها، وقد أمضى سنوات حياته وهو ينام وحيداً، حتى إنه لم يكن يعرف من أين يبدأ في إسعاد امرأة. وكان جميع أهل المقاطعة يخشون طبعه القاسي وعناده في تطبيق القانون، حتى ولو كان ذلك على حساب العدالة. وكان يجهل في أثناء ممارسة وظيفته دوافع النوايا الطيبة، ويعاقب بالصرامة نفسها من يسرق دجاجة ومن يرتكب عملية قتل مع سبق الاصرار. وكان يرتدي السواد الصارم لكي يعرف الجميع وقار منصبه، وعلى الرغم من غبار هذه القرية الدائم الذي لا أمل في الخلاص منه، فقد كان ينتعل على الدوام جزمة ملمعة بشمع النحل. فكانت النساء الفضوليات يعلقن قائلات: مثل هذا الرجل لم يخلق ليكون زوجاً. ومع ذلك لم تتحقق النبوءات المشؤومة عن ذلك الزواج، بل على العكس تماماً، فقد عاشت كاسيلدا متجاوزة ثلاث ولادات متتالية، وكانت تبدو سعيدة. ففي أيام الآحاد كانت تذهب مع زوجها إلى قداس الساعة الثانية عشرة، ثابتة الخطى تحت طرحتها الإسبانية التي لم يؤثر فيها هذا الصيف الدائم، فتبدو باهتة وصامتة مثل ظل. لم يسمعها أحد تقول شيئاً أكثر من تحية مقتضبة، ولم يروا من إيماءاتها أكثر من انحناء بالرأس أو ابتسامة عابرة، كانت تبدو وكأنها من مادة طيارة توشك على التلاشي في لحظة سهو. بل كانت تبدو وكأنها غير موجودة، ولهذا فوجئ الجميع لدى رؤية تأثيرها على القاضي الذي بدت التغيرات واضحة عليه.

صحيح أن هيدالغو بقي ظاهرياً على حاله، فظاً وعابساً، إلا أن قراراته في المحكمة تبدلت تبدلاً غريباً. فأمام دهشة الجمهور أطلق سراح صبي كان قد سرق مستخدِمه، وكانت حجة القاضي أن رب العمل كان

يدفع للصبي أجراً أقل مما يجب طوال ثلاث سنوات، وأن اختلاس المال هو طريقة للتعويض. كما أنه رفض معاقبة زوجة زانية بحجة أن الزوج لا يمتلك سلطة أخلاقية ليطالبها بالنزاهة والشرف إذا كانت لديه هو نفسه محظية. وبدأت ألسنة السوء في القرية تتهامس بأن القاضي هيدالغو ينقلب مثلما ينقلب قفاز فور تجاوزه عتبة بيته، فيخلع ملابس الوقار، ويلعب مع أبنائه، ويضحك ويُجلس كاسيلدا على ركبتيه، ولكن هذه الأقاويل لم تتأكد مطلقاً. وقد نُسبت تلك التصرفات الرحيمة على أي حال إلى زوجته مما حسّن من سمعتها، ولكن ذلك كله لم يكن يثير اهتمام نيكولاس بيدال، لأنه كان خارجاً على القانون، وكان واثقاً من أنه لن تكون هناك أية رحمة له حين يتمكنون من اقتياده مكبلاً ليمثل أمام القاضي. لم يكن يولي اهتماماً للأقاويل التي تدور حول دونيا كاسيلدا، وفي المرات القليلة التي رآها فيها من بعيد تأكد تقديره الأولي بأنها لم تكن إلا مجرد هباء غير واضح المعالم.

كان بيدال قد ولد قبل ثلاثين سنة من ذلك في حجرة بلا نوافذ في ماخور القرية الوحيد، ابناً لخوانا الحزينة من أب مجهول. لم يكن له مكان في هذا العالم، وأمه كانت تعرف ذلك، فحاولت أن تنتزعه من بطنها بالأعشاب، وبأعقاب الشمع، وحُقن ماء القلي ووسائل أخرى همجية، ولكن الجنين تشبث بالبقاء. وبعد سنوات من ذلك، أدركت خوانا الحزينة وهي ترى ذلك الابن المختلف جداً عن الآخرين، أن وسائل الإجهاض المشؤومة التي لم تستطع القضاء عليه، قد صلبت جسده وروحه حتى جعلته بقسوة الحديد. وما كادت القابلة ترفعه في يوم ميلاده لتتفحصه على ضوء قنديل حتى لاحظت على الفور أن له أربع حلمات في صدره، فتنبأت حسب خبرتها في هذا المجال:

- يا للمسكين، سيفقد حياته من أجل امرأة.

وقد أحاطت هذه الكلمات بالفتى مثل عاهة. وربما كانت حياته ستكون أقل بؤساً لو كان فيها حب امرأة. ولكي تعوضه أمه عن محاولاتها الكثيرة لقتله قبل أن يولد، انتقت له اسماً في منتهى البهاء وكنية راسخة اختارتها دون تعيين؛ ولكن ذلك الاسم الأميري لم يكن كافياً ليحميه من النذر المشؤومة، وقبل أن يكمل العاشرة من عمره كانت في وجهه ندوب جراح بسكاكين مشاجرات، وبعد قليل من ذلك تحول إلى حياة الهروب والتخفي. وفي العشرين صار زعيم عصابة رجال يائسين. عادات العنف أنمت قوة عضلاته، وأفقده الشارع الرحمة، وجاءت الوحدة التي حُكم عليه بها خوفاً من أن يضيع حباً، لتحدد تعبيرات عينيه. كان يمكن لأي واحد من أهالي القرية أن يقسم حين يراه بأنه ابن خوانا الحزينة، ولأنه مثلها، كان يملك حدقتين متضمختين بدموع لا يذرفها. وكلما أقدم على عمل شرير في المنطقة كان رجال الشرطة يخرجون مع الكلاب لاصطياد نيكولاس بيدال وإسكات احتجاجات المواطنين، ولكنهم يعودون صفر اليدين بعد القيام بعدة جولات في الجبال. الحقيقة أنهم لم يكونوا راغبين في العثور عليه لأنهم لا يستطيعون القتال مثله. وقد رسخت العصابة سوء سمعتها إلى حد اضطرت معه القرى والمزارع المجاورة إلى دفع إتاوة لاتقاء شرها. كان يمكن لتلك الإتاوات أن توفر لرجال العصابة حياة مريحة، ولكن نيكولاس بيدال كان يجبرهم على البقاء دائما فوق صهوات جيادهم، وسط عاصفة من الموت والأذى حتى لا يفقدوا حب الحرب ولا تُنتقص هيبتهم. ولم يكن هناك بينهم من يتجرأ على مواجهته.

لقد طلب القاضي هيدالغو من الحكومة في مناسبتين أن ترسل قوات

من الجيش لتعزيز شرطته، ولكن الجنود كانوا يعودون بعد بعض النزهات إلى ثكناتهم، ويعود قطاع الطريق إلى سيرتهم الأولى.

في مرة واحدة فقط أوشك نيكولاس بيدال على الوقوع في شِباك العدالة، ولكنه نجا بفضل قدرته على عدم التأثر والانفعال. فبعد أن ملّ القاضي هيدالغو من رؤية القوانين تداس، قرر أن يتخلى عن الوساوس الأخلاقية وينصب فخاً لقاطع الطريق. كان يعي أنه سيقدم على عمل فظيع في سبيل الدفاع عن العدالة، ولكنه اختار أهون الشرين. وكان الطُعم الوحيد الذي خطر بباله هو خوانا الحزينة، لأنه لم يكن لبيدال أقرباء آخرون، ولم يعرف عنه أن له علاقات غرامية. أخرج القاضي المرأة من الماخور، حيث كانت تمسح الأرض وتنظف المراحيض بعد أن لم يعد هناك زبائن مستعدون للدفع لها مقابل خدماتها، وحشرها في قفص صُنع على مقاسها، ثم وضعها في وسط ساحة السلاح دون أي شيء آخر سوى إبريق ماء.

قال القاضي:

- عندما ينفد الماء ستبدأ بالصراخ. وعندئذ سيأتي ابنها فأكون بانتظاره مع الجنود.

انتشر خبر هذه العقوبة المهجورة منذ زمن العبيد الهاربين، ووصل إلى أسماع نيكولاس بيدال قبل أن تشرب أمه آخر رشفات من الإبريق بقليل. رآه رجاله وهو يتلقى الخبر بصمت، دون أن يطرأ أي تبدل على قناعه الجامد كشخص متوحد، أوعلى إيقاعه الهادئ في شحذ سكينه على سير جلدي. لم تكن له أية اتصالات منذ سنوات مع خوانا الحزينة، ولم يكن يحتفظ كذلك ولو بذكرى سعيدة واحدة من طفولته، ولكن

المسألة لم تكن عاطفية، وإنما مسألة شرف. ليس هناك رجل واحد يمكنه أن يتحمل مثل هذه الإهانة، هكذا فكر قطاع الطريق بينما هم يجهزون أسلحتهم وخيولهم، مستعدين للذهاب إلى الكمين والتخلي فيه عن حياتهم إذا اقتضى الأمر. ولكن الزعيم لم يُبد أي تعجل.

وكلما كانت الساعات تمضي، كان التوتر يزداد بين الجماعة. كانوا يتبادلون النظرات فيما بينهم وهم يتعرقون دون أن يتجرؤوا على التفوه بأي تعليق، منتظرين بجزع وأيديهم على مسدساتهم، وعلى أعراف خيولهم، وعلى مقابض أنشوطاتهم. حلّ الليل وكان الوحيد الذي نام في المعسكر كله هو نيكولاس بيدال. وعند الفجر كانت آراء الرجال قد انقسمت إلى قسمين، فبعضهم يرى أنه أشد قسوة قلب من كل ما تصوروه سابقاً، ويرى آخرون أن زعيمهم يخطط لعمل استعراضي ضخم ينقذ به أمه. والشيء الوحيد الذي لم يخطر ببال أحد هو أن يكون مفتقراً إلى الجرأة، لأنه كان قد أظهر إفراطاً في امتلاكها. وعند الظهر لم يعد بإمكانهم تحمّل القلق وذهبوا إليه ليسألوه عما سيفعله. فقال:

ـ لا شيء.

ـ وأمك؟

فرد نيكولاس بيدال دون هم:

ـ فلننظر من هو الذي يملك بيضات أكبر، القاضي أم أنا.

في اليوم الثالث لم تعد خوانا الحزينة تطلب الرحمة ولا تتوسل قليلاً من الماء، لأن لسانها كان قد جف وكانت الكلمات تموت في حنجرتها قبل أن تولد، فكانت تتكور على أرضية قفصها بعينين زائغتين وشفتين متورمتين، تئن مثل حيوان في لحظات الصحو التي تسبق الموت وتحلم

بالجحيم في بقية الوقت. كان هناك أربعة حراس مسلحين يحرسون الأسيرة ليمنعوا الجيران من تقديم الماء لها. كانت حشرجاتها تخيم على القرية كلها، تنفذ من النوافذ المغلقة، تُدخلها الريح من الأبواب، وتبقى معلقة في الزوايا، تلتقطها الكلاب لتكررها نباحاً، فتنتقل عدواها إلى الأطفال حديثي الولادة وتطحن عظام كل من يسمعها. لم يستطع العمدة أن يمنع تجمع الناس في الساحة مشفقين على العجوز، ولم يتمكن كذلك من وقف إضراب المومسات التضامني الذي توافق مع عطلة عمال المناجم الخمس عشرية. وفي يوم السبت كانت الشوارع تغص بعمال المناجم الجلفين والمتلهفين لإنفاق مدخراتهم قبل أن يعودوا إلى الأنفاق، ولكن القرية لم تكن تقدم أي وسيلة لهو، اللهم إلا ذلك القفص وتلك الهمسات الآسية التي تنتقل من فم لفم، ابتداء من النهر وحتى الطريق الساحلي. تقدم الخوري على رأس جماعة من رعيته وذهبوا إلى القاضي هيدالغو ليذكروه بالرحمة المسيحية ويتوسلوا إليه أن يعفو عن هذه المرأة المسكينة البريئة ويخلصها من ميتة الشهداء، ولكن القاضي أقفل مكتبه ورفض الاستماع إليهم، مراهناً على أنه يمكن لخوانا الحزينة أن تتحمل يوماً آخر، وأن ابنها سيقع في الفخ. عندئذ قرر أعيان القرية التوجه إلى دونيا كاسيلدا.

استقبلتهم زوجة القاضي في صالون بيتها الظليل واستمعت إلى حججهم وهي صامتة، ونظرها مصوب إلى أسفل كعادتها. لقد تغيب زوجها عن البيت منذ ثلاثة أيام، فهو يرابط في مكتبه منتظراً نيكولاس بيدال بتصميم أخرق. ودون أن تطل هي من النافذة، كانت تعرف كل ما يجري في الشارع، لأن ضجة ذلك التوسل المديد كانت تصل كذلك إلى غرف بيتها الفسيحة. انتظرت دونيا كاسيلدا إلى أن غادر الزائرون، ثم

ألبست أبناءها ملابس يوم الأحد وخرجت معهم باتجاه الساحة. وكانت تحمل معها سلة طعام وإبريق ماء بارد لخوانا الحزينة. رآها الحراس تظهر عند الناصية وأدركوا نواياها، ولكنهم كانوا يملكون أوامر محددة، فقاطعوا بنادقهم أمامها، وعندما أصرت على التقدم أمام حشد آمل، أمسكها الحراس من ذراعيها لمنعها. عندئذ بدأ الأطفال بالصراخ.

كان القاضي هيدالغو موجوداً في مكتبه قبالة الساحة. وكان ساكن الحي الوحيد الذي لم يغلق أذنيه بالشمع، لأنه كان متيقظاً تماماً لوضع كمينه، مترصداً صوت خيول نيكولاس بيدال. لقد تحمل طوال ثلاثة أيام بلياليها نحيب ضحيته وشتائم الجيران المتجمعين أمام المبنى، ولكنه حين سمع أصوات أبنائه أدرك أنه قد وصل إلى أقصى حدود المقاومة. فخرج من بلاطة منهوكاً وبلحية غير حليقة، وبعينين محمومتين من السهر وبثقل هزيمته على كاهله. اجتاز الشارع، ودخل مربع الساحة، ودنا من زوجته. تبادلا النظرات بأسى. لقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تواجهه فيها خلال ست سنوات، وقد اختارت أن تفعل ذلك أمام القرية كلها. تناول القاضي هيدالغو السلة والإبريق من يدي دونيا كاسيلدا، وفتح هو نفسه القفص لينقذ أسيرته.

ضحك نيكولاس بيدال عندما علم بما جرى وقال:

- إن بيضاته أضعف من بيضاتي.

ولكن قهقهاته انقلبت مرارة في اليوم التالي حين أخبروه بأن خوانا الحزينة قد شنقت نفسها على مصباح الماخور الذي أمضت فيه حياتها، لأنها لم تستطع تحمل عار تخلي ابنها الوحيد عنها وهي محبوسة في قفص في وسط ساحة السلاح.

فقال بيدال:

- لقد حانت ساعة القاضي.

كانت خطته تتلخص في الدخول إلى القرية ليلاً، وأخذ القاضي على حين غرة، وقتله بطريقة استعراضية ووضعه داخل القفص اللعين، لكي يستيقظ الجميع في اليوم التالي ويروا رفاته الذليل. ولكنه علم أن أسرة هيدالغو قد ذهبت إلى نادي استجمام على الشاطئ للتخلص من مرارة الهزيمة.

وصلت الدلائل إلى القاضي هيدالغو على أنهم يطاردونه للانتقام وهو في منتصف الطريق، في نزل توقف للاستراحة فيه. لم يكن المكان يوفر حماية كافية إلى حين وصول فرقة من الشرطة، ولكن كانت لديه بضع ساعات من الوقت، فضلاً عن أن سيارته أسرع من الخيول. قدر أنه يستطيع الوصول إلى القرية التالية ويحصل على مساعدة. فأمر زوجته بالصعود إلى السيارة مع الأطفال، وضغط صفيحة السرعة إلى أقصى مدى وانطلق على الطريق. لقد كان بإمكانه الوصول إلى هدفه مع هامش أمان كبير، ولكن القدر كان قد حدد لنيكولاس بيدال أن يلتقي في ذلك اليوم بالمرأة التي هرب منها طوال حياته. فقلبُ القاضي المستنفد من سهر تلك الليالي، ومن عدوانية أهالي القرية، والعار الذي حاق به، ومن توتر تلك المطاردة لإنقاذ أسرته، فقد القدرة على التحمل وانفجر دون ضجة. خرجت السيارة التي صارت تمضي دون قائد عن مسارها واهتزت عدة اهتزازات ثم توقفت على حافة الطريق. وقد تأخرت دونيا كاسيلدا حوالى دقيقتين قبل أن تدرك حقيقة ما حدث. كثيراً ما كانت تفكر في أنها ستترمل، لأن زوجها كان عجوزاً تقريباً، ولكنها لم تتصور قط أنه سيتركها تحت رحمة أعدائه في مثل ذلك الموقف. لم تتوقف للتفكير

مطولاً في الأمر، لأنها أدركت ضرورة التصرف بسرعة لإنقاذ أطفالها. جالت بنظرها على المكان الذي هي فيه وكانت على وشك الانفجار بالبكاء من اليأس، لأنه لم يكن هناك أي أثر لحياة بشرية في تلك الامتدادات الجرداء المتكلسة من الشمس القاسية، لا شيء سوى الجبال الجرداء والسماء البيضاء من شدة الضوء. ولكنها في النظرة الثانية لمحت ظل مغارة على سفح الجبل، وإلى هناك انطلقت راكضة وهي تحمل اثنين من أولادها بينما الثالث متعلق بأذيالها.

ثلاث مرات تسلقت كاسيلدا حتى القمة وهي تحمل أولادها واحداً فواحداً. كانت هناك مغارة طبيعية مثل مغاور كثيرة غيرها في جبال تلك المنطقة. تفحصتها كاسيلدا من الداخل لتتأكد من أنها ليست وكراً لأي حيوان ضارٍ، ثم أمنت أبناءها في وضع مريح، وقبلتهم دون أن تذرف دمعة واحدة.

قالت لهم آمرة:

- بعد ساعات سيأتي رجال الشرطة للبحث عنكم. إياكم أن تخرجوا قبل ذلك لأي سبب، حتى ولو سمعتموني أصرخ، هل فهمتم؟

انكمش الصغار على أنفسهم خائفين، ونزلت الأم من الجبل بعد أن ألقت عليهم نظرة وداع أخيرة. وصلت إلى السيارة، فأطبقت جفون زوجها، ورتبت شعرها وجلست تنتظر. لم تكن تعرف عدد رجال عصابة نيكولاس بيدال، ولكنها تضرعت إلى الله أن يكونوا كثيرين، فهكذا سيحتاجون لوقت أطول كي يطفئوا ظمأهم منها، وجمعت قواها متسائلة كم من الوقت ستتحمل قبل أن تموت إذا ما سعت لعمل ذلك ببطء. تمنت لو أنها كانت بدينة وقوية لكي تتحملهم لمدة أطول وتكسب مزيداً من الوقت لأبنائها.

لم يكن عليها أن تنتظر طويلاً. فسرعان ما لمحت غباراً في الأفق، وسمعت وقع حوافر فضغطت أسنانها. وقد طار صوابها حين رأت أن القادم هو فارس واحد، مالبث أن توقف على بعد أمتار قليلة منها وهو يشهر سلاحه. كانت في وجهه ندوب جراح سكاكين فعرفت أنه نيكولاس بيدال، وكان قد قرر أن يذهب لمطاردة القاضي هيدالغو دون مرافقة رجاله، لأنها مسألة خاصة لا بد من تسويتها بين الاثنين. عندئذ أدركت هي أنه عليها القيام بشيء أصعب بكثير من الموت ببطء.

كانت نظرة واحدة من قاطع الطريق كافية لكي يدرك أن خصمه اللدود صار بمنجى من أي انتقام، وأنه ينام موته بسلام، ولكن هاهي ذي زوجته تطفو في بريق الضوء المتلألئ. قفز عن جواده واقترب منها. لم تخفض بصرها ولم تتحرك من مكانها، فتوقف الرجل مذهولاً، لأنها المرة الوحيدة التي يتحداه فيها أحد دون أي علامة خوف. راز كل منهما الآخر بصمت لثوانٍ أبدية، وكان كل واحد يقدر قوة الآخر، مقوماً في الوقت نفسه عناده الشخصي ومتقبلاً أنه أمام خصم مهيب. خبأ نيكولاس بيدال المسدس وابتسمت كاسيلدا.

عملت زوجة القاضي على كسب كل لحظة من الساعات التالية. فاستخدمت كل أساليب الإغواء المسجلة منذ مطلع المعرفة البشرية وأخرى غيرها ارتجلتها من وحي الضرورة، لكي تقدم إلى ذلك الرجل أكبر قدر من اللذة. لم تعمل على جسدها وحده بفنية بارعة محركة كل تيلة فيه بحثاً عن المتعة، وإنما وضعت روحها كذلك في خدمة قضيتها. كان كل منهما يدرك أنه يقامر بحياته، فكان ذلك يضفي على لقائهما زخماً رهيباً. لقد هرب نيكولاس بيدال من الحب منذ ولادته، فلم يتعرف على اللقاءات الحميمة، والرقة، والضحكة السرية، واحتفال الحواس، والمتعة

السعيدة للعاشقين. كل دقيقة تمضي كانت تقرب مفرزة الشرطة وتقرب معها وقوفه أمام فصيلة الإعدام، ولكنها كانت تقربه كذلك من هذه المرأة العجيبة، فقدم الدقائق المتتالية عن طيب خاطر مقابل الهبات التي تقدمها إليه. كانت كاسيلدا حَيِيّة وخجولة، وكانت متزوجة من رجل متقدم في السن وصارم لم تظهر عارية أمامه على الإطلاق. وفي ذلك المساء الذي لا يُنسى لم يغب عن بالها أن الهدف هو كسب الوقت، ولكنها تناست نفسها في بعض اللحظات، مفتونة بقدراتها الحسية، وأحست نحو هذا الرجل بما يشبه الامتنان. ولهذا، حين سمعت من بعيد جلبة الجيش توسلت إليه أن يهرب وأن يختبئ في الجبال. ولكن نيكولاس بيدال فضل أن يحتضنها بين ذراعيه ليقبلها القبلة الأخيرة، مكملاً بذلك النبوءة التي وسمت قدره.

طريق نحو الشمال

احتاجت كلافيليس بيثيرو وجدها خيسوس ديونيسيو بيثرو ثمانية وثلاثين يوماً ليقطعا المئتين وسبعين كيلومتراً التي تفصل قريتهم عن العاصمة. اجتازا مشياً على الأقدام الأراضي الواطئة، حيث الرطوبة تعطّن الخضرة في حساء أبدي من الوحل والعرق، وصعدا ونزلا الجبال بين عظاءات جامدة وأشجار نخيل مثقلة، وعبرا مزارع البن متفادين مراقبي العمال والحراذين والحيات، وسارا تحت أوراق التبغ وسط ذباب فسفوري وفراشات كوكبية. كانا يمضيان مباشرة إلى المدينة مختصرين الطريق العام، ولكنهما اضطرا في مناسبتين إلى الالتفاف في دورة واسعة لتجنب معسكرات الجنود. كان سائقو الشاحنات يخففون من سرعتها أحياناً لدى المرور إلى جوارهما، يجتذبهم ظهر الملكة الخلاسية وشعر الفتاة الطويل ولكن نظرة العجوز كانت تصرفهم على الفور عن أي محاولة لإزعاجها. لم يكن لدى العجوز وحفيدته نقوداً ولم يكونا يعرفان التسول. وعندما نفدت مؤنهما التي حملاها في السلة، واصلا التقدم بالجرأة وحدها. وفي الليل كانا يتدثران بأسمالهما وينامان تحت الأشجار وعلى شفتيهما صلاة يا قديسة مريم وروحهما مركزة على الطفل، حتى لا يفكرا بأسود البوما وبالضواري والأفاعي السامة. ويستيقظان وقد غطتهما الخنافس الزرقاء. ومع أول تباشير الفجر، حين يكون المشهد ما يزال مغلفاً بآخر ضباب النعاس وقبل أن يبدأ البشر والبهائم بأعمال النهار، ينطلقان في مسيرهما من جديد ليستفيدا من برودة الجو. دخلا العاصمة

من الدرب الذي دخل منه الإسبان، وراحا يسألان من يصادفهما في الشوارع عن مكان وجود وزير الرفاه الاجتماعي. في ذلك الحين كانت كل عظام خيسوس ديونيسيو تخشخش، وكانت ألوان ثوب كلافيليس قد بهتت وبدت مثل مسحورة منوَّمة ترزح برونق سنوات عمرها العشرين تحت قرن كامل من الإنهاك.

❖ ❖ ❖

كان خيسوس ديونيسيو أوسع الحرفيين شهرة في الإقليم، وقد اكتسب خلال حياته الطويلة سمعة جيدة لم يكن يفاخر بها، لأنه كان يعتبر موهبته هبة لخدمة الرب، وأن ما يفعله لا يتعدى إدارة تلك الموهبة. لقد بدأ العمل كصانع فخار، ومازال يصنع أواني فخارية، ولكن شهرته أتت من تماثيل القديسين الخشبية والمنحوتات الصغيرة التي يضعها في قوارير، ويشتريها الفلاحون لمذابحهم البيتية أو تباع للسائحين في العاصمة. كان عملاً بطيئاً، يحتاج للعين والوقت والقلب، مثلما كان الرجل يشرح للأولاد الذين يلتمون من حوله ليراقبوه وهو يعمل. كان يستخدم ملقطاً لإدخال قطع الخشب الصغيرة المطلية بالألوان في القوارير بعد أن يضع قليلاً من الغراء على أطرافها التي يجب إلصاقها، وينتظر بصبر إلى أن تجف قبل أن يضع القطعة التالية. وكان اختصاصه هو مشهد الجلجلة: صليب كبير في وسط القارورة الزجاجية يعلقُ عليه مسيحاً منحوتاً، مع إظهار المسامير في يديه وتاج الشوك على رأسه الذي تحيط به هالة من ورق مذهب، ثم يُدخل صليبين آخرين للصيّ الجلجلة. وفي أعياد الميلاد كان يصنع مناظر ليلية لميلاد الطفل الرب، مع حمائم تمثل الروح القدس ونجوم وأزهار ترمز إلى المجد الإلهي. لم يكن يعرف

الكتابة أو توقيع اسمه لأنه لم تكن هناك مدرسة في طفولته، ولكنه كان قادراً على نسخ بعض العبارات باللاتينية لتزيين القواعد التي يقف عليها قديسوه. وكان يقول إن أبويه علماه احترام شريعة الكنيسة واحترام الناس، وهذا أكثر فائدة من الحصول على التعليم. لم يكن الفن يوفر له ما يكفي لنفقات بيته، فكان يضاعف دخله بتربية ديوك أصيلة وراقية للمصارعات. كان لابد من تكريس جهد كبير لكل ديك، وتغذيتها بوضع الطعام في مناقيرها مباشرة، وهو طعام يتألف من حبوب مجروشة يضاف إليها دم طازج كان يحصل عليه من المسلخ، وكان عليه أن يفلي الديوك من البراغيث بيديه، وأن يزين ريشها، وأن يبَرد مهاميزها ويدربها يومياً حتى لا تخذله جرأتها عندما يختبرها الشراة. وكان في بعض الأحيان يذهب إلى قرى أخرى ليشاهد ديوكه وهي تخوض المصارعات، ولكنه لم يشارك في المراهنات مطلقاً، لأنه يرى أن أي نقود تأتي دون عرق وعمل هي من أمور الشيطان. وفي ليل كل يوم سبت كان يذهب مع حفيدته كلافيليس لتنظيف الكنيسة من أجل قداس الأحد. ومع أن الكاهن الذي كان يجوب القرى على دراجة، لم يكن يأتي دائماً، فقد كان المؤمنون يجتمعون على أي حال ليصلوا ويغنوا وحدهم. وكان خيسوس ديونيسيو هو المسؤول أيضاً عن جمع الصدقات لترميم المعبد ومساعدة الخوري.

لقد أنجب بيثيرو ثلاثة عشر ابناً من زوجته آمبارو ميدينا، خمسة من أولئك الأبناء فقط نجوا من الأوبئة وحوادث الطفولة. وحين ظن الأبوان أنهما قد انتهيا من تربية الأولاد، لأن جميع أولادهما قد كبروا وغادروا البيت، عاد أصغرهم في إجازة من الخدمة العسكرية حاملاً معه حزمة ملفوفة بخرق ووضعها على ركبتي آمبارو. وحين فتحا الحزمة وجدا فيها

طفلة حديثة الولادة، شبه محتضرة بسبب غياب الحليب الأمومي وإرهاق السفر. سأله خيسوس ديونيسيو بيثيرو:

ـ من أين جئت بها يا بني؟

فرد الابن وهو يدعك قبعته العسكرية بين أصابعه المتعرقة ودون أن يتجرأ على النظر إلى عيني أبيه:

ـ يبدو أنها من صلبي.

ـ وأين ذهبت أمها، إذا لم يكن في سؤالي أي تطفل؟

ـ لا أدري. لقد تركتْ الصغيرة عند باب المعسكر مع ورقة تقول إن الأب هو أنا. فأمر الرقيب بتسليمها إلى الراهبات قائلاً إنه لا وجود لدليل على أنها لي. ولكنني أشفقت عليها، ولست أريد لها أن تكون يتيمة...

ـ أين رأيت أماً تهجر طفلتها الرضيعة؟

ـ إنها أمور المدينة.

ـ لابد أن تكون كذلك. وما اسم هذه المسكينة الصغيرة؟

ـ الاسم الذي تشاءه يا أبي، ولكن إذا أردت رأيي، فأنا أحب اسم كلافيليس*، فهي زهرة أمها المفضلة.

خرج خيسوس ديونيسيو بحثاً عن المعزى ليحلبها وابتهل إلى سيدتنا عذراء المغارة طالباً منها أن تمنحه القوة لتربية طفل آخر. وحين رأى الابن الأصغر أن الوليدة قد أصبحت في أيد أمينة، ودّع أبويه شاكراً وقفل راجعاً إلى المعسكر ليكمل عقوبته.

ترعرعت كلافيليس في بيت جديها. وكانت فتاة ماكرة ومتمردة

---

*كلافيليس (Claveles) تعني أزهار القرنفل.

من المستحيل شكمها بالتعقل أو بممارسة السلطة، ولكنها تنصاع على الفور إذا ما لامس أحدهم مشاعرها. كانت تنهض عند الفجر وتمشي خمسة أميال لتصل إلى حوش وسط المراعي، حيث كانت معلمة تجمع أطفال المنطقة لتقدم لهم تعليماً أساسياً. وكانت تساعد جدتها في أعمال البيت وتساعد جدها في مشغله، فتذهب إلى الجبل لإحضار غضار لصنع الفخار وتغسل الملاقط، ولكن اهتمامها بفنه لم يكن يصل إلى ما هو أكثر من ذلك. وعندما بلغت كلافيليس التاسعة من عمرها طلع الصباح على جدتها آمبارو ميدينا وهي باردة في سريرها، وكانت قد بدأت تتكمش منذ زمن حتى أصبحت بحجم طفلة، مستنفدة من الولادات الكثيرة ومن سنوات العمل الطويلة. قايض زوجها أفضل ديك لديه بألواح خشبية وصنع لها تابوتاً زينه بمشاهد من الكتاب المقدس. وألبستها حفيدتها لمأتمها مسوح القديسة بيرنارديتا، أي عباءة بيضاء مع حبل سماوي اللون حول خصرها، وهي الملابس نفسها التي ارتدتها في مناولتها الأولى وهي طفلة، فجاءت مناسبة تماماً لجسدها الشيخوخي المتقلص. خرج خيسوس ديونيسيو وكلافيليس من البيت باتجاه المقبرة وهما يجران عربة فوقها التابوت المزين بأزهار ورقية. وانضم إليهما في الطريق بعض الأصدقاء، رجال ونساء يغطين رؤوسهن، ورافقوهما بصمت.

بقي نحات القديسين العجوز وحفيدته وحدهما في البيت. وفي إشارة إلى الحداد رسما صليباً كبيراً على الباب وثبت الاثنان لسنوات شريطاً أسود على كميهما. حاول الجد أن يحل محل امرأته في تفاصيل الحياة العملية، ولكن شيئاً لم يعد مثلما كان في السابق. لقد نخره غياب آمبارو ميدينا من الداخل مثل مرض خبيث، فأحس بأن دمه قد تحول ماءً، وغامت ذكرياته، وصارت عظامه مثل القطن، وامتلأت روحه بالشكوك. وتمرد

لأول مرة في حياته على القدر متسائلاً لماذا أخذها هي وأبقاه. ومنذ ذلك الحين لم يعد يستطيع صنع مشاهد الميلاد، ولم تعد تخرج من بين يديه إلا مشاهد الصلب ومنحوتات القديسين الشهداء، وجميعهم بملابس الحداد، وكانت كلافيليس تلصق على المنحوتات عبارات مؤثرة موجهة إلى العناية الإلهية يمليها عليها جدها. لم تجد هذه الأشكال إقبالاً بين سائحي المدينة الذين يفضلون الألوان الصارخة المنسوبة خطأ إلى مزاج السكان الأصليين، ولم تجد رواجاً كذلك بين الفلاحين الذين يرغبون في عبادة آلهة مرحين، لأن عزاءهم الوحيد من أحزان هذا العالم هو تخيلهم أن السماء تعيش في حفلة متواصلة. صار من المستحيل على خيسوس ديونيسيو تقريباً أن يبيع منحوتاته، ولكنه واصل مع ذلك صنعها، لأن الساعات كانت تمضي عليه في هذا العمل دون أن يشعر بالتعب، ويشعر كما لو أن الوقت مبكر على الدوام. ولكن العمل ووجود حفيدته لم يخففا عنه أساه، فبدأ يشرب خفية حتى لا ينتبه أحد إلى عاره. فكان ينادي زوجته حين يسكر، ويتمكن أحياناً من رؤيتها قرب موقد المطبخ. وبغياب جهود آمبارو ميدينا راح البيت يتلف، فمرضت الدجاجات، واضطروا إلى بيع العنزة، ويبست نباتات الحديقة، وسرعان ما أصبحا أفقر أسرة في المنطقة. وبعد قليل من ذلك ذهبت كلافيليس للعمل في قرية مجاورة. وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرها كان جسمها قد اتخذ شكله وحجمه النهائيين، وحيث إنها لم تكن تملك بشرة نحاسية ووجنتين نحاسيتين مثل بقية أفراد الأسرة، فقد توصل خيسوس ديونيسيو بيثيرو إلى أنه لا بد لأمها من أن تكون بيضاء، وهو ما يفسر إقدامها على هجر ابنتها عند باب ثكنة عسكرية.

بعد سنة ونصف رجعت كلافيليس بيثيرو إلى البيت وفي وجهها بقع وبطنها منتفخة. ووجدت جدها دون أي رفيق سوى دفعة من الكلاب

الجائعة وديكين يرثى لهما مفلتين في الفناء، وكان يتكلم وحيداً، ونظراته شاردة، مع علامات تشير إلى أنه لم يغتسل منذ زمن بعيد. وكان محاطاً بأكبر قدر من الفوضى. فقد هجر العمل في قطعة أرضه وعكف على قضاء الساعات في صنع قديسين بتعجل شيطاني، ولكن لم يبق من موهبته القديمة إلا القليل. فمنحوتاته تحولت إلى كائنات مشوهة وكئيبة غير مناسبة للورع أو للبيع، فكانت تتراكم في أركان البيت مثل أكوام الحطب. كان خيسوس ديونيسيو بيثيرو قد تبدل كثيراً إلى حد أنه لم يحاول أن يوجه إلى حفيدته خطبة حول خطيئة إخراج أبناء بلا آباء معروفين إلى الحياة، والحقيقة أنه لم ينتبه إلى أعراض الحبل. واكتفى بمعانقتها وهو يرتعش ومناداتها باسم آمبارو.

ـ تأملني جيداً يا جدي، أنا كلافيليس وقد جئت لأبقى، لأن هناك الكثير الذي يجب علي عمله. قالت الفتاة ذلك ومضت لتشعل الموقد كي تصنع حساء وتسخن ماء لتحمم الشيخ.

بدا على ديونيسيو خلال الشهور التالية وكأنه قد انبعث من حداده، فترك الشراب، وعاد إلى زراعة الجنينة والاهتمام بديوكه وتنظيف الكنيسة. وبقي يحدث ذكرى زوجته، ويحسب أحياناً أن الحفيدة هي الجدة، ولكنه استرد القدرة على الضحك. أعادت إليه رفقة كلافيليس ووهم مجيء طفل جديد إلى البيت عما قريب، حبه للألوان وبدأ يتخلى شيئاً فشيئاً عن طلاء قديسيه باللون الأسود، وصار يزينهم بملابس أكثر ملاءمة لمذابح البيوت. خرج طفل كلافيليس من بطنها في الساعة السادسة من مساء أحد الأيام وسقط بين يدي جد أمه الخشنتين الذي كانت لديه تجربة طويلة في هذه الشؤون، لأنه كان قد ساعد في توليد أبنائه الثلاثة عشر.

وما إن قطع المولّد حبل الخلاصة ولف حفيده الجديد بقماط، حتى قرر:

ـ سنسميه خوان.

ـ ولماذا خوان؟ ليس هناك أي خوان في الأسرة يا جدي.

ـ لأن خوان كان أفضل أصدقاء يسوع وهذا سيكون صديقي. وما هي كنية الأب؟

ـ ضع في اعتبارك أنه بلا أب.

ـ ستكون الكنية بيثيرو إذن... خوان بيثيرو.

بعد أسبوعين من مولد حفيده بدأ خيسوس ديونيسيو بتقطيع الخشب لصنع منظر ميلاد، وهو الأول الذي يصنعه منذ موت آمبارو ميدينا.

وسرعان ما انتبهت كلافيليس وجدها إلى أن الطفل غير طبيعي. كانت له نظرة غريبة، وكان يتحرك مثل أي طفل، ولكنه لم يكن يستجيب حين يكلمونه، ويبقى لساعات مستيقظاً ودون حراك. قاما بزيارة المستشفى وهناك أكدوا لهم أنه أصم، وأنه سيكون أبكمً بالتالي. وأردف الطبيب أنه ليس ثمة كبير أمل في شفائه، اللهم إلا إذا كانوا محظوظين واستطاعوا إدخاله إلى مؤسسة متخصصة في المدينة، حيث يجد من يعلمه السلوك الحميد ويمكن أن يوفروا له في المستقبل مهنة يكسب منها عيشه بوقار ولا يكون عبئاً على الآخرين.

ـ لن أقبل بذلك ولا بأي شكل، خوان سيبقى معنا. ـ هكذا حسم خيسوس ديونيسيو بيثيرو الأمر دون أن ينظر إلى كلافيليس التي كانت تبكي ورأسها مغطى بشال.

وسألته هي عندما خرجا:

ـ ما الذي سنفعله يا جدي؟

ـ سنربيه.

ـ كيف؟

ـ بالصبر، مثلما يدربون الديوك أو مثلما يدخلون مجسمات مشهد الصلب في القوارير. إنها مسألة عين ووقت وقلب.

وكان هذا ما فعلاه. فدون أن يهتما بكون الطفل لا يسمعهما، كانا يكلمانه دون توقف، ويغنيان له، ويضعانه بجوار المذياع المفتوح بأعلى صوت. كان الجد يمسك يد الطفل ويضعها بثبات على صدره، لكي يشعر باهتزازات صوته وهو يتكلم، وكان يشجعه على الصراخ ويحتفي بزمجراته بتأثر بالغ. وما إن تعلم الطفل الجلوس حتى وضعه على صندوق بجانبه وأحاطه بأخشاب، وجوز، وعظام، ومزق قماش وأحجار ليلعب بها، وفيما بعد، عندما تعلم عدم وضع كل شيء في فمه، قدم له قطعة من الصلصال لكي يشكلها على هواه. وكلما كانت كلافيليس تحصل على عمل، كانت تذهب إلى القرية تاركة ابنها بين يدي خيسوس ديونيسيو. وحيثما ذهب العجوز كان الطفل يتبعه مثل ظله، ونادراً ما كانا يفترقان. وقد قامت بين الاثنين صداقة راسخة تجاوزت الفارق الرهيب في السن وعقبة الصمت. اعتاد خوان على مراقبة ملامح وتعابير وجه جده لكي يفسر نواياه، وقد كانت النتائج جيدة إلى حد أنه في السنة التي تعلم المشي فيها كان قد أصبح قادراً على قراءة أفكاره. وكان خيسوس ديونيسيو من جهته يرعاه مثل أم. فبينما يداه تعملان في تحف دقيقة وحساسة، كانت غريزته تتابع خطوات الطفل، متيقظاً لأي خطر، ولكنه لم يكن يتدخل إلا في الحالات القصوى. لم يكن يدنو لمواساته إذا ما

وقع، ولا لمساعدته عندما يكون في مأزق، فعلمه بهذه الطريقة الاعتماد على نفسه. وكان خوان بيثيرو يستطيع ارتداء ملابسه والاغتسال معتمداً على نفسه وهو في سن يتعثر فيها أطفال آخرون بأشياء البيت وهم يمشون. وقد تعلم أن يقدم الطعام إلى الدواجن، وأن يذهب لإحضار الماء من البئر، وصار يعرف كيف ينحت أجزاء بسيطة من أشكال القديسين، وكيف يمزج الألوان ويهيئ القوارير.

وعندما اقترب عيد ميلاد الطفل السابع قال خيسوس ديونيسيو بيثيرو:

ـ يجب إرساله إلى المدرسة حتى لا يبقى جاهلاً مثلي.

فقامت كلافيليس ببعض التقصيات، ولكنهم أخبروها بأنه لا يمكن لابنها أن يحضر الصفوف العادية، لأنه ليست هناك أي معلمة مستعدة للمغامرة بالنزول إلى هوة الوحدة التي كان غارقاً فيها.

وقالت كلافيليس بإذعان وصبر:

ـ ليس مهماً يا جدي، سيكسب عيشه من صنع القديسين، مثلك.

ـ هذا عمل لا يوفر ما يكفي للطعام.

ـ لا يمكن للجميع أن يتعلموا يا جدي.

ـ خوان أصم، ولكنه ليس أحمق. لديه الكثير من البصيرة ويمكنه أن يخرج من هنا، فالحياة في الريف قاسية عليه.

كانت كلافيليس مقتنعة من أن الجد قد فقد عقله أو أن حبه للطفل حجب عنه رؤية محدودية إمكاناته. اشترت كتاب هجاء وحاولت أن تنقل إليه معارفها القليلة، ولكنها لم تستطع جعل ابنها يفهم أن تلك الخربشات تمثل أصواتاً، وانتهى بها الأمر إلى اليأس.

في هذه الفترة ظهر متطوعو السيدة درموث. كانوا شباناً قادمين من

المدينة يجوبون مناطق البلاد النائية والمعزولة متحدثين عن مشروع إنساني لنجدة الفقراء. كانوا يقولون إن هناك مناطق يولد فيها أطفال كثيرون لا يستطيع آباؤهم توفير الطعام لهم، بينما هناك أزواج في مناطق أخرى بلا أبناء. ومنظمتهم تحاول التخفيف من عدم التوازن هذا.

جاؤوا إلى كوخ آل بيثيرو ومعهم خريطة لأمريكا الشمالية وكراسات مطبوعة بالألوان يظهر فيها أطفال سُمر إلى جانب آباء شُقر، في أجواء فخمة فيها مدافئ مشتعلة وكلاب غزيرة الفرو وأشجار سرو مزينة بصقيع فضي وكرات عيد الميلاد. وبعد أن قاموا بتعداد سريع لمظاهر فقر آل بيثيرو، أطلعوهما على المهمة الإحسانية للسيدة درموث التي تبحث عن أكثر الأطفال فقراً، وتوصلهم إلى أُسر غنية لتتبناهم، فتنقذهم من حياة البؤس. وعلى خلاف مؤسسات أخرى مكرسة للهدف نفسه، فإنها لا تهتم إلا بأطفال لديهم عاهة خلقية، أو مقعدين في حوادث أو أمراض. فهناك في **الشمال** بعض الأزواج ـ وهم مسيحيون طيبون بالطبع ـ المستعدين لتبني هؤلاء الأطفال. وهم يملكون كل الوسائل لمساعدتهم. ففي **الشمال** توجد مستشفيات ومدارس يحققون فيها المعجزات، فهم يعلمون الصم البكم مثلاً على قراءة حركات الشفاه والتكلم، ثم يذهبون بعد ذلك إلى مدارس خاصة، ويتلقون تعليماً كاملاً، وقد يذهب بعضهم أيضاً إلى الجامعات ويصبحون محامين أو دكاترة. لقد ساعدت المنظمة أطفالاً كثيرين، ويمكن لآل بيثيرو أن يروا الصور، انظروا كم هم سعداء، وكم هم أصحاء، ولديهم كل الألعاب في بيوت الأغنياء هذه. لا يمكن للمتطوعين أن يعدوا بأي شيء، ولكنهم سيبذلون جهدهم لكي يختار بعض هؤلاء الأزواج خوان ويؤمنوا له كل الفرص التي لا تستطيع أمه توفيرها له.

فقال خيسوس ديونيسيو بيثيرو وهو يضم رأس الطفل إلى صدره حتى لا يرى الوجوه ويحزر سبب الحديث:

ـ لا يمكن التخلص من الأبناء مطلقاً ومهما جرى.

ـ لا تكن أنانياً يا رجل، فكر بما هو أفضل له. ألا ترى أنه سيحصل هناك على كل شيء؟ أنت لا تملك المال لتشتري له الأدوية، ولا يمكنك أن ترسله إلى المدرسة، فما الذي سيحدث له؟ بل إن هذا المسكين لا يملك أباً.

فرد العجوز:

ـ ولكنه يملك أماً وجداً.

انصرف الزائرون تاركين فوق الطاولة كراسات السيدة درموث. وفي الأيام التالية فاجأت كلافيليس نفسها عدة مرات وهي تنظر وتقارن تلك البيوت الفسيحة وحسنة الترتيب مع بيتها المتواضع المشيد من ألواح خشبية، وسقف من القش وأرضية ترابية ممهدة، وأولئك الآباء اللطفاء ذوي الملابس الجيدة معها هي نفسها المنهوكة والحافية، وأولئك الأطفال المحاطين بألعاب وابنها الذي يلعب بعجن الطين.

بعد أسبوع من ذلك التقت كلافيليس مع المتطوعين في السوق، حيث ذهبت لتبيع بعض منحوتات جدها، وعادت تسمع الحجج نفسها، عن أن فرصة مثل هذه لن تأتيها مرة أخرى، وأن الناس يتبنون عادة أطفالاً أصحاء، ولا يقدمون مطلقاً على تبني المتخلفين، وأن أولئك الناس في **الشمال** هم من ذوي المشاعر النبيلة، وأنه عليها أن تفكر جيداً، لأنها ستندم مدى الحياة إذا ما حرمت ابنها من كل تلك المنافع، وحكمت عليه بالألم والفقر.

سألتهم كلافيليس:

ـ ولماذا يريدون أطفالاً مرضى فقط؟

ـ لأنهم غرينغيون نصف قديسين. ومنظمتنا لا تهتم إلا بالحالات الصعبة جداً. فتدبر أمر الأصحاء أكثر سهولة بالنسبة إلينا، ولكننا نريد مساعدة البائسين.

ثم التقت كلافيليس بعد ذلك بالمتطوعين عدة مرات. وكانوا يأتون دائماً عندما يكون الجد خارج البيت. وفي أواخر شهر تشرين الثاني عرضوا عليها صورة زوجين متوسطي العمر، يقفان أمام بيت أبيض تحيط به حديقة، وقالوا لها إن السيدة درموث قد وجدت أبوين مثاليين لابنها. وأشارا لها على الخريطة إلى المكان الذي يعيشان فيه بالضبط، وأوضحا لها أن الثلج يسقط هناك في الشتاء فيصنع منه الأطفال تماثيل كبيرة، وأنهم يتزلجون على الجليد، وأن الغابات تبدو في الخريف كأنها من الذهب، وأنه يمكن السباحة في البحيرة في الصيف. وقالوا إن الزوجين يهيمان بفكرة تبني الصغير، وإنهما قد اشتريا له منذ الآن دراجة. وقد أرياها كذلك صورة الدراجة. وكل هذا دون ذكر أنهم يعرضون على كلافيليس مبلغ مئتين وخمسين دولاراً، حيث يمكنها بهذا المبلغ أن تتزوج وتنجب أبناء أصحاء. سيكون من الجنون رفض ذلك كله.

بعد يومين من ذلك، انتهزت كلافيليس بيثيرو فرصة ذهاب خيسوس ديونيسيو لتنظيف الكنيسة، فألبست ابنها أفضل بنطال لديه، وعلقت في عنقه ميدالية تعميده وأوضحت له بلغة الإشارات التي اخترعها له الجد أنهما لن يلتقيا لوقت طويل، وربما إلى الأبد، ولكنها تفعل كل ذلك من أجل مصلحته، لأنه سيذهب إلى مكان يجد فيه طعاماً كل يوم وهدايا في عيد ميلاده. ثم أخذته إلى العنوان الذي أعطاها إياه المتطوعون، ووقعت هناك وثيقة توكّل فيها السيدة درموث برعاية خوان وخرجت راكضة حتى لا يرى ابنها دموعها ويبدأ هو أيضاً بالبكاء.

حين علم خيسوس ديونيسيو بما جرى فقد الأنفاس والصوت. وراح يضرب بيديه ملقياً إلى الأرض كل ما يجده أمامه، بما في ذلك القديسون الذين في الزجاجات، ثم التفت بعد ذلك إلى كلافيليس وبدأ يضربها بعنف لا يمكن تصوره من شخص في مثل سنه ووداعة طبعه. وما كاد يسترد القدرة على النطق حتى اتهمها بأنها مثل أمها، لا تتورع عن التخلي عن ابنها، وهو ما لا تفعله حتى الوحوش الضارية في البراري، وطلب من شبح آمبارو ميدينا أن ينتقم من هذه الحفيدة الفاسقة. ولم يتوجه في الشهور التالية بكلمة واحدة إلى كلافيليس، وكان لا يفتح فمه إلا ليأكل أو ليمضغ اللعنات بينما يداه مشغولتان بأدوات المشغل. اعتاد آل بيثيرو على الحياة في صمت متوحد، وكل منهما ينجز مهماته. هي تطبخ الطعام وتضع له طبقه فوق المائدة، وهو يأكل ونظره مثبت على الطعام... كلاهما يعتنيان بالجنينة وبالحيوانات، وكل منهما يكرر إيماءات روتينه الخاص بانسجام تام مع الآخر، دون أن يلمس أحدهما الآخر. وفي أيام السوق كانت تأخذ الزجاجات والقديسين الخشبيين، وتذهب لبيعها، ثم ترجع ببعض المؤن وتترك النقود المتبقية في علبة. وفي أيام الآحاد يذهبان إلى الكنيسة منفصلين، مثل غريبين.

وربما كانا سيقضيان بقية حياتيهما دون أن يتبادلا الكلام لو لم يتحول اسم السيدة درموث إلى خبر في أواسط شهر شباط. سمع الجد القضية من المذياع عندما كانت كلافيليس تغسل الثياب في الفناء، في البداية سمع تعليق المذيع، ثم بعد ذلك تأكيدات وزير الرفاه الاجتماعي شخصياً. فأطل من الباب وقلبه يكاد يخرج من فمه ونادى كلافيليس صارخاً. التفتت الفتاة نحوه وحين رأته بذلك الشحوب ظنت أنه يموت فركضت لتسنده.

ولكن العجوز أنَّ وهو يهوي على ركبتيه:

- لقد قتلوه يا خيسوس، لا شك في أنهم قتلوه!

- قتلوا من يا جدي!

- خوان... ثم أعاد عليها وهو يختنق بالبكاء كلمات وزير الرفاه الاجتماعي، عن أن منظمة إجرامية تقودها من تدعى السيدة درموث تقوم ببيع أطفال من أبناء السكان الأصليين. كانوا يختارونهم من المرضى أو من أبناء الأسر الفقيرة جداً، مقدمين الوعود بأنهم سيؤمنون من يتبناهم. وكانوا يحتفظون بهم لبعض الوقت من أجل تسمينهم، وعندما يصبحون في حالة جيدة يقتادونهم إلى عيادة سرية حيث يجرون لهم عمليات جراحية. لقد جرت التضحية بعشرات الأبرياء واستخدموا كبنوك أجهزة حيوية، فكانوا ينزعون أعينهم، وكلاهم، وأكبادهم وأجزاء أخرى من أجسادهم لإرسالها وإعادة زرعها في الشمال. وأضاف أنه تم العثور في أحد بيوت التسمين على ثمانية وعشرين طفلاً ينتظرون دورهم، وقد تدخلت الشرطة ومازالت الحكومة تواصل التحقيقات للكشف عن أبعاد هذه التجارة الفظيعة.

هكذا بدأت رحلة كلافيليس وخيسوس ديونيسيو بيثيرو الطويلة للتحدث مع وزير الرفاه الاجتماعي في العاصمة. إنهما يريدان أن يسألاه، بكل الخضوع الواجب، إذا ما كان طفلهم بين الأطفال الناجين، وعما إذا كانوا سيعيدونه إليهم. النقود التي أخذاها لم يبق منها إلا القليل، ولكنهما مستعدان للعمل عبيداً عند السيدة درموث طوال الوقت الذي تشاءه، إلى أن يسددوا لها آخر سنت من المئتين والخمسين دولاراً.

نزيل المعلمة

دخلت المعلمة إنيس إلى متجر **درة الشرق** الذي يكون خالياً من الزبائن في مثل هذه الساعة، واتجهت إلى الطاولة حيث كان رياض حلبي يلف ثوباً من القماش المزين بأزهار ملونة، وقالت له إنها أقدمت للتو على قطع رأس أحد الزبائن في نزلها. أخرج التاجر منديلاً أبيض وغطى به فمه.

ـ ما الذي تقولينه يا إنيس؟

ـ ما سمعته أيها التوركو.

ـ وهل مات؟

ـ بالطبع.

ـ وما الذي ستفعلينه الآن؟

فقالت وهي ترد خصلة من شعرها:

ـ هذا هو بالضبط ما جئت أسألك عنه.

وتنهد رياض حلبي:

ـ من الأفضل أن نغلق المتجر.

كان كل منهما يعرف الآخر منذ زمن طويل، بحيث لايمكن لأي منهما أن يتذكر عدد السنوات التي مضت على تعارفهما، بالرغم من أنهما كلاهما يحتفظان في ذاكرتهما بكل تفاصيل ذلك اليوم الأول الذي بدأا فيه صداقتهما. كان هو في ذلك الحين واحداً من أولئك الباعة الجوالين

الذين يجوبون الدروب عارضين بضاعتهم، تاجر رحالة، دون بوصلة ودون وجهة محددة، مهاجر عربي بجواز سفر تركي مزيف، وحيد، منهوك، شفته العليا مشقوقة مثل أرنب، وبه رغبة جامحة للجلوس في الظل؛ وكانت هي ما تزال امرأة شابة، ذات ردف متين وكتفين قويين، والمعلمة الوحيدة في القرية، وأم لطفل في الثانية عشرة من عمره، أنجبته من حب عابر. كان ذلك الابن هو مركز حياة المعلمة، فكانت ترعاه بانهماك لا يفتر، ولا تكاد تستطيع إخفاء ميلها للنظر إليه، ولكنها كانت تطبق عليه قواعد الانضباط نفسها التي تطبقها على بقية أطفال المدرسة، حتى لا يستطيع أحد أن يعلق بأنها تسيء تربيته، ولكي تحول دون أن يرث جحود أبيه، كانت تربيه على وضوح الفكر وطيبة القلب. في مساء اليوم نفسه الذي دخل فيه رياض حلبي إلى أغوا سانتا من جهة، كانت جماعة من الصبيان تأتي من الجهة الأخرى حاملة جسد ابن المعلمة إنيس على نعش مرتجل. كان قد دخل إلى أملاك أناس آخرين ليقطف ثمرة مانغا، فما كان من المالك، وهو شخص غريب لا يعرفه أحد في تلك الأنحاء، إلا أن أطلق عليه رصاصة من بندقيته بنية تخويفه، فأحدث في منتصف جبهته دائرة سوداء أُفلتت منها حياته. في تلك اللحظة انتبه التاجر العربي إلى موهبته القيادية دون أن يعرف كيف حدث ذلك، ووجد نفسه في مركز الحدث، يعزي الأم المفجوعة، وينظم الجنازة وكأن الميت أحد أفراد أسرته، ويكبح الناس حتى لا يمزقوا الجاني. وفي أثناء ذلك أدرك القاتل أنه سيكون من الصعب عليه إنقاذ حياته إذا ما بقي هناك، فهرب من القرية وفي نيته عدم العودة إليها مطلقاً.

وكان على رياض حلبي أن يمضي في اليوم التالي على رأس الحشد الذي انطلق من المقبرة باتجاه المكان الذي سقط فيه الطفل. وأمضى جميع أهالي أغوا سانتا ذلك النهار وهم ينقلون ثمار المانغا ويقذفون بها عبر

النوافذ إلى أن ملؤوا البيت بالكامل، من الأرض وحتى السقف. وخلال أسابيع قليلة خمّرت الشمس الثمار التي تفزرت عن رحيق كثيف ضمخ الجدران برائحة دم ذهبي، وقيح حلو، وحوّل البيت إلى أحفور في طور التعفن، تعذبه الهمة غير المتناهية لليرقات والهوام الناتج عن التحلل.

إن موت الطفل، والدور الذي كان على رياض حلبي أن يؤديه في تلك الأيام، واحتضان أغوا سانتا له هي الأحداث التي حددت مصير التاجر نهائياً، فنسي أسلافه الرحّل واستقر في الضيعة. وفيها أقام متجره، **درة الشرق**. وتزوج، وترمل، ثم تزوج ثانية، وواصل البيع، بينما كانت تتعاظم سمعته كرجل عادل. وربت إنيس من جهتها عدة أجيال من الأطفال بالحنان العنيد نفسه الذي كانت ستسبغه على ابنها، إلى أن غلبها الإرهاق، فأفسحت المجال عندئذ لمعلمات أخريات قادمات من المدينة بكتب تهجئة جديدة، وتقاعدت. حين غادرت قاعات الدرس أحست بأنها قد شاخت فجأة وأن الزمن أخذ يتسارع، وأن الأيام تمر متعجلة دون أن تتيح لها أن تتذكر كيف أمضت ساعاتها.

- إنني مشوشة أيها التوركو. فأنا أموت دون أن أنتبه.

فرد عليها رياض حلبي:

- إنك سليمة مثلما كنت دائماً يا إنيس. وكل ما في الأمر أنك تضجرين. يجب ألا تبقي في البطالة.

وعرض عليها فكرة بناء غرفتين ملحقتين ببيتها وتحويله إلى بانسيون، قائلاً لها:

- في هذه القرية لا يوجد فندق.

فتعللت هي:

ـ ولا يوجد سائحون أيضاً.

ـ الحصول على سرير نظيف وفطور ساخن هو نعمة للمسافرين العابرين.

وكان هذا ما حدث، فكان البانسيون يستقبل أساساً سائقي شاحنات شركة البترول الذين يبقون لقضاء ليلة هناك حين يملأ التعب وضجر الطريق رؤوسهم بالهذيانات.

كانت المعلمة إنيس هي المرأة الأكثر احتراماً في أغوا سانتا. فقد ربت كل أطفال القرية طوال عدة عقود، فمنحها ذلك سلطة التدخل في حياة كل واحد منهم وشد أذنه عندما ترى ذلك لازماً. وكانت الفتيات يأخذن إليها من يتقدمون لخطبتهن لكي توافق عليهم، والأزواج يستشيرونها في مشاجراتهم، حتى أصبحت مستشارة وحَكماً وقاضياً في كل المشاكل، فسلطتها أشد رسوخاً من سلطة الخوري والطبيب والشرطة. ولم يكن هناك ما يمنعها من ممارسة تلك السلطة. في أحد الأيام دخلت إلى مركز الشرطة، ومرت أمام الملازم دون أن تحييه، وتناولت المفاتيح المعلقة بمسمار على الجدار وأخرجت من الزنزانة أحد تلاميذها الذي اعتقل بسبب السكر الشديد. حاول الملازم أن يمنعها، ولكنها دفعته بعيداً واقتادت الصبي من عنقه. وحين أصبحت في الشارع وجهت إليه صفعتين وقالت له إنها في المرة القادمة ستخلع هي نفسها عنه سرواله لتضربه فلقة تاريخية على قفاه. وفي اليوم الذي ذهبت فيه إنيس لتخبر رياض حلبي بأنها قد قتلت أحد زبائنها، لم يراود هذا الأخير أي شك في أنها تتكلم بجدية، لأنه كان يعرفها جيداً. فأمسك بذراعها وسار معها مسافة الكوادرتين اللتين تفصلان **درة الشرق** عن بيتها. كان البيت واحداً من أفضل أبنية القرية، وكان مبنياً من اللبن والخشب، ويمتد سقفه في إفريز عريض تعلق تحته أراجيح النوم لقيلولة أكثر الأيام حراً، وكان في كل غرفة حمام ماء جار ومراوح للتهوية. لقد

كان يبدو في تلك الساعة مقفراً، إذ لم يكن هناك سوى نزيل واحد يشرب البيرة ونظره تائه في التلفزيون.

همس التاجر العربي:

- أين هو؟

فردت هي دون أن تخفض صوتها:

- في الغرف الخلفية.

قادته بحذاء صف غرف الإيجار، وكلها متصلة ببعضها البعض بممر مسقوف، فيه أزهار معرشة تتسلق الأعمدة وأصص سرخس تتدلى معلقة من دعائم السقف حول فناء تنمو فيه أشجار زعرور وموز. فتحت إنيس الباب الأخير ودخل رياض حلبي إلى الحجرة المعتمة. كانت الستائر مسدلة وقد احتاج لبضع لحظات كي تعتاد عيناه الظلمة وتريا فوق السرير جسد شيخ ذا مظهر مسالم، غريب وهرم، يسبح في بركة موته، بنطاله ملوث بالبراز ورأسه معلق بقطعة جلد زرقاء قاتمة، وعلى وجهه أمارات غم رهيب، كما لو أنه يعتذر عن كل تلك الفوضى وتلك الدماء، وعن المشكلة الرهيبة التي سببها بمقتله. جلس رياض حلبي على الكرسي الوحيد في الغرفة ونظره مصوب إلى الأرض، محاولاً السيطرة على تقلبات معدته. بقيت إنيس واقفة وهي تقاطع ذراعيها على صدرها، مقدرة في ذهنها أنها ستحتاج يومين لكي تنظف البقع ثم يومين آخرين لتهوية الغرفة من رائحة البراز والرعب.

وأخيراً سألها رياض حلبي وهو يمسح عرقه:

- كيف فعلت ذلك؟

- بسكين تقطيع جوز الهند. جئت من ورائه وضربته ضربة واحدة. ياله من شيطان بائس، حتى إنه لم ينتبه للأمر.

- لماذا؟

- كان علي أن أفعل ذلك. لاحظ سوء الحظ... هذا العجوز لم يكن يفكر بالتوقف هنا في أغوا سانتا، وبينما هو يجتاز القرية كسرت حصاة زجاج سيارته. جاء ليقضي بضع ساعات هنا ريثما يؤمن له إيطالي الكراج بديلاً للزجاج المكسور. لقد تغير كثيراً، جميعنا هرمنا كما يبدو، ولكنني عرفته فوراً. فقد انتظرته سنوات طويلة، وكنت موقنة من أنه سيأتي عاجلاً أو آجلاً. إنه صاحب المانغا.

فدمدم رياض حلبي:

- ليحمنا اللّه.

- هل ترى أن نستدعي الملازم؟

- ولا بأي حال، كيف يخطر لك هذا.

- إنني على حق، فهو من قتل ابني.

- لن يفهم الملازم ذلك يا إنيس.

- العين بالعين والسن بالسن أيها التوركو. أليس هذا ما يقوله دينك؟

- القانون لا يعمل على هذا النحو يا إنيس.

- حسن، يمكننا أن نعدّل وضعه قليلاً ونقول أنه انتحر.

- إياك أن تلمسيه. كم نزيلاً لديك في البيت اليوم؟

- سائق شاحنة واحد فقط. سيغادر عندما يخف الحر قليلاً، فعليه أن يقود شاحنته حتى العاصمة.

- حسن، لا تستقبلي أي زبون آخر. أغلقي باب هذه الغرفة بالمفتاح وانتظريني، سأرجع إليك في الليل.

- ما الذي ستفعله؟

ـ سأرتب هذا الأمر على طريقتي.

كان رياض حلبي في الخامسة والستين من عمره، ولكنه مازال يحتفظ بقوة الشباب وبالروح نفسها التي وضعته على رأس الحشد في اليوم الذي وصل فيه إلى أغوا سانتا. خرج من بيت المعلمة إنيس ومضى بخطوات سريعة إلى أولى الزيارات الكثيرة التي سيقوم بها ذلك المساء. وكانت هناك في الساعات التالية همسات لجوجة تجوب القرية التي نفض أهلوها عنهم سبات السنوات، وتحمسوا للخبر الخيالي فراحوا يتناقلونه من بيت لبيت في لغط لا ينتهي، خبر يغالب كي لا ينفجر في صرخات، وتمنحه قيمة خاصة ضرورة الحفاظ عليه مهموساً. وقبل غروب الشمس كان بالإمكان الإحساس في الجو بذلك الهياج القلق الذي سيميز القرية في السنوات التالية، والذي لن يستطيع فهمه الغرباء العابرون ممن لا يرون في هذا المكان أي شيء استثنائي، وإنما مجرد ضيعة تافهة مثل ضياع كثيرة أخرى عند تخوم الأدغال. بدأ الرجال يتوافدون على الحانة منذ وقت مبكر، وخرجت النساء إلى الأرصفة ومعهن كراسي المطبخ، وجلسن لاستنشاق الهواء، واجتمع الشباب في الساحة وكأن اليوم هو يوم أحد. قام الملازم ورجاله بجولتين روتينيتين ثم وافقوا على دعوة فتيات الماخور اللواتي كن يحتفلن بعيد ميلاد إحداهن على حد قولهن. وعند الغروب كان هناك في الشارع أناس أكثر مما يجتمع في يوم عيد جميع القديسين، وكان كل واحد مشغولاً بما يقوم به باهتمام ظاهري كبير يبدو معه وكأنه يمثل في فيلم، فبعضهم يلعبون الدومينو، وآخرون يشربون الروم أو يدخنون عند الناصية، بعض العشاق يتمشون متأبطين أيدي بعضهم بعضاً، والأمهات يداعبن أولادهن، والجدات يتلصصن عبر الأبواب المفتوحة. أشعل الخوري أضواء برج الكنيسة وراح يقرع الأجراس داعياً لصلاة القديس

ايسيدورو الشهيد، ولكن أحداً لم يكن ليهتم حينذاك بهذا النوع من التقوى.

في الساعة التاسعة والنصف اجتمع في بيت المعلمة إنيس كل من العربي، وطبيب القرية وأربعة شبان كانت هي نفسها قد علمتهم الحروف الأولى، وقد أصبحوا الآن رجالاً عادوا لتوهم من الخدمة العسكرية. قادهم رياض حلبي إلى الغرفة الأخيرة حيث وجدوا الجثة مغطاة بالحشرات، لأن النافذة كانت مفتوحة وكان ذلك الوقت هو موعد البرغش. حشروا ذلك البائس في كيس من قماش سميك وحملوه إلى الشارع، ثم ألقوا به دون أي احتفالية في الجزء الخلفي من سيارة رياض حلبي. اجتازوا القرية كلها عبر الشارع الرئيسي وهم يحيون كالعادة الأشخاص الذين يصادفونهم. وقد رد البعض على تحيتهم بحماسة مبالغ فيها، بينما تظاهر آخرون بعدم رؤيتهم وهم يضحكون خفية مثل أطفال فوجئوا أثناء قيامهم بشقاوة خبيثة. اتجهت الشاحنة الصغيرة إلى المكان الذي انحنى فيه ابن المعلمة إنيس قبل سنوات طويلة ليلتقط ثمرة مانغا. ورأوا على ضوء القمر المزرعة التي غمرتها الأعشاب الضارة بسبب الهجر، وأتلفتها الشيخوخة والذكريات الخبيثة، ورأوا رابية متشابكة تنمو عليها أشجار المانغا مثل نباتات برية، وتتساقط الثمار عن الأغصان لتتعفن على الأرض وتتفتح أشجاراً جديدة تتولد بدورها عن أشجار أخرى، وهكذا دواليك إلى أن تكونت غابة كتيمة ابتلعت السياج والدرب، بل وفراغات البيت الذي لم يبق منه إلا أثر رائحة مربى لا تكاد تشمها الأنوف. أضاء الرجال قناديل الكيروسين وتوغلوا في الحرش وهم يشقون طريقهم بضربات المتشيتي. وحين رأوا أنهم قد تقدموا مسافة كافية أشار أحدهم إلى الأرض، وهناك عند أصل شجرة ضخمة مثقلة بالثمار، حفروا حفرة عميقة وأودعوا فيها الكيس. وقبل أن يغطوه بالتراب، رتل رياض

حلبي أدعية إسلامية قصيرة، لأنه لم يكن يعرف غيرها. رجعوا إلى القرية عند منتصف الليل ورأوا أن أحداً لم ينسحب إلى بيته بعد، وأن الأنوار ما تزال مضاءة في كل النوافذ، وأن الناس يتجولون في الشوارع.

وفي أثناء ذلك كانت المعلمة إنيس قد غسلت جدران الغرفة وأثاثها بالماء والصابون، وأحرقت شراشف السرير، وهوّت البيت وجلست تنتظر أصدقاءها وقد أعدت العشاء ومعه إبريق روم وإبريق عصير اناناس. تناولوا العشاء في جو بهيج وهم يعلقون على مصارعة الديكة الأخيرة، تلك الرياضة الهمجية حسب قول المعلمة، ولكن الرجال تعللوا بالقول إنها أقل همجية من مصارعة الثيران التي فقد فيها مصارع كولومبي كبده قبل وقت قصير. وكان رياض حلبي هو آخر المغادرين. وقد أحس في تلك الليلة، للمرة الأولى في حياته بأنه قد هرم. وعند الباب أمسكت المعلمة إنيس بيديه وأبقتهما للحظة بين يديها، وقالت:

ـ شكراً أيها التوركو.

ـ لماذا استدعيتني أنا يا إنيس؟

ـ لأنك أكثر شخص أحبه في هذه الدنيا، وأنت من كان يجب أن يكون والد ابني.

في اليوم التالي عاد أهالي أغوا سانتا إلى أعمالهم المعهودة وقد تعاظموا في تواطئهم الكبير، وفي تقاسمهم كجيران طيبين سراً مشتركاً سيحافظون عليه بحمية، ويتناقلونه فيما بينهم لسنوات طويلة كأسطورة عن العدالة، إلى أن حررتنا المعلمة إنيس من ذلك السر وصار بإمكاني أن أرويه الآن.

مع كل الاحترام اللازم

كانا محتالين اثنين: هو له وجه قرصان، وشعر وشارب مصبوغان بلون الكهرمان الأسود، ولكنه مع مرور الوقت استبدل أسلوبه وأظهر الشيب الذي خفف من قسوة ملامحه ومنحه مظهراً أكثر رصانة. أما هي فكانت امرأة مربوعة لها تلك البشرة الحليبية التي تميز السكسونيات ذوات الشعر الأشقر.. بشرة تعكس الضوء في لطخات متلألئة في مرحلة الشباب، ولكنها تتحول في الكهولة إلى ما يشبه الورق الملوث ببقع متفرقة. والسنوات التي أمضتها في معسكرات حقول البترول وفي المدن الحدودية المتخلفة لم تُجهز على قوتها التي ورثتها عن أسلافها الاسكتلنديين. ولم يستطع البعوض ولا الحر ولاسوء الاستخدام استنفاد جسدها أو التقليل من رغبتها في التسلط وإصدار الأوامر. ففي الرابعة عشرة من عمرها هجرت أباها، القس البروتستانتي الذي كان يعظ مبشراً بالكتاب المقدس في أعماق الأدغال، وهو عمل لم يكن يجدي أي نفع، لأن أحداً هناك لم يكن يفهم شيئاً من رطانته الإنكليزية، ولأن الكلمات كلها، بمافي ذلك كلمة الرب، كانت تضيع في تلك الأنحاء وسط لغط الطيور.

كانت قامة الفتاة في تلك السن قد وصلت إلى طولها النهائي، وكانت في أوج سيطرتها على شخصيتها. ولم تكن طفلة تتحكم بها العواطف. فقد رفضت، واحداً بعد آخر، جميع الرجال الذين تقدموا عارضين عليها الحماية يجتذبهم لهيب شعرها المتوهج، النادر في المنطقة

المدارية. لم تكن قد سمعت بالحب، ولم يكن في طبعها ما يمكّنها من ابتداعه، ولكنها عرفت بالمقابل كيف تستغل على خير وجه الميزة الوحيدة لديها. وحين أكملت عشرين سنة من عمرها، كانت قد أصبحت تملك حفنة من قطع الماس تخبئها في جراب مخيط بين طيات تنورتها. وقد قدمت تلك الحفنة دون تردد إلى دومينغو تورو، الرجل الوحيد الذي استطاع شكمها، والمغامر الذي كان يجوب المنطقة ليصطاد التماسيح ويتاجر بالأسلحة والويسكي المغشوش. لقد كان محتالاً بلا وازع من ضمير والرفيق المناسب تماماً لتلك المرأة المدعوة ابيغايل ماكغوفيرن.

كان على الزوجين في الأزمنة الأولى أن يبتكرا أنواعاً من الصفقات فيها شيء من الغرابة لكي يزيدا رأسمالهما. فبثمن ما لديها من الماس وببعض المدخرات التي كان قد جمعها هو من التهريب ومن بيع جلود العظاءات والغش في القمار، اشترى دومينغو "فيشات" قمار من الكازينو المحلي، لأنه عرف أنها مطابقة تماماً لفيشات كازينو آخر في الجانب الآخر من الحدود، حيث قيمة النقد أعلى بكثير. واستطاع إنجاز تلك العملية مرتين قبل أن تتمكن السلطات من قرع جرس الإنذار، ولكنها حين فعلت ذلك رأت أنها لا تستطيع أن تتهمه بأي عمل غير شرعي، فالفيشات هي نفسها. وفي أثناء ذلك كانت ابيغايل تتاجر بأوان فخارية تشتريها من القرويين وتبيعها لأمريكيي الشركة البترولية على أنها قطع أثرية. وقد كانت ماهرة في ذلك لدرجة أنها سرعان ما وسّعت تجارتها إلى لوحات مزيفة من العهد الاستعماري، كان يرسمها لها طالب في ركن وراء الكاتدرائية ويتم تعتيقها على عجل بماء البحر والهباب وبول القطط. وكانت في أثناء ذلك قد تخلصت من أساليب وبذاءات الرعاع، وقصت شعرها وبدأت تلبس ثياباً غالية. ومع أن ذوقها كان شديد المبالغة وكانت

جهودها للظهور بمظهر أنيق تبدو واضحة جداً، إلا أنه كان بالإمكان النظر إليها على أنها سيدة مجتمع. وقد سهّل ذلك من توسيع علاقاتها الاجتماعية وساهم في ازدهار تجارتها. كانت تتفق مع زبائنها على اللقاء في الفندق الإنكليزي، وبينما هي تقدم الشاي بحركات رصينة تعلمت أن تقلدها، كانت تتكلم عن حفلات صيد وبطولات تنس في أماكن مفترضة ذات أسماء إنكليزية لايمكن لأحد أن يحدد موقعها على الخريطة. وبعد فنجان الشاي الثالث تبدأ الحديث بلهجة سرية عن موضوع هذا اللقاء، فتعرض صوراً للقطع الأثرية المزعومة وتوضح جيداً أن نيتها هي إنقاذ هذه الكنوز من الإهمال المحلي، وتقول إن الحكومة لا تملك الموارد لحفظ تلك الآثار الثمينة. وإنه، بالرغم من أن تهريبها إلى خارج البلاد هو عمل غير شرعي، إلا أنه عمل يدل على وعي أركيولوجي.

وما إن رسّخ آل تورو أسس ثروتهم الصغيرة، حتى فكرت ابيغايل في تأسيس نسب أصيل لأسرتها وسعت لاقناع دومينغو بضرورة الحصول على كنية جيدة.

- وما هو السيئ في كنيتنا؟

فردت ابيغايل:

- لا أحد يرضى بكنية تورو. إنها كنية تصلح لخمّار.

- إنها كنية أبي ولست أفكر في استبدالها.

- في هذه الحالة يتوجب علينا أن نقنع الجميع بأننا أثرياء.

اقترحت عليه شراء أراض وزراعة الموز والبن مثل القوط القدماء، ولكن لم ترق له فكرة الذهاب إلى الأقاليم الداخلية، حيث البراري الخاضعة لرحمة عصابات اللصوص والجيش أو رجال حرب العصابات

والحيات وكل أنواع الأوبئة؛ وكان يرى أنه من الحمق الذهاب إلى الأدغال للبحث عن الفرص المتوافرة في متناول اليد وسط العاصمة، وأنه من الأفضل العمل في التجارة مثل آلاف السوريين واليهود الذين يأتون وليس معهم إلا حزمة بائسة على ظهورهم، ثم لا يلبثون أن ينعموا بالرفاه بعد سنوات قليلة.

فقالت له:

ـ لا أريد شيئاً من الأساليب التركية. ما أريده هو تكوين أسرة محترمة، حيث يطلق علينا الجميع لقب "دون" و"دونيا" ولا يتجرأ أحد على التحدث إلينا دون أن يرفع قبعته احتراماً.

ولكنه أصر على موقفه فاضطرت هي إلى الامتثال لقراره، مثلما تفعل على الدوام تقريباً، لأنها كلما عارضت زوجها ووقفت في وجهه كان يعذبها بفترات طويلة من الهجران والصمت. فقد كان يختفي حينئذ من البيت لعدة أيام، ويرجع منهوكاً من غراميات سرية، فيبدل ملابسه ويعود للخروج ثانية تاركاً ابيغايل غاضبة في أول الأمر ثم مفزعة من فكرة فقدانه. لقد كانت امرأة عملية، لا أثر فيها للمشاعر الرومنسية، وإذا كانت لديها بذرة من الرقة يوماً، فإن سنوات حياتها السيئة قد قوضتها، ولكن دومينغو كان الرجل الوحيد الذي يمكنها تحمله، ولم تكن مستعدة لتركه يمضي. وما إن تتراجع ابيغايل عن موقفها المعارض، حتى يعود هو إلى النوم في سريرها. لم تكن هناك مصالحات صاخبة، وإنما كانا يستعيدان ببساطة إيقاع روتينهما السابق ويعودان إلى التواطؤ في حيلهما.

أقام دومينغو تورو سلسلة من المتاجر في الأحياء الفقيرة، حيث كان

يبيع بأسعار رخيصة، ولكن بكميات كبيرة. وقد استخدم تلك المتاجر واجهة لأعمال أقل شرعية. واستمرا في جمع الأموال، واستطاعا دفع قيمة ممارسات الأثرياء الشاذة، ولكن ابيغايل لم تكن راضية، لأنها أدركت أن العيش في ترف هو أمر مختلف كثيراً عن كونها مقبولة في المجتمع. فكانت تقول لزوجها:

- لو أنك استمعت لنصيحتي لما اعتبرونا مثل التجار العرب. انظر إلى نفسك كيف تبيع الخرق الرخيصة!

- لست أدري ممَ تشكين، فنحن لدينا كل شيء.

- واصل العمل في دكاكينك التي تقيمها للفقراء إذا كان هذا هو ما تريده، أما أنا فسأشتري خيول سباق.

- خيول؟ وما الذي تعرفينه أنت عن الخيول يا امرأة؟

- أعرف أنها أنيقة، وأن كل الناس الأكابر لديهم خيول.

- سننتهي إلى الإفلاس!

استطاعت ابيغايل أن تفرض مشيئتها لمرة واحدة، وقد تأكد لهما بعد وقت قصير بأن الفكرة لم تكن سيئة. فقد منحتهما الحيوانات فرصة التعامل مع عائلات المربين العريقين، كما أثبتت أنها تجارة مربحة. وبالرغم من أن صور الزوجين تورو صارت تظهر بكثرة في صفحات الفروسية في الصحافة، إلا أنها لم تظهر مطلقاً في صفحة المجتمع. كان الغيظ يملأ ابيغايل، فتزيد من مباهاتها في المظاهر أكثر فأكثر. أوصت على طقم سفرة من الخزف تزين كل قطعة منه صورة لها مرسومة باليد، وكؤوس من الكريستال المحفور، ومفروشات تزين قوائمها أشكال هائجة، إضافة إلى مقعد بالٍ ادعت أنه لقية أثرية من العهد الاستعماري،

وقالت للجميع إنه كان يخص **بطل التحرير**، ولهذا السبب ربطته بحبل أحمر من الأمام حتى لا يضع أحد مؤخرته حيث فعل ذلك **أبو الوطن**. وتعاقدت مع مربية ألمانية لأبنائها، ومع متشرد هولندي ألبسته ثياب أميرال ليقود يخت الأسرة. الأثر الوحيد الذي بقي من الماضي هو وشم دومينغو القرصاني، وتشوه في ظهر ابيغايل نتيجة تلويها وهي مفتوحة الساقين في أزمنتها الوحشية؛ ولكن زوجها أخفى الوشم بأكمام طويلة، وصنعت هي مشداً لخصرها من الحديد المغطى بوسائد حريرية لتحول دون إذلال ألم الظهر لوقارها. لقد كانت قد تحولت في ذلك الحين إلى امرأة بدينة تغطيها المجوهرات وكأنها نيرون. وقد سببت لها طموحاتها تشوهات جسدية لم تتوصل مغامراتها في الأدغال إلى إحداثها.

ومن أجل اجتذاب صفوة المجتمع الراقي، كان آل تورو يقيمون كل سنة في موسم الكرنفال، حفلة تنكرية ضخمة: فمرة يقلدون أجواء بغداد ويجلبون فيلاً وجمالاً من حديقة الحيوان، ويُلبسون جيشاً من الخدم الملابس البدوية، أو يقيمون حفلة راقصة على غرار حفلات فرساي، يرتدي فيها المدعوون بدلات من حرير مزركش وباروكات معفرة ويرقصون رقصة المينويه بين مرايا متقابلة؛ وحفلات أخرى فاضحة شكلت جزءاً من الأساطير المحلية وكانت سبباً في حملات تشهير عنيفة تشنها صحف اليسار. فكان لابد من فرض حراسة على البيت لكبح الطلاب الساخطين من ذلك الترف التبذيري ومنعهم من كتابة الشعارات على الأعمدة أو قذف البراز من النوافذ بحجة أن الأثرياء يملؤون أحواض حماماتهم بالشمبانيا، بينما الفقراء الجدد يصطادون القطط على السطوح ليأكلوها. لقد منحتهم تلك الحفلات الصاخبة بعض الاحترام، لأن الخط الفاصل بين الطبقات الاجتماعية كان آخذاً في الاضمحلال آنذاك، فقد كان يصل

إلى البلاد أناس من كل أصقاع الأرض تجتذبهم روائح البترول النتنة، وكانت العاصمة تتوسع دون ضابط أو نظام، والثروات تتراكم وتضيع في مثل لمح البصر، ولم تكن ثمة إمكانية لتقصي أصول كل شخص ونسبه. ومع ذلك، فإن الأسر العريقة كانت تحتفظ بمسافة بينها وبين آل تورو، بالرغم من أن تلك الأسر نفسها كانت تنحدر من مهاجرين آخرين أحقيتهم الوحيدة هي أنهم وصلوا إلى هذه السواحل قبل نصف قرن من سواهم. لقد كانوا يحضرون مآدب دومينغو وابيغايل، ويتنزهون أحياناً في البحر الكاريبي في اليخت الذي تقوده يد الربان الهولندي الثابتة، ولكنهم لا يردون على ذلك الاهتمام بالمثل. وربما كانت ابيغايل ستقتنع بموقع في الصف الثاني، لولا أن حدثاً مفاجئاً قلب حظها رأساً على عقب.

في عصر ذلك اليوم من شهر آب، استيقظت ابيغايل من قيلولتها وقد أنهكها الحر الشديد. وكان الحر والهواء محملين بنذر عاصفة وشيكة. ارتدت فستاناً حريرياً فوق المشد، وأمرت السائق بأن يوصلها إلى صالون التجميل. اجتازت السيارة الشوارع المزدحمة بحركة المرور وزجاج نوافذها مغلق، للحيلولة دون إقدام أحد الحاقدين ـ هؤلاء الذين يزدادون عدداً كل يوم ـ من أن يبصق على السيدة من النافذة. وتوقفت أمام صالون التجميل في الساعة الخامسة تماماً، حيث دخلت بعد أن أمرت السائق بالعودة بعد ساعة من ذلك . وعندما رجع الرجل لأخذها لم تكن ابيغايل موجودة هناك. وقد أخبرته عاملات تصفيف الشعر في المحل بأن السيدة قالت لهن بعد خمس دقائق من وصولها، إنها ذاهبة للقيام بجولة قصيرة، ولكنها لم ترجع. في أثناء ذلك تلقى دومينغو تورو في مكتبه أول مكالمة هاتفية من "**أسود البوما الحمراء**"، وهي جماعة متطرفة لم يسمع أحد بها من قبل، وقد أخبروه بأنهم قد اختطفوا زوجته.

هكذا بدأت الفضيحة التي أنقذت سمعة آل تورو. اعتقلت الشرطة السائق وعاملات محل التجميل، وجرى تفتيش أحياء بكاملها وتطويق بيت آل تورو، مع ما رافق ذلك من إزعاج للجيران. وأغلقت حافلة من التلفزيون الشارع لعدة أيام، وراحت أفواج من الصحفيين والمخبرين والفضوليين تجوس مرابع العشب في البيوت. ظهر دومينغو تورو على الشاشات وهو جالس على مقعد الجلد في مكتبته مابين خريطة للعالم وفرس محنطة، متوسلاً إلى الخاطفين أن يعيدوا إليه أم أبنائه. رجل السلع الرخيصة، كما أسمته الصحافة، عرض مليوناً مقابل إطلاق سراح زوجته، وهو رقم كبير جداً، لأن جماعة أخرى من رجال حرب العصابات لم تحصل إلا على نصف هذا المبلغ مقابل الإفراج عن سفير بلد شرق أوسطي. ولكن **أسود ألبوما الحمراء** وجدوا أن المبلغ غير كافٍ وطالبوا بضعفه. وبعد ظهور صورة ابيغايل في الصحف، فكر كثيرون في أن أفضل صفقة يمكن لدومينغو القيام بها هي دفع المبلغ، ولكن ليس من أجل استرداد زوجته، وإنما لكي يحتفظ الخاطفون بها. وقد تعالت في أنحاء البلاد صرخات عدم التصديق حين أعلن الزوج، بعد استشارات عاجلة مع مصرفيين ومحامين، عن موافقته على الدفع، بالرغم من تحذيرات الشرطة له. وقبل ساعات من تسليم المبلغ المتفق عليه، تلقى الزوج بالبريد خصلة شعر شقراء ورسالة تقول إن الثمن قد ارتفع ربع مليون آخر. وفي تلك الأثناء كان أبناء تورو يظهرون في التلفزيون أيضاً ليبعثوا رسائل وفاء يائس إلى ابيغايل. وراح المزاد المشؤوم يرفع المبلغ يوماً بعد يوم أمام عيون الصحافة المتيقظة.

ولم تنته الدهشة إلا بعد خمسة أيام من ذلك، تماماً عندما بدأ فضول الجمهور يتجه نحو أمور أخرى. فقد ظهرت ابيغايل مقيدة ومكممة في سيارة متوقفة في مركز المدينة، وكانت عصبية ويائسة بعض الشيء،

ولكن دون أي كدمات ظاهرة، بل إنها بدت أكثر سمنة مما كانت عليه. وفي مساء اليوم الذي رجعت فيه ابيغايل إلى بيتها، اجتمع حشد صغير في الشارع ليصفق لذلك الزوج الذي أظهر دليلاً لا يدحض على حبه.

ورغم إلحاح الصحفيين ومطالبة الشرطة، أصر دومينغو تورو على التمسك بموقف المتكتم الشهم، ورفض الكشف عن المبلغ الذي دفعه قائلاً إن زوجته لا تقدر بثمن. وقد تداولت المبالغة الشعبية رقماً لا يمكن تصديقه، ويزيد كثيراً عما دفعه أي رجل على الإطلاق مقابل امرأة، وخصوصاً إذا كانت امرأته. لقد حوّلت هذه الحادثة آل تورو إلى رمز للثراء، وقيل إنهم لا يقلون ثراء عن رئيس البلاد الذي استغل لسنوات عائدات بترول الأمة، وقُدر بأنه أحد أكبر خمسة أثرياء في العالم. ووصل دومينغو وابيغايل إلى المجتمع الراقي الذي لم يُتَح لهما دخوله حتى ذلك الحين. ولم يعكر صفو انتصارهما أي شيء، حتى ولا احتجاجات الطلاب العلنية، الذين علقوا في الجامعة لافتة اتهموا فيها ابيغايل باختطاف نفسها، واتهموا زوجها بأنه أخرج الملايين من أحد جيوبه ليدسها في جيب آخر دون أن يدفع ضرائب، واتهموا الشرطة بابتلاع حكاية **أسود البوما الحمر** لإخافة الناس وتبرير عمليات التطهير ضد أحزاب المعارضة. ولكن ألسنة السوء لم تستطع تحطيم الأثر العظيم الذي أحدثته عملية الاختطاف. وبعد عقد من السنوات كان آل تورو ـ ماكغوفيرن قد تحولوا إلى واحدة من أكثر عائلات البلاد احتراماً.

انتقام

في ظهيرة اليوم الذي توّجوا فيه دولسي روسا اوريانو بإكليل الياسمين كملكة جمال للكرنفال، تهامست أمهات المرشحات الأخريات بأن منحها اللقب لم يكن عادلاً، وأنها نالته لكونها الابنة الوحيدة للسيناتور انسيلمو اوريانو، أوسع الرجال نفوذاً في الإقليم كله. كن متفقات على أنها صبية جميلة، وأنها تعزف البيانو وترقص خيراً من الأخريات، إنما هناك متقدمات للجائزة يفقنها جمالاً. رأينها وهي تقف على المنصة محيية الجموع، بثوبها السابغ المصنوع من حرير الأورغنزة وتاج الأزاهير على رأسها، فلعنها وهن يضغطن على أسنانهن. ولهذا السبب، كان بينهن من شعرن بالسعادة بعد بضعة شهور، حين ولج سوء الطالع بيت آل اوريانو ليزرع فيه كوارث متعددة تطلب جني حصادها انقضاء ثلاثين سنة.

في ليلة انتخاب ملكة الجمال، أُقيمت حفلة رقص في مبنى بلدية سانتا تيريسا، توافد إليها الشبان من القرى البعيدة ليتعرفوا على دولسي روسا التي كانت تتنقل بسعادة غامرة وترقص برشاقة عالية، وحين رجعوا إلى قراهم قالوا إنهم لم يروا من قبل قطّ وجهاً مثل وجهها. وبهذا نالت سمعة في الجمال الخارق أكبر مما تستحق، لكن أي شهادة تالية لم تكن قادرة على تبديل تلك السمعة. وانتقلت المبالغة في وصف بشرتها الشفافة وعينيها الصافيتين من فم لفم، فكان كل راوٍ يضيف إلى محاسنها شيئاً من مخيلته. ونظم شعراء المدن البعيدة سوناتات في جمال آنسة خيالية اسمها دولسي روسا.

وصلت الإشاعات عن هذا الجمال المتفتح في بيت السيناتور اوريانو إلى مسامع تاديو ثيسبيدس الذي لم يكن ليخطر له على بال أنه سيتعرف عليها، لأنه ما كان يجد خلال سنوات عمره الخمس والعشرين متسعاً من الوقت لقراءة الأشعار أو للنظر إلى النساء. فقد كان اهتمامه كله منصباً على الحرس الأهلي وحسب. فمنذ بدأ حلاقة شاربه وهو يحمل سلاحاً في يده، ومنذ زمن بعيد وهو يعيش وسط دوي البارود. كان قد نسي قبلات أمه، ونسي أغنياتها له كذلك. ومع أنه لم يكن يجد المبررات دوماً للدخول في معارك، لعدم وجود خصوم في متناول يد عصبته خلال بعض فترات الهدنة، إلا أنه كان يعيش حياة قرصان حتى في أزمنة السلم الاضطراري. لقد كان رجلاً معتاداً على العنف. يجوب البلاد في كل الاتجاهات مقاتلاً ضد أعداء مرئيين حين يكون ثمة وجود لهؤلاء الأعداء، وضد الأشباح حين يتوجب عليه اختراع أعداء وهميين. وكانت حياته ستستمر على هذا المنوال لو لم يفز حزبه في انتخابات الرئاسة. وهكذا تحول بين ليلة وضحاها من حياة السرية إلى ممارسة السلطة، ولم تبق هناك مبررات لاستمراره في أعمال الشغب.

آخر مهمات تاديو ثيسبيدس كانت الحملة العقابية ضد بلدة سانتا تيريسا. دخل القرية ليلاً ومعه مئة وعشرون رجلاً ليجعل منها عبرة لمن يعتبر وليصفي زعماء المعارضة فيها. أطلق رجاله الرصاص على نوافذ الأبنية العامة، وحطموا بوابة الكنيسة ودخلوا على صهوات الجياد حتى المذبح، وسحقوا الأب كليمنتي الذي اعترض سبيلهم، وأضرموا النار في الأشجار التي زرعتها لجنة السيدات في الساحة ثم واصلوا العدو على جيادهم بصخب حربي باتجاه بيت السيناتور اوريانو الذي كان ينتصب شامخاً فوق الرابية.

انتظر السيناتور مجيء تاديو ثيسبيدس على رأس اثني عشر رجلاً من رجاله الأوفياء، بعد أن حبس ابنته في الحجرة الأخيرة في الفناء، وأفلت الكلاب. وفي تلك اللحظة أحس بالأسف، مثلما أحس به مرات كثيرة في حياته، لأنه لم ينجب أبناء ذكوراً يساعدونه في حمل السلاح والدفاع عن شرف بيته. أحس أنه عجوز جداً، ولكن لم يُتَح له الوقت للتأمل في ذلك، فقد رأى على سفوح الرابية الوميض الرهيب المنبعث من مئة وعشرين مشعلاً تدنو مبددة ظلمة الليل. وزّع آخر الذخائر على رجاله بصمت، لأن كل شيء كان قد أُعد، وكان كل واحد منهم يعرف أنه عليه أن يموت كرجل في موقعه القتالي قبل حلول الفجر.

قال السيناتور حين سمع صوت الطلقات الأولى:

ـ على آخر من سيبقى حياً منا أن يأخذ مفتاح الحجرة التي فيها ابنتي لينفذ واجبه الأخير.

جميع أولئك الرجال كانوا قد رأوا دولسي روسا يوم ولدت، وحملوها على ركبهم حين كانت ما تزال صغيرة لا تكاد تقوى على المشي، وقصوا عليها حكايات الأشباح في الأمسيات الشتائية، وساعدوها في تعلم العزف على البيانو وصفقوا لها والدموع في عيونهم يوم تتويجها ملكة للكرنفال. لذلك يمكن لأبيها أن يموت مطمئناً، فصغيرته لن تقع أبداً وهي على قيد الحياة في يدي تاديو ثيسبيدس. لكن الشيء الوحيد الذي لم يخطر مطلقاً ببال السيناتور أوريانو، على الرغم من خوفه أثناء المعركة، هو أن يكون هو نفسه آخر من يموت. رأى رفاق دربه وهم يسقطون واحداً بعد الآخر، وأدرك أخيراً أنه لاجدوى من مواصلة المقاومة. كان مصاباً برصاصة في بطنه، زائغ البصر لا يكاد يميز الأشباح التي تتسلق أسوار إقطاعيته العالية، لكن القدرة على الإدراك لم تخنه،

فجرجر نفسه إلى الفناء الثالث. تعرفت الكلاب على رائحته رغم العرق والدم والأسى الذي يلفه، فابتعدت عنه لتفسح له الطريق. أدخل المفتاح في القفل، ثم فتح الباب الثقيل، ومن خلال الغشاوة التي تغطي عينيه رأى دولسي روسا تنتظره. كانت الصبية تلبس فستان حرير الأورغنزة نفسه الذي لبسته في حفلة الكرنفال، وتزين شعرها بإكليل الأزاهير.

قال لها وهو يهيئ سلاحه بينما بركة الدم تتسع حول قدميه:

ـ لقد حانت الساعة يا ابنتي.

فردت عليه بصوت ثابت:

ـ لا تقتلني يا أبي. دعني أعيش لأنتقم لك ولي.

تأمل السيناتور اوريانو وجه ابنته ذات الخمسة عشر عاماً وتخيل ما الذي سيفعله بها تاديو ثيسبيدس، ولكنه رأى حصناً هائلاً في عيني دولسي روسا البراقتين وأدرك أنه يمكنها أن تعيش لتعاقب جلاده. جلست الصبية على السرير، وجلس هو إلى جانبها مصوباً سلاحه باتجاه الباب.

حين هدأت ضجة الكلاب المحتضرة، انخلع رتاج الباب، وطار القفل واندفع الرجال الأوائل إلى الحجرة. تمكن السيناتور من إطلاق ست رصاصات قبل أن يغيب عن الوعي. وظن تاديو ثيسبيدس أنه في حلم حين رأى ملاكاً متوجاً بالياسمين يسند بين يديه شيخاً محتضراً، بينما ثوب ذلك الملاك يتضمخ بالأحمر. لكنه لم يجد في نفسه من الرأفة ما يمكنه من التفكير، فقد كان ثملاً بالعنف ومتوتر الأعصاب بعد ساعات من القتال. فقال قبل أن يضع رجاله أيديهم عليها:

ـ المرأة لي...

أشرق يوم الجمعة رصاصياً شاحباً ومصبوغاً بوميض الحريق. كان

الصمت يخيم على الرابية، وكانت آخر الحشرجات قد خمدت حين تمكنت دولسي روسا من النهوض على قدميها والسير حتى نافورة الحديقة التي كانت محاطة بأزهار المانوليا في اليوم السابق، ولم تعد الآن سوى بركة راكدة وسط الأنقاض. لم يكن قد بقي على جسدها من ثوبها سوى مزق من الحرير، نزعتها عن جسمها بتثاقل لتتعرى، وغطست في الماء البارد. بزغت الشمس من بين أشجار الحور وتمكنت الفتاة من رؤية المياه تصطبغ باللون الوردي وهي تغسل الدم الذي تدفق من بين ساقيها، ودم أبيها الذي جف على شعرها. وعندما انتهت من نظافتها، عادت إلى بيتها المخرب بهدوء وبلا دموع، وبحثت عن شيء تستر به نفسها، ثم أخذت شرشفاً وخرجت إلى الطريق لتلم بقايا السيناتور.

كانوا قد ربطوه من قدميه ليسحلوه وهم على صهوات الجياد فوق سفوح الرابية إلى أن حولوه إلى مزق محزنة. لكن ابنته المدفوعة بالحب استطاعت التعرف على جثته دون تردد.. لفته بقطعة القماش وجلست إلى جانبه متأملة تقدم النهار. وهكذا وجدها أهالي سانتا تيريسا حين تجرؤوا على الصعود إلى بيت آل اوريانو. ساعدوا دولسي روسا في دفن الموتى وأطفؤوا بقايا الحريق وتوسلوا إليها أن تذهب لتعيش مع عرابتها في قرية أخرى، حيث لا أحد يعرف قصتها، لكنها رفضت. حينئذ شكلوا أنفسهم في مجموعات لإعادة بناء البيت وأهدوا إليها ستة كلاب قوية لحمايتها.

منذ اللحظة التي حملوا فيها أباها وهو ما يزال على قيد الحياة، وأغلق تاديو ثيسبيدس الباب وراءه وفك حزامه الجلدي، عاشت دولسي روسا من أجل الانتقام. وخلال السنوات الثلاثين التالية أرقت هذه الفكرة لياليها وشغلت نهاراتها، ولكنها لم تمح ابتسامتها ولم تجفف طيبتها. واتسع صيت جمالها لأن المنشدين كانوا يجوبون كل الأنحاء متغنين

بمحاسنها الخيالية، إلى أن جعلوا منها أسطورة حية. كانت تنهض كل يوم في الرابعة فجراً لتدير العمل في الحقل والبيت، وتذرع أملاكها على صهوة جواد، وتبيع وتشتري وهي تساوم مثل تاجر سوري، وتربي الحيوانات وتزرع المانوليا والياسمين في حديقتها. وفي الأصيل تخلع ملابس الرجال التي ترتديها للعمل وتنزع الجزمة والسلاح وترتدي الملابس الناعمة التي تصلها من العاصمة في صناديق معطرة. وعند الغروب يبدأ زوارها بالمجيء فيجدونها تعزف على البيانو، بينما الخادمات يهيئن صواني الحلوى وكؤوس شراب اللوز. كثيرون كانوا يتساءلون كيف لم ينته بها الأمر إلى مصح للأمراض العقلية أو للتحول إلى مستجدة مع الراهبات الكرمليات. ومع ذلك، ولكثرة الحفلات التي كانت تقام في فيلا آل اوريانو، توقف الناس مع مرور الزمن عن الحديث عن المأساة وتلاشت ذكرى السيناتور المقتول. واستطاع بعض الرجال المشهورين والأثرياء تجاوز وصمة الاغتصاب وعرضوا عليها الزواج، تجذبهم إلى ذلك شهرة جمال دولسي روسا ووقارها. لكنها صدتهم جميعاً، لأن مهمتها الوحيدة في هذه الحياة هي الانتقام.

لم يستطع تاديو ثيسبيدس كذلك أن ينزع من ذاكرته ليلة حياته تلك. لقد نسي أثر المذبحة ومتعة الاغتصاب بعد ساعات قليلة حين كان في طريقه إلى العاصمة لتقديم تقرير عن حملته التأديبية. ووردت إلى ذهنه صورة الصبية ذات ثوب الرقص الحريري المتوجة بالياسمين، التي تحملته بصمت في تلك الحجرة القاتمة حيث كان الهواء يعبق برائحة البارود. ورآها بعد ذلك وهي في الوضع الذي كانت عليه في اللحظة الأخيرة، ملقاة على الأرض، ومغطاة كيفما اتفق بأسمالها الملوثة بالأحمر، غارقة في سبات اللاوعي الرؤوف. وبقي يراها في تلك الحالة كلما حاول النوم

في كل ليلة من ليالي حياته المتبقية. لقد حوّله استتباب السلام وممارسة الحكم واستخدام السلطة إلى رجل رصين ومجد. ومع مرور الزمن تبددت ذكريات الحرب الأهلية وصار الناس ينادونه (دون تاديو). اشترى مزرعة في الجانب الآخر من سلسلة الجبال، وتفرغ لإدارة أمور العدالة وانتهى به الأمر ليصبح عمدة. وربما كان سيتمتع ببعض السعادة لولا شبح دولسي روسا اوريانو الذي لم يكن يفارقه. فقد كان وجه ملكة جمال الكرنفال يظهر له في كل النساء اللواتي عبرن في طريقه، وفي كل أولئك اللواتي احتضنهن بحثاً عن العزاء، وفي كل الغراميات التي سعى إليها على امتداد السنين. ومن سوء حظه أن أغاني الشعراء الشعبيين التي كانت تحمل اسمها أحياناً لم تكن تسمح له بإبعادها عن قلبه. لقد نمت صورة الفتاة فيه لتحتله كاملاً، إلى أن جاء يوم لم يعد قادراً فيه على تحمل المزيد. كان يجلس يومئذ على رأس مائدة طويلة في مأدبة أقيمت احتفالاً بعيد ميلاده الخامس والخمسين، محاطاً بأصدقائه ومعاونيه، حين خيل إليه أنه يرى صبية عارية بين أزهار الياسمين فوق شرشف الطاولة، فأدرك أن هذا الكابوس لن يتركه ينعم بالسلام حتى بعد موته. فضرب الطاولة بقبضته ضربة جعلت كل ما فوقها يهتز، وطلب إحضار قبعته وعصاه.

سأله حاكم الولاية:

- إلى أين أنت ذاهب يا دون تاديو؟

فرد عليه وهو يخرج دون أن يودع أحداً:

- لإصلاح ضرر قديم.

لم يكن بحاجة للبحث عنها، لأنه كان يعرف دوماً أنها تعيش في

بيت نكبتها، وإلى هناك اتجه بسيارته. كانت قد شُقت في ذلك الحين دروب جديدة، فبدت المسافة أقصر مما كانت عليه فيما مضى. وكان المشهد قد تبدل خلال السنوات الماضية، ولكنه حين انعطف عند المنحنى الأخير نحو الرابية ظهرت له الفيلا وكانت مثلما رُسمت في ذاكرته قبل أن يستولي عليها رجال عصابته في غارتهم. هاهي ذي الجدران المتينة المشيدة من حجارة النهر التي دمرها هو نفسه بعبوات الديناميت، وهاهي ذي الأشجار التي علق عليها أجساد رجال السيناتور، وذاك هو الفناء الخلفي الذي جزر فيه الكلاب. أوقف سيارته على بعد مئة متر من المدخل ولم يتجرأ على مواصلة التقدم، لأنه أحس بقلبه ينفجر في صدره. وكان سيرجع على أعقابه ليعود من حيث أتى حين ظهر في الحديقة وجه محاط بهالة يشكلها إطار القبعة. أغمض السيناتور عينيه متمنياً بكل ما في ذهنه من قوة ألا تتعرف عليه. ورأى شعرها ووجهها النقي، وانسجام حركاتها، وتموج فستانها، فظن أنه غارق في حلم متصل منذ ثلاثين سنة.

ـ ها أنتذا قد جئت أخيراً يا تاديو ثيسبيدس. ـ قالت حين رأته، دون أن تخدعها بدلة العمدة السوداء التي يرتديها أو شعره الرمادي، لأن يديه مازالتا يدي القرصان ذاتهما.

فدمدم بصوت كسره الخجل:

ـ لقد لاحقتِني دون هوادة. لم أستطع أن أحب أحداً سواك طوال حياتي.

تنهدت دولسي روسا اوريانو راضية. لقد أزفت الساعة أخيراً. ولكنها أمعنت النظر إلى عينيه ولم تلمح فيهما أي أثر للجلاد، وإنما رأت دموعاً ندية وحسب. بحثت في قلبها عن الحقد الذي رعته خلال ثلاثين سنة، فلم

تجده. استحضرت اللحظة التي طلبت فيها من أبيها التضحية بإبقائها على قيد الحياة لتنجز واجباً، واستعادت احتضان الرجل الذي طالما لعنته لها، وصبيحة اليوم الذي لفت فيه الرفات الحزين في شرشف. راجعت خطة الانتقام المحكمة، لكنها لم تجد فيها السعادة المنتظرة، بل على العكس من ذلك، شعرت بكآبة عميقة. أمسك تاديو ثيسبيدس يدها برقة وقبّل راحتها، مبللاً إياها بالدموع. حينئذ أدركت وهي مذعورة أنها لكثرة ما فكرت فيه في كل لحظة، ولكثرة ما تلذذت بتذوق طعم الانتقام قبل الإقدام عليه، انقلبت عواطفها وانتهى بها المطاف إلى الوقوع في حبه. وفي الأيام التالية شرّع كلاهما بوابات الحب المقموع على مصراعيها، وتفتحا أول مرة في قدرهما المشؤوم ليتقبل كل منهما قرب الآخر منه. كانا يتمشيان في الجنائن ويتحدثان عن نفسيهما، دون أن يأتيا على ذكر ليلة الشؤم التي قلبت مسار حياتيهما. وعند الغروب كانت تجلس للعزف على البيانو بينما هو يدخن ويستمع إلى أن تلين عظامه وتلفه السعادة مثل دثار، وتتلاشى من ذهنه كوابيس الزمن الغابر. وبعد تناول العشاء، كان يذهب إلى سانتا تيريسا، حيث لم يبق أحد يتذكر القصة القديمة المرعبة. فينزل في أفضل فندق فيها، ويعدّ من هناك الترتيبات للزفاف، فهو يريد إقامة حفلة صاخبة، حفلة قصف وبذخ يشارك فيها كل من في القرية. لقد اكتشف الحب في سن يفقد فيها غيره من الرجال الأمل، فأعاد ذلك إليه قوة الشباب. كان يتمنى أن يحيط دولسي روسا بالحنان والجمال، وأن يمنحها كل الأشياء التي يمكن للنقود أن تشتريها، ليرى إن كان قادراً بذلك على تعويضها في سنوات شيخوخته عن الأذى الذي سببه لها في شبابه. كان الذعر يسيطر عليه في بعض الأحيان، فيرصد ملامح وجهها بحثاً عن أدنى علامة تنم عن الحقد، لكنه لم يكن يجد سوى بريق الحب

المتبادل الذي يعيد إليه الطمأنينة. وأمضى على هذه الحال شهراً من السعادة الغامرة.

قبل يومين من حفلة الزفاف، وبينما كان ينصب سرادق الحفلة في الحديقة، ويذبح الطيور والخنازير للوليمة، ويقطف الأزهار لتزيين البيت، ارتدت دولسي روسا فستان الزفاف لتجربه، ورأت نفسها في المرآة مشابهة تماماً لما كانت عليه يوم تتويجها ملكة للكرنفال، فلم تستطع الاستمرار في خداع قلبها. عرفت أنها لن تقدر مطلقاً على تنفيذ الانتقام الذي خططت له، لأنها تعلقت بحب القاتل، ولكنها لن تستطيع في الوقت نفسه إسكات شبح السيناتور. فما كان منها إلا أن ودعت الخياطة، وتناولت المقص ومضت إلى حجرة الفناء الثالث التي بقيت خالية طوال ذلك الوقت.

بحث عنها تاديو ثيسبيدس في كل مكان وهو ينادي عليها يائساً. وقاده نباح الكلاب إلى الطرف الآخر من البيت. وبمساعدة البستانيين حطم الباب المقفل ودخل الحجرة التي رأى فيها قبل ثلاثين سنة ملاكاً متوجاً بالياسمين. وهناك وجد دولسي روسا مثلما كان يراها في الحلم في كل ليلة من حياته، مرتدية فستان حرير الأورغنزة الدامي ذاته، وأدرك أنه سيعيش إلى أن يبلغ التسعين، ليدفع ثمن خطيئته بذكرى المرأة الوحيدة التي يمكن لروحه أن تحبها.

رسائل حب مغدور

ماتت أم آناليا توريس بحمى هذيانية عند ولادتها، فلم يتحمل أبوها الحزن وأطلق بعد أسبوعين من ذلك رصاصة مسدس على صدره. واحتضر عدة أيام واسم زوجته على شفتيه. وتولى بعد ذلك شقيقه اوخينيو مسؤولية إدارة أراضي الأسرة ومصير اليتيمة الصغيرة على هواه. ترعرعت آناليا حتى السنة السادسة من عمرها وهي تتعلق بأذيال تنورة خادمة هندية في غرف الخدم في بيت كفيلها، وما كادت تبلغ سن الذهاب إلى المدرسة حتى أرسلوها إلى العاصمة، تلميذة داخلية في مدرسة راهبات القلب المقدس، حيث أمضت الاثنتي عشرة سنة التالية. كانت تلميذة جيدة، تحب الانضباط، وصرامة المبنى الحجري، والمصلى بتماثيله القدسية ورائحة شموعه وزنابقه، والممرات الجرداء والأفناء الظليلة. وكان أقل ما يجتذبها هو صخب أترابها ورائحة قاعات الدرس الحرّيفة. وكلما تمكنت من مغافلة رقابة الراهبات، كانت تختبئ في غرفة المهملات، بين تماثيل مقطوعة الرؤوس ومفروشات مكسرة، لكي تحكي لنفسها حكايات. في تلك اللحظات المختلسة كانت تغرق في الصمت بإحساس من تسلم نفسها إلى خطيئة.

وكل ستة شهور كانت تتلقى ملاحظة مكتوبة من عمها أوخينيو يذكرها فيها بأن تحسّن سلوكها وتكرم ذكرى أبويها اللذين كانا مسيحيين طيبين في حياتيهما، وسيكونان فخورين إذا ما كرست ابنتهما الوحيدة حياتها لأعلى فروض الفضيلة، أي بانضمامها إلى الدير كراهبة

مستجدة. ولكن آناليا أعلمته منذ اللحظة الأولى أنها ليست مستعدة لعمل ذلك وتمسكت بموقفها بعناد لمجرد مناكفته، مع أنها كانت تحب في أعماقها الحياة الدينية. فقد كانت تفكر في أنها ربما تجد الطمأنينة الدائمة بالاختباء وراء مسوح الراهبة، في عزلة الرفض الأخير لأي متعة؛ ولكن غريزتها كانت تحذرها مع ذلك من نصيحة الوصي عليها. فقد كانت تشك في أن الدافع وراء كل أعماله هو الطمع بالأرض وليس الوفاء الأسري. فكانت لا تأخذ أي اقتراح منه على محمل الثقة، وترى أن ثمة فخاً ينصبه لها في كل ما يقوله.

عندما أتمت آناليا السادسة عشرة من عمرها، ذهب عمها لزيارتها في المدرسة للمرة الأولى. وقد استدعت رئيسة الراهبات الفتاة إلى مكتبها وكان عليها أن تقدم كلاً منهما إلى الآخر، لأن كليهما كان قد تبدل كثيراً منذ زمن الخادمة الهندية في أفناء البيت الخلفية، ولم يتعرف أحدهما على الآخر.

قال العم وهو يحرك فنجان الشيكولاتة:

- أرى أن الراهبات يعتنين بك جيداً يا آناليا. فأنت تبدين سليمة الجسم، بل وجميلة أيضاً. لقد أخبرتك في رسالتي الأخيرة بأنك ابتداء من عيد ميلادك هذا ستتلقين مبلغاً شهرياً من المال من أجل نفقاتك، مثلما اشترط أخي - لترقد روحه بسلام - في وصيته.

- كم؟

- مئة بيزو.

- أهذا هو كل ما خلّفه لي أبواي؟

- لا، طبعاً لا. أنت تعرفين أن الأرض ملكك، ولكن الزراعة ليست

من عمل النساء، وخصوصاً في أزمنة الإضرابات والثورات هذه. سأبعث إليك ابتداء من الآن مبلغاً شهرياً يتضاعف كل سنة، إلى أن تبلغي سن الرشد. وبعدها ننظر ما الذي سنفعله.

- ماذا سترى يا عماه؟

- نرى ما هو الأنسب لك.

- وما هي خياراتي؟

- ستكونين دائماً بحاجة إلى رجل من أجل إدارة الأراضي يا صغيرتي. لقد قمت أنا نفسي بهذا العمل طوال السنوات الماضية، ولم تكن بالمهمة السهلة. ولكنه واجبي، فقد وعدت أخي بذلك في ساعته الأخيرة، وأنا مستعد لمواصلة القيام بهذا الواجب من أجلك.

- لن يكون عليك مواصلة ذلك لوقت طويل يا عماه. فعندما أتزوج سأتولى مسؤولية الأراضي بنفسي.

- أقالت الصغيرة "عندما أتزوج"؟ أخبريني أيتها الأم، هل لديها خطيب؟

- كيف يخطر ببالك مثل هذا الكلام يا سيد توريس! إننا نعتني جيداً بالصغيرات. لقد كانت مجرد كلمة. يا لما تتفوه به هذه البنت!

نهضت آناليا توريس واقفة، وشدت ثنيات زيها المدرسي، وحيت بانحناءة احترام خفيفة أقرب إلى السخرية، ثم خرجت. قدمت رئيسة الراهبات مزيداً من الشيكولاتة للرجل، وقالت له إن تفسيرها الوحيد لهذا التصرف غير اللائق هو قلة تواصل الفتاة مع أسرتها. وأضافت الراهبة بنبرة جافة:

- إنها التلميذة الوحيدة التي لا تذهب في إجازات على الإطلاق والتي لم تصلها أي هدية في أعياد الميلاد قطّ.

من عمل النساء، وخصوصاً في أزمنة الإضرابات والثورات هذه. سأبعث إليك ابتداء من الآن مبلغاً شهرياً يتضاعف كل سنة، إلى أن تبلغي سن الرشد. وبعدها ننظر ما الذي سنفعله.

ـ ماذا سترى يا عماه؟

ـ نرى ما هو الأنسب لك.

ـ وما هي خياراتي؟

ـ ستكونين دائماً بحاجة إلى رجل من أجل إدارة الأراضي يا صغيرتي. لقد قمت أنا نفسي بهذا العمل طوال السنوات الماضية، ولم تكن بالمهمة السهلة. ولكنه واجبي، فقد وعدت أخي بذلك في ساعته الأخيرة، وأنا مستعد لمواصلة القيام بهذا الواجب من أجلك.

ـ لن يكون عليك مواصلة ذلك لوقت طويل يا عماه. فعندما أتزوج سأتولى مسؤولية الأراضي بنفسي.

ـ أقالت الصغيرة "عندما أتزوج"؟ أخبريني أيتها الأم، هل لديها خطيب؟

ـ كيف يخطر ببالك مثل هذا الكلام يا سيد توريس! إننا نعتني جيداً بالصغيرات. لقد كانت مجرد كلمة. يا لما تتفوه به هذه البنت!

نهضت آناليا توريس واقفة، وشدت ثنيات زيها المدرسي، وحيت بانحناءة احترام خفيفة أقرب إلى السخرية، ثم خرجت. قدمت رئيسة الراهبات مزيداً من الشيكولاتة للرجل، وقالت له إن تفسيرها الوحيد لهذا التصرف غير اللائق هو قلة تواصل الفتاة مع أسرتها. وأضافت الراهبة بنبرة جافة:

ـ إنها التلميذة الوحيدة التي لا تذهب في إجازات على الإطلاق والتي لم تصلها أي هدية في أعياد الميلاد قطّ.

- لست بالرجل الميال إلى التدليل، ولكنني أؤكد لك أني أحب ابنة أخي كثيراً وقد حافظت على مصالحها وكأنني أبوها. ولكنك محقة مع ذلك.. آناليا بحاجة إلى الحنان، فالنساء عاطفيات بطبعهن.

وقبل انقضاء ثلاثين يوماً حضر العم مرة أخرى إلى المدرسة، ولكنه لم يطلب مقابلة ابنة أخيه هذه المرة، بل اكتفى بأن أبلغ رئيسة الراهبات بأن ابنه يرغب في مراسلة آناليا، ورجاها أن توصل إليها رسائله ليرى إذا ما كانت العلاقة الرفاقية مع ابن عمها قادرة على تعزيز الأواصر الأسرية.

بدأت الرسائل ترد بانتظام. ورق أبيض بسيط وحبر أسود، وكتابة بحروف كبيرة أنيقة. بعضها يتحدث عن الحياة في الريف، عن المواسم والمواشي، وأخرى عن شعراء ميتين وعن الأفكار التي كتبوها. وكان مغلف الرسالة يتضمن في بعض الأحيان نقشاً أورسماً بالخط الثابت نفسه. قررت آناليا عدم قراءة تلك الرسائل، وفاءً لفكرة أن كل ماله علاقة بعمها يخبئ خطراً ما. ولكن الرسائل ما لبثت أن بدأت تمثل الإمكانية الوحيدة المتاحة لها للتحليق في ضجر المدرسة. فصارت تختبئ في غرفة المهملات، لا لتبدع حكايات غير محتملة الحدوث، وإنما لتقرأ بنهم الرسائل التي يرسلها ابن عمها، إلى أن حفظت عن ظهر قلب أشكال الحروف ونسيج الورق. ولم تكن ترد عليها في أول الأمر، ولكنها لم تستطع عدم فعل ذلك بعد وقت قصير. وراح مضمون الرسائل يصبح أكثر جدوى في مغافلة رقابة رئيسة الراهبات التي تفتح كل المراسلات، وازدادت الروابط الحميمة بين الاثنين وسرعان ما توصلا إلى الاتفاق على رموز سرية وبدأا يتحدثان من خلالها في الحب.

لم تكن آناليا توريس تتذكر أنها رأت ابن عمها ذاك الذي يوقع الرسائل باسم لويس، لأنها عندما كانت تعيش في بيت عمها كان الفتى

في مدرسة داخلية في العاصمة. لقد كانت واثقة من أنه رجل قبيح، وربما مريض أو مشوه، لأنه بدا لها من المستحيل أن يُضاف مظهر جذاب إلى مثل تلك الحساسية العميقة وذلك الذكاء الحاد. وكانت تحاول أن ترسم في ذهنها صورة لابن عمها: مربوع القامة مثل أبيه ووجهه محفور بالجدري، أعرج ونصف أصلع؛ ولكنها كلما كانت تضيف إليه مزيداً من العيوب كانت تزداد ميلاً إلى حبه. فقد كان ألق الروح هو الشيء الوحيد المهم، والشيء الوحيد الذي يقاوم مرور الزمن دون أن يناله التلف ويتعاظم مع انقضاء السنوات. وتوصلت الفتاة إلى القناعة بأن جمال أولئك الأبطال الخياليين في الحكايات ليس له أي قيمة، بل يمكن له أن يتحول إلى مبرر للتفاهة، ولكنها لم تستطع مع ذلك أن تُبعد ظلاً من القلق عن تفكيرها العقلاني ذاك. فكانت تتساءل عن مقدار التشوه الذي يمكنها أن تتحمله.

استمرت مراسلات آناليا ولويس توريس سنتين، تجمع لدى الفتاة خلالهما ملء صندوق قبعة من مغلفات الرسائل وروح مستسلمة للحب نهائياً. فإذا ما خطر لذهنها أنه يمكن لتلك العلاقة أن تكون خطة دبرها عمها لكي تنتقل الممتلكات التي ورثتها عن أبيها إلى يدي لويس، كانت تستبعد تلك الخواطر فوراً، خجلة من ضغينة أفكارها. ويوم أكملت ثمانية عشر عاماً من عمرها، استدعتها رئيسة الراهبات إلى قاعة المقابلات لأن زائراً كان بانتظارها. لقد خمنت آناليا توريس من يكون ذلك الزائر، وكانت على وشك الجري لتختبئ بين تماثيل القديسين المنسيين في مستودع المهملات، مذعورة من حتمية مواجهتها أخيراً للرجل الذي طالما تخيلته. وعندما دخلت القاعة ووقفت أمامه، احتاجت إلى عدة دقائق كي تتغلب على خيبة أملها.

لم يكن لويس توريس ذلك القزم المعوج الذي رسمت صورته في أحلامها وتعلمت أن تحبه. بل كان رجلاً كاملاً، لطيف الوجه عادي القسمات، وله فم ما يزال طفولياً، ولحية قاتمة ومشذبة جيداً، وعينان طويلتا الرموش، ولكنهما خاليتان من التعبير. لقد كان يشبه إلى حد ما قديسي المصلى. فهو جميل وفيه شيء من البلادة. سيطرت آناليا على الصدمة، وفكرت في أنها إذا كانت قد تقبلت في قلبها شخصاً أحدب، فلن تنقصها الأسباب لتتمكن من محبة هذا الشاب الأنيق الذي يقبلها من وجنتها مخلفاً في أنفها أثراً من عطر الخزامى.

❖ ❖ ❖

منذ اليوم الأول لزواجها بدأت آناليا تحس بالنفور من لويس توريس. فحين هصرها بين الشراشف المطرزة على سرير شديد الطراوة، أدركت أنها قد أحبت شبحاً وأنها لن تستطيع مطلقاً نقل تلك العاطفة المتخيلة إلى واقع زواجها. قاومت مشاعرها بصرامة في أول الأمر معتقدة أنها مجرد نزوة، ولكنها حين لم تعد قادرة على مواصلة تجاهل تلك المشاعر فيما بعد، حاولت الوصول إلى أعماق روحها بالذات لانتزاع مشاعر النفور من زوجها من جذورها. لقد كان لويس مهذباً، بل ومسلياً أحياناً، فلم يكن يزعجها بمطالب غير مناسبة ولم يحاول تغيير ميلها إلى العزلة والصمت. بل لقد قدرت هي نفسها أنها بقليل من طيب النية، يمكنها أن تجد شيئاً من السعادة في هذه العلاقة، حتى ولو كان مجرد ذلك المقدار الذي كانت ستحصل عليه لو أنها اختبأت وراء مسوح راهبة. لم تكن لديها مبررات محددة لذلك النفور الغريب من الرجل الذي كانت قد أحبته طوال سنتين دون أن تعرفه. ولم تكن قادرة كذلك على التعبير عن مشاعرها

بالكلام، ولكنها حتى لو استطاعت ذلك لما وجدت من تحدثه في الأمر. كانت تشعر بأنها قد خُدعت حين لم تستطع المواءمة بين صورة الخطيب الرسائلي وهذا الزوج الذي من لحم وعظم. ولم يكن لويس يأتي على ذكر الرسائل مطلقاً، وإذا ما تطرقت هي إلى الموضوع كان يطبق فمها بقبلة سريعة وبعبارة متعجلة عن تلك الرومانسية غير المناسبة للحياة الزوجية، حيث الثقة والاحترام والمصالح المشتركة ومستقبل الأسرة أهم بكثير من مراسلات المراهقة. لم تقم بين الاثنين علاقة حميمة حقيقية. فكل منهما يهتم بمشاغله خلال النهار، وفي الليل يجدان نفسيهما بين وسائد الريش، حيث يخيل إلى آناليا ـ المعتادة على سرير المدرسة القاسي ـ أنها ستختنق. لقد كانا يتعانقان بسرعة في بعض الأحيان، فتكون هي جامدة ومتيبسة، بينما يفعل هو ذلك كمن ينجز إحدى متطلبات الجسد التي لا يمكن تجنبها، ثم ينام لويس بعد ذلك مباشرة بينما تبقى هي مفتوحة العينين في الظلام وفي حلقها عبارة احتجاج عالقة. حاولت آناليا اللجوء إلى أساليب متعددة للتغلب على النفور الذي يبعثه فيها، بدءاً من محاولة تثبيت كل تفاصيل زواجها في ذاكرتها لكي تحبه بإصرار، وحتى تفريغ ذهنها من أي تفكير والانتقال إلى بُعدٍ لا يستطيع الوصول إليه. كانت تصلي راجية أن يكون مجرد نفور عابر، ولكن الشهور كانت تمضي، وبدلاً من الراحة المنشودة كانت الكراهية تتنامى حتى تحولت إلى حقد. وفي إحدى الليالي فاجأت نفسها تحلم برجل دميم إلى حد مرعب يداعبها بأصابع ملوثة بحبر أسود.

كان الزوجان توريس يعيشان في الأراضي التي امتلكها والد آناليا حين كانت تلك المنطقة ما تزال شبه برية لا يرتادها إلا الجنود وقطاع الطرق. ولكنها صارت الآن بجوار الطريق العام وعلى مقربة من قرية

مزدهرة تقام فيها كل سنة مهرجانات زراعية وأخرى لمربي الماشية. وقد كان لويس هو المسؤول قانونياً عن إدارة تلك الأملاك، ولكن العم أوخينيو هو الذي كان يمارس هذه المهمة عملياً، لأن لويس كان يضيق ذرعاً بشؤون الحقول. وعندما كان الأب وابنه يجلسان بعد الغداء في المكتبة ليشربا الكونياك ويلعبا الدومينو، كانت آناليا تسمع عمها وهو يتخذ القرارات حول الاستثمارات والماشية والبذار والمحاصيل. وفي المناسبات النادرة التي كانت تتجرأ فيها على التدخل وإبداء رأيها، كان الرجلان يصغيان إليها باهتمام ظاهري، ويؤكدان أنهما سيأخذان اقتراحاتها بعين الاعتبار، ولكنهما يتصرفان بعد ذلك على هواهما. فكانت آناليا تخرج ممتطية الحصان أحياناً إلى المراعي وتصل إلى حدود الجبل متمنية لو أنها كانت رجلاً.

لم يُحسّن ميلاد ابن لهما من مشاعر آناليا تجاه زوجها. فقد ازدادت حدة طبعها الانزوائي خلال شهور الحمل، ولكن لويس عزا ذلك إلى حالتها. وقد كانت لديه على أي حال شؤون أخرى تشغل تفكيره. وبعد ولادة الطفل، انتقلت هي إلى غرفة أخرى لا يوجد فيها من الأثاث سوى سرير ضيق وقاس. وعندما بلغ عمر الطفل سنة، وكانت الأم ما تزال تغلق باب حجرتها بالمفتاح وتتجنب أي فرصة للانفراد بزوجها، قرر لويس بأن الوقت قد حان ليطالب بمعاملة أكثر لياقة وحذّر زوجته بأنه من الأفضل لها أن تبدل سلوكها قبل أن يخلع الباب بالقوة. لم تكن قد رأته مطلقاً بمثل ذلك العنف، فانصاعت دون مناقشات. وفي السنوات السبع التالية ازداد التوتر بينهما إلى أن تحولا إلى عدوين مستترين، ولكنهما كانا يتعاملان بلطف مبالغ فيه أمام الآخرين. الطفل وحده كان يدرك مدى عمق العداء المستتر بين أبويه، فكان يستيقظ في منتصف الليل باكياً

وفراشه مبلل. أحاطت آناليا نفسها بقشرة قاسية من الصمت، وبدت كما لو أنها تجف في داخلها شيئاً فشيئاً. أما لويس بالمقابل، فأصبح أكثر تمادياً وطيشاً، وانصرف إلى متعه المتعددة، فكان يكثر من الشراب ويختفي عدة أيام في مغامرات لا يمكن التصريح بها. وعندما لم يعد يداري ممارساته الماجنة فيما بعد، وجدت آناليا في ذلك مبرراً للابتعاد عنه أكثر. وفقد لويس أي اهتمام بالأرض، فحلت زوجته محله سعيدة بهذا الوضع الجديد. وصار العم أوخينيو يبقى معها في غرفة الطعام كل يوم أحد ليناقشا القرارات، بينما يبقى لويس مستغرقاً في قيلولة طويلة لا يستيقظ منها إلا عند الغروب، مبللاً بالعرق ومعانياً تقلبات في معدته، ولكنه على استعداد دائماً للذهاب مرة أخرى إلى حفلات القصف مع أصدقائه.

علّمت آناليا ابنها مبادئ الكتابة والحساب، وحاولت أن توجهه نحو حب الكتب. وعندما أكمل الطفل سبع سنوات من عمره، قرر لويس بأن الوقت قد حان من أجل تعليمه بصورة رسمية، بعيداً عن تدليل الأم، وأراد إرساله إلى مدرسة في العاصمة لعله يتحول بسرعة إلى رجل. ولكن آناليا وقفت في مواجهته بشراسة، فاضطر إلى الموافقة على حل أقل صرامة. وهكذا أخذه إلى مدرسة القرية، حيث يبقى منذ يوم الاثنين حتى يوم الجمعة، ولكن السيارة كانت تذهب لإحضاره صباح السبت فيبقى في البيت حتى الأحد. في الأسبوع الأول تفحصت آناليا ابنها بجزع، باحثة عن أسباب تتيح لها أن تبقيه إلى جوارها، ولكنها لم تجدها. كان الصبي يبدو سعيداً، فهو يتحدث عن معلمه ورفاقه بحماسة بريئة، وكأنه ولد بينهم. كما أنه لم يعد يبول في فراشه. وبعد ثلاثة أشهر جاء حاملاً وثيقة درجاته ورسالة تهنئة قصيرة من المعلم على نتائجه الجيدة.

قرأتها آناليا وهي ترتعش بانفعال وابتسمت للمرة الأولى منذ زمن طويل. احتضنت ابنها بانفعال وراحت تسأله عن كل التفاصيل: كيف هي غرف النوم في المدرسة، وماذا يقدمون لهم من طعام، وهل الجو بارد في الليل، وكم صديقاً لديه، وكيف هو معلمه. صارت تبدو أكثر اطمئناناً، ولم تعد تتحدث عن إخراجه من المدرسة. وقد حصل الصغير في الشهور التالية كذلك على درجات جيدة كانت آناليا تجمعها كأنها كنوز وتبعث هدايا إلى الصف كله علباً من المربيات وسلالاً من كل أنواع الفاكهة. وكانت تحاول ألا تفكر بأن هذا الحل لن يدوم إلا لمرحلة التعليم الابتدائي، وأنه لن يكون هناك مفر بعد سنوات من إرسال الطفل إلى مدرسة في المدينة، حيث لن تستطيع رؤيته عندئذ إلا في الإجازات الصيفية.

في إحدى ليالي الصخب في القرية، أعرب توماس توريس الذي كان قد شرب كثيراً، عن استعداده لأداء قفزات بهلوانية على حصان غريب ليثبت مهارته كفارس أمام جماعة من رفاق الشرب في الحانة. ولكن الحيوان ألقى به أرضاً برفسة من قائمته وداس على خصيتيه. وبعد تسعة أيام من ذلك قضى توريس نحبه وهو يولول من الألم في أحد مستشفيات العاصمة، حيث كانوا قد نقلوه إلى هناك آملين بإنقاذه من الالتهاب. وكانت زوجته إلى جواره تبكي إحساسها بالذنب لأنها لم تستطع منحه الحب، وراحتها لأنها لم تعد بحاجة لأن تصلي طالبة له الموت. وقبل أن ترجع إلى الريف مع الجثة في تابوت لتدفنها في أرضها بالذات، اشترت آناليا ثوباً أبيض ودسته في قاع حقيبتها. وصلت إلى القرية بملابس الحداد، وكانت تغطي وجهها ببرقع أرملة حتى لا يلحظ أحد تعابير عينيها، وقد وضعت البرقع في الجنازة أيضاً وهي تمسك بيد ابنها وترتدي

ثوباً أسود. وبعد انتهاء المراسم الجنائزية، جاء العم أوخينيو الذي مازال يحتفظ ببنية قوية رغم بلوغه السبعين، واقترح على كنته أن تتنازل له عن الأراضي وتذهب لتعيش من ريعها في المدينة، حيث يمكن للطفل إنهاء تعليمه، ويمكنها هي أيضاً أن تنسى أحزان الماضي. وقال لها:

- أنا لم يفتني يا آناليا أنك وابني المسكين لويس لم تكونا سعيدين على الإطلاق.

- معك حق يا عمي، فقد خدعني لويس منذ البداية.

- بالله عليك يا ابنتي.. لقد كان رصيناً ومحترماً معك على الدوام. كان لويس زوجاً طيباً.. جميع الرجال لهم بعض المغامرات الصغيرة؛ ولكن ليس لهذا أي أهمية.

- ليس هذا ما أعنيه، وإنما الخدعة التي لا يمكن إصلاحها.

- لا أريد أن أعرف ما الذي تعنينه. وعلى أي حال، أظن أنك ستكونين أنت والطفل أحسن حالاً في العاصمة. لن ينقصكما أي شيء. وأنا سأتولى إدارة الأراضي. صحيح أني عجوز ولكنني لم أنته بعد. فأنا ما أزال قادراً على طرح ثورٍ أرضاً.

- سأبقى هنا. وابني سيبقى هنا أيضاً، لأن عليه أن يساعدني في أعمال الحقول. لقد عملت في السنوات الأخيرة في المراعي أكثر من عملي في البيت. والفرق الوحيد الآن هو أنني سأتولى اتخاذ القرارات بنفسي دون التشاور مع أحد. هذه الأراضي أصبحت لي وحدي أخيراً. الوداع أيها العم أوخينيو.

في الأسبوع الأول نظمت آناليا حياتها الجديدة. فبدأت بإحراق الشراشف التي نامت عليها مع زوجها، وبنقل سريرها الضيق إلى الغرفة

الرئيسية؛ ثم درست بعمق سجلات إدارة الأملاك، وما إن أصبحت لديها فكرة دقيقة عن ثرواتها حتى بحثت عن مشرف مستعد لتنفيذ أوامرها دون توجيه أسئلة. وعندما تأكدت من أنها قد أمسكت بزمام الأمور كلها ووضعتها تحت مراقبتها، أخرجت ثوبها الأبيض من الحقيبة، وكوته بعناية، ثم ارتدته وتزينت وذهبت في سيارتها إلى مدرسة القرية، حاملة تحت إبطها علبة قبعة قديمة.

انتظرت آناليا توريس في الباحة إلى أن أعلن جرس الساعة الخامسة انتهاء الدرس المسائي الأخير وخرج حشد الأطفال متزاحمين إلى الباحة. وقد خرج ابنها بينهم وهو يركض سعيداً، لكنه توقف فجأة عندما رآها، فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي تأتي فيها أمه إلى المدرسة.

قالت له:

ـ أرني صفك. أريد التعرف على معلمك.

وعند الباب، أومأت آناليا للصغير بالانصراف لأن المسألة خاصة، ودخلت وحدها. كانت القاعة واسعة وعالية السقف، على جدرانها خرائط ورسوم بيولوجية. وكانت تفوح منها رائحة الحبس وعرق الأطفال نفسها التي أثرت في طفولتها، ولكن الرائحة لم تزعجها في هذه المرة، بل على العكس من ذلك، فقد تنشقتها بتلذذ. كانت المقاعد في حالة من الفوضى بعد الاستخدام اليومي، وكانت هناك بعض قصاصات الورق مبعثرة على الأرض، ومحابر مفتوحة. وتمكنت آناليا من رؤية عمود من الأرقام على السبورة. وفي أقصى القاعة، وراء طاولة موضوعة فوق منصة، كان يجلس المعلم. رفع الرجل رأسه متفاجئاً، ولكنه لم ينهض واقفاً لأن عكازيه كانا بعيدين في الركن، لا يمكنه الوصول إليهما

دون جر كرسيّه. اجتازت آناليا الممر بين صفين من المقاعد وتوقفت أمامه.

- أنا أم التلميذ توريس. قالت ذلك لأنه لم يخطر لها قول أي شيء آخر.

- مساء الخير يا سيدتي. وأنتهز هذه الفرصة لأشكرك على الحلوى والفاكهة التي أرسلتها إلينا.

فقالت آناليا وهي تضع علبة القبعة على الطاولة:

- فلندع هذا الكلام لأني لم أحضر من أجل المجاملات. لقد جئت لأطالبك بتصفية حساب قديم.

- ماذا تعنين؟

ففتحت العلبة وأخرجت رسائل الحب التي خبأتها طوال تلك السنين. ومرّ هو ببصره في لحظة على كومة المغلفات.

قالت آناليا:

- أنت مدين لي بإحدى عشرة سنة من حياتي.

فتلعثم هو عندما تمكن من إخراج صوته الذي انحبس في مكان ما:

- كيف عرفتِ أنني من كتبها؟

- في يوم زفافي بالذات اكتشفت أنه لا يمكن أن يكون زوجي هو من كتبها، وعندما أحضر ابني سجل درجاته الأول إلى البيت تعرفت على الخط فوراً. وحين رأيتك الآن لم يعد لدي أي شك، لأني كنت قد رأيتك في أحلامي مذ كنتُ في السادسة عشرة من عمري. لماذا فعلت ذلك؟

- كان لويس توريس صديقاً لي، وعندما طلب مني كتابة رسالة إلى ابنة عمه بدا لي أنه ليس في ذلك أي سوء. وهذا ما حدث في الرسالة

الثانية ثم الثالثة؛ ولكنني لم أعد قادراً على التوقف عندما جاءني ردك بعد ذلك. لقد كانت هاتيك السنتان أفضل فترة في حياتي، فهي الفترة الوحيدة التي كنت أنتظر خلالها شيئاً.. كنت أنتظر البريد.

- والآن.

- أيمكنك أن تغفري لي؟

فقالت آناليا وهي تقدم إليه العكازين:

- الأمر يعتمد عليك.

لبس المعلم سترته ونهض. ثم خرجا معاً إلى الباحة الصاخبة، حيث لم تكن الشمس قد غابت بعد.

من طين خُلقنا

اكتشفوا رأس الطفلة يطل من الوحل، بعينين مفتوحتين، وهي تنادي دون أن يخرج منها أي صوت. كان لها اسم من المناولة الأولى: اثوثينا. في تلك المقبرة الفسيحة، حيث رائحة الموتى تجتذب أبعد النسور وحيث بكاء اليتامى وأنين الجرحى يملأ الجو، تحولت هذه الطفلة المصممة على الحياة إلى رمز للمأساة. وقد بثت الكاميرات بكثرة المنظر الذي لا يطاق لرأسها البارز من الوحل، مثل نبتة قرع سوداء، حتى لم يبق أحد إلا وعرفها وعرف اسمها. وكلما كنا نراها تظهر على الشاشة، كان وراءها رولف كارليه الذي وصل إلى المكان وقد اجتذبه الخبر، دون أن يدور في خلده أنه سيجد هناك جزءاً من ماضيه الضائع قبل ثلاثين سنة.

ما حدث في أول الأمر كان نشيجاً تحت أرضي هز حقول القطن وجعدها مثل موجة زبدية. كان الجيولوجيون قد نصبوا معدات القياس قبل أسابيع لأنهم كانوا يعرفون أن الجبل قد استيقظ مرة أخرى. وكانوا قد تنبؤوا منذ زمن طويل بأنه يمكن لحرارة البركان أن تذيب الجليد الأبدي المتراكم فيما حول القمة البركانية، ولكن أحداً لم يول اهتماماً إلى تحذيراتهم، لأنه كان لها وقع حكايات العجائز. فواصلت قرى الوادي حياتها وهي تصم آذانها عن تململات الأرض، إلى أن حلت ليلة ذلك الأربعاء من شهر تشرين الثاني المشؤوم، حين تعالت زمجرة طويلة لتعلن نهاية العالم وانهارت جدران الجليد متدحرجة في انجراف من الطين والأحجار والماء لتسقط على القرى وتغرقها تحت أمتار لا حصر لها من القيء الأرضي. وما

إن تخلص الناجون من شلل الرعب الأول حتى تأكد لهم أن البيوت والساحات والكنائس ومزارع القطن البيضاء وغابات البن القاتمة ومراعي ثيران التلقيح قد اختفت كلها. وبعد وقت طويل، حين وصل المتطوعون والجنود لإنقاذ الأحياء وحساب حجم الكارثة، قدروا أن هناك تحت الوحول أكثر من عشرين ألف كائن بشري وعدد غير محدد من المواشي، يتعفنون في ذلك الحساء اللزج. كما كانت الغابات والأنهار قد انهزمت أيضاً ولم يبق أمام النظر إلا صحراء شاسعة من الطين.

عندما اتصلوا من المحطة التلفزيونية في الفجر كنا أنا ورولف كارليه معاً. خرجت من السرير ذاهلة من النعاس وذهبت لأعد القهوة بينما كان يرتدي ملابسه بسرعة. وضع معدات عمله في حقيبته الكتانية الخضراء التي يحملها دائماً، وودعني مثلما كنا نفعل في مناسبات كثيرة. لم أفكر في أي شيء. بقيت في المطبخ أرتشف قهوتي وأخطط كيف سأقضي الساعات من دونه وأنا متأكدة من أنه سيعود في اليوم التالي.

كان أحد أول من وصلوا، لأنه بينما كان صحفيون آخرون يقتربون من حافة المستنقع بسيارات الجيب أو على الدراجات، أو مشياً على الأقدام، وكل منهم يشق طريقه بأفضل ما لديه، كان هو يملك تحت تصرفه طائرة التلفزيون المروحية وتمكن من الطيران فوق منطقة الانجراف. ظهرت على الشاشات المشاهد التي التقطتها كاميرا مساعده، حيث ظهر هو نفسه غاطساً حتى ركبتيه، وفي يده الميكرفون، وسط صخب أطفال تائهين، وأناس مبتورين، وجثث وأنقاض. ووصلتنا القصة بصوته الهادئ. لقد كنت أراه طوال سنوات في نشرات الأخبار، يغطي أخبار المعارك والكوارث دون أن يوقفه أي شيء، بمثابرة جسورة، وكان يذهلني على الدوام بهدوئه حيال الخطر والألم، وكأنه ليس هناك ما هو

قادر على هز صلابته أو حرفه عن فضوله. كان يبدو وكأن الخوف لا يقربه، ولكنه كان قد اعترف لي بأنه ليس بالرجل الشجاع، ولا أي شيء من هذا القبيل. وأظن أنه كانت لعدسة الكاميرا تأثيرات غريبة عليه، كما لو أنها تنقله إلى زمن آخر، يستطيع أن يرى الأحداث منه دون أن يشارك بها فعلاً. وحين تعرفتُ عليه جيداً أدركت أن هذا الوهم يبقيه بمنجى من انفعالاته نفسها.

كان رولف كارليه إلى جوار أثوثينا منذ البداية. صوّر المتطوعين الذين اكتشفوها والأشخاص الأوائل الذين حاولوا الاقتراب منها. كانت كاميرته تركز بإلحاح على الطفلة، على وجهها الأسمر، على عينيها الكبيرتين الكئيبتين، وعلى تشابك شعرها الكثيف. لقد كان الطين في ذلك المكان كثيفاً، يمكن لمن يطؤه أن يتعرض لخطر الانزلاق. ألقوا إليها بحبل، فلم تبذل أي جهد للامساك به، وحين صرخوا بها لتمسك الحبل، أخرجت إحدى يديها وحاولت التحرك، ولكنها سرعان ما غطست أكثر. أفلت رولف حقيبته وبقية معداته وتقدم في المستنقع، معلقاً لميكرفون مساعده بأن الوحل بارد وأن رائحة تعفن الجثث بدأت تفوح في المكان.

سألها:

- ما اسمك؟ وأخبرته البنت باسم الزهرة الذي تحمله* . فأمرها رولف كارليه: - لا تتحركي يا أثوثينا - ثم واصل التحدث إليها دون أن يفكر بما يقوله، لكي يشغلها فقط، بينما كان يجرجر نفسه ببطء في الوحل الذي وصل حتى خاصرته. وكان الهواء فيما حوله يبدو معكراً كالوحل.

لم يكن بالإمكان التقدم في ذلك الوحل، فتراجع ومضى للالتفاف

* أثوثينا (Azucena) زهرة السوسن.

من حيث تبدو الأرض أكثر صلابة. وعندما صار قريباً منها في آخر الأمر، تناول الحبل وربطه تحت ذراعيها لكي يتمكنوا من سحبها. ابتسم لها تلك الابتسامة الخاصة التي تقلص عينيه وتعيده إلى الطفولة، وقال لها إن كل شيء يمضي على ما يرام، وأنه صار معها، وإنهم سيخرجونها فوراً. أشار للآخرين كي يسحبوها، ولكن ما كاد الحبل ينشد حتى صرخت الطفلة. حاولوا ذلك من جديد فظهر كتفاها وذراعاها، ولكنهم لم يستطيعوا تحريكها أكثر من ذلك، فقد كانت عالقة. قال أحدهم إنه ربما تكون قدماها محشورتين بين أنقاض بيتها، وقالت هي إنها ليست الأنقاض وحدها، وإنما تثبتها كذلك في مكانها أجساد اخوتها المتشبثين بها.

وعدها رولف:

ـ لا تقلقي، سنخرجك من هنا.

وعلى الرغم من عدم وضوح البث فقد لاحظتُ أن صوته ينكسر، وجعلني ذلك أشعر بأنني أكثر قرباً منه. ونظرت هي إليه دون أن ترد.

استنفد رولف كارليه في الساعات الأولى كل الوسائل التي تفتق عنها ذهنه لإنقاذها. ناضل بالأخشاب والحبال، ولكن كل شدّة كانت عذاباً لا يطاق بالنسبة للأسيرة. خطر له أن يصنع عتلة ببعض العصي، ولكن ذلك لم يؤد إلى نتيجة فاضطر إلى التخلي عن هذه الفكرة أيضاً. توصل إلى جعل جنديين يعملان معه لوقت قصير، ولكنهما ما لبثا أن تركاه وحيداً، لأن هناك ضحايا كثيرين يطلبون المساعدة. لم يكن بإمكان البنت أن تتحرك، ولم تكن تتنفس إلا بصعوبة، ولكنها لم تبد يائسة، وكأن صبراً سلفياً كان يتيح لها قراءة مصيرها. أما الصحفي بالمقابل فكان مصمماً على انتزاعها من الموت. أحضروا له إطار سيارة

وضعه تحت ذراعيها مثل عجلة نجاة، ثم قاطع لوحاً خشبياً قرب الهوة لكي يستند عليه ويتمكن من الوصول إليها بطريقة أفضل. وحيث إنه كان من المستحيل تحريك الأنقاض في العماء، فقد غاص مرتين ليستكشف ذلك الجحيم، ولكنه خرج ساخطاً، مغطى بالوحل وهو يبصق الحجارة. استنتج أنه لابد من مضخة لنزح الماء، فأرسل يطلبها عبر جهاز الراديو، ولكن الرد جاءه بأنه لا وجود لوسائل نقل، ولا يمكنهم إرسالها حتى صباح اليوم التالي. فصرخ رولف كارليه:

- لا يمكننا أن ننتظر كل هذا الوقت.

ولكن أحداً لم يتوقف لمواساته في تلك الفوضى. وكان لابد من مرور ساعات طويلة أخرى قبل أن يتقبل فكرة أن الزمن قد ركد وأن الواقع قد تعرض لتشوه لا سبيل إلى إصلاحه.

اقترب طبيب عسكري لفحص الطفلة وأكد أن قلبها يعمل جيداً، وأنها إذا لم تبرد كثيراً فسوف تصمد هذه الليلة.

فحاول رولف كارليه مواساتها:

- اصبري يا أثوثينا، غداً سيحضرون المضخة.

فطلبت هي منه:

- لا تتركني وحيدة.

- لا، طبعاً لن أتركك.

أحضروا لهما قهوة فقدمها للصغيرة، رشفة رشفة. أيقظ السائل الدافئ حماستها فبدأت تحدثه عن حياتها الصغيرة، وعن أسرتها ومدرستها، وكيف كانت هذه القطعة من العالم قبل أن يثور البركان. كان عمرها ثلاث عشرة سنة لم تغادر خلالها محيط قريتها على الإطلاق. الصحفي

الذي كان يستند إلى تفاؤل مبكر، اقتنع بأن كل شيء سينتهي على ما يرام، فالمضخة ستصل، وسينزحون الماء، وينزعون الأنقاض ثم ينقلون أثوثينا بطائرة هليكوبتر إلى أحد المستشفيات، حيث تسترد عافيتها بسرعة ويستطيع أن يزورها حاملاً إليها الهدايا. وفكر في أنها لم تعد في السن التي يمكنه فيها أن يهدي إليها دمى وعرائس، ولم يعرف ما الذي يمكن أن يروقها، ربما فستان. وانتهى إلى التفكير بمرح: لست أفهم كثيراً في شؤون النساء، وقدر أنه قد تعرف على كثيرات في حياته، ولكن أي واحدة منهن لم تعلمه هذه التفاصيل. ولكي يقضي الساعات راح يحكي لها عن رحلاته ومغامراته في تصيد الأخبار، وعندما نفدت ذكرياته مد يده إلى مخيلته ليخترع أي شيء يمكنه أن يسليها به. كانت تغفو في بعض اللحظات، ولكنه كان يواصل الكلام في الظلام، لكي يؤكد لها أنه لم يذهب ولكي يتغلب على ضيق الارتياب.

كانت تلك ليلة طويلة.



على بعد أميال كثيرة من هناك كنتُ أراقب رولف كارليه والفتاة على الشاشة. لم أستطع البقاء في البيت وذهبت إلى محطة التلفزيون الوطني، حيث أمضيت معه في أحيان كثيرة ليالي بطولها في إعداد البرامج. ولهذا كنت قريبة منه وقادرة على معرفة ما أحس به في تلك الأيام الثلاثة الحاسمة. لجأت إلى كل الناس المهمين في المدينة، إلى سيناتورات الجمهورية، وجنرالات القوات المسلحة، والسفير الأمريكي، ورئيس شركة البترول، متوسلة تقديم مضخة لنزح الوحل، ولكنني لم أحصل إلا على وعود غامضة. بدأت أطلبها بسرعة عبر الإذاعة والتلفزيون، لعل أحداً يمكنه مساعدتنا.

وفيما بين النداءات كنت أهرع إلى مركز استقبال المعلومات حتى لا أضيع رؤية صور الأقمار الاصطناعية التي كانت تأتي في كل لحظة بتفاصيل جديدة عن الكارثة. وبينما كان الصحفيون يختارون المشاهد الأشد وقعاً من أجل نشرة الأخبار، كنت أبحث عن تلك المشاهد التي تظهر فيها حفرة أثوثينا. كانت الشاشة تختصر الكارثة إلى لقطة واحدة وتُبرز المسافة الرهيبة التي تفصل بيني وبين رولف كارليه، ولكنني كنت معه رغم ذلك، فكل معاناة تشعر بها الطفلة كانت تؤلمني مثلما تؤلمه، كنت أشعر بإحباطه، وبعجزه. ولأنه كان من المستحيل أن أتصل به، فقد خطرت لي الوسيلة الخيالية بالتركيز الذهني لكي أصل إليه بقوة التفكير وأرفع من معنوياته. كنت أتشوش للحظات بأعمال جنونية وغير مجدية، وكان الأسى يُثقل علي أحياناً فأنفجر بالبكاء، ويهدني التعب في أحيان أخرى فأشعر بأنني أنظر من خلال تلسكوب إلى ضوء نجمة ميتة منذ مليون سنة.

في نشرة أخبار الصباح الأولى رأيت ذلك الجحيم، حيث كانت تطفو جثث البشر والبهائم تجرفها مياه أنهار جديدة تشكلت في ليلة واحدة من الثلج الذائب. كانت تظهر بين الوحل قمم بعض الأشجار وبرج أجراس إحدى الكنائس، حيث وجد عدد من الأشخاص ملجأ وراحوا ينتظرون بصبر وصول فرق الإنقاذ. كان مئات الجنود ومتطوعو الدفاع المدني يحاولون تحريك الأنقاض بحثاً عن الناجين، بينما صفوف طويلة من الأشباح ذوي الأسمال ينتظرون دورهم للحصول على فنجان حساء ساخن. ونقلت محطات الإذاعة أن خطوطها الهاتفية مشغولة كلها بمكالمات من أسر تعرض إيواء الأطفال اليتامى. كان هناك نقص بمياه الشرب والبنزين والطعام، وكان الأطباء الذين يعكفون على بتر الأعضاء دون تخدير يطالبون على الأقل بالمصل والمسكنات والمضادات الحيوية، ولكن معظم الطرق كانت

مقطوعة، فضلاً عن أن البيروقراطية كانت تؤخر كل شيء. وفي أثناء ذلك كان الطين الملوث بالجثث الآخذة في التفسخ يهدد الأحياء بالأوبئة.

كانت أثوثينا ترتجف وهي مستندة إلى إطار السيارة الذي يبقيها على السطح. كان الثبات والتوتر قد أضعفاها كثيراً، ولكنها مازالت بوعيها وقادرة على التكلم بصوت مسموع حين يقربون منها ميكروفوناً. كانت نبرتها ذليلة، وكأنها تعتذر عن كل هذا الإزعاج الذي تسببه. كانت ذقن رولف كارليه قد نمت، وظهرت ظلال قاتمة تحت عينيه، وبدا عليه الإنهاك. وقد استطعتُ رغم كل تلك المسافة الهائلة أن أحدس نوعية ذلك التعب المختلف عن كل التعب في حياته السابقة. لقد نسي تماماً وجود الكاميرا، إذ لم يعد بإمكانه أن ينظر إلى الطفلة من خلال عدسة الآلة. الصور التي تصلنا ليست من مساعده، وإنما من صحفيين آخرين استحوذوا على أثوثينا ناسبين إليها المسؤولية المؤثرة في تجسيد الرعب الذي يجري هناك. منذ الفجر بدأ رولف يحاول من جديد أن يحرك الأنقاض التي تحتجز الصبية في ذلك القبر، ولكنه لم يكن يملك سوى يديه، فهو لا يتجرأ على استخدام أدوات قد تجرحها. قدم إلى أثوثينا فنجان حساء الذرة والموز الذي يوزعه الجيش، ولكنها تقيأته في الحال. هرع إليها طبيب وتأكد من أنها محمومة، ولكنه قال إنه لا يمكن عمل الكثير، فالمضادات الحيوية مقننة لحالات الغنغرينا. واقترب كذلك كاهن ليباركها ويعلق في عنقها ميدالية تحمل رسم العذراء. عند المساء بدأ يهطل رذاذ ناعم، ولكنه متواصل.

توسل إليها رولف:

ـ لا تخافي. عليك أن تحافظي على قواك وأن تبقي هادئة، كل شيء سيجري على ما يرام. أنا معك، وسأخرجك من هنا بطريقة ما.

رجع الصحفيون ليصوروها ويسألوها الأسئلة نفسها التي لم تكن تحاول الإجابة عنها. وفي أثناء ذلك وصل المزيد من فرق التلفزيون والسينما؛ لفافات من الكابلات، والأشرطة، والأفلام، وفيديو، وعدسات التقريب، وآلات التسجيل، وحاملات لاقطات الصوت، والأنوار، والشاشات العاكسة، والبطاريات والمولدات، وصناديق قطع الغيار، والكهربائيون، وتقنيو الصوت والمصورون، فنقلوا وجه اثوثينا إلى ملايين الشاشات في كل أنحاء العالم. بينما رولف كارليه مازال يطالب بمضخة. نشر معدات الإتصال بدأ يعطي نتائجه، وبدأنا نتلقى في التلفزيون الوطني صوراً أكثر وضوحاً وأصواتاً أشد صفاء، وبدا كما لو أن المسافة قد تقلصت فجأة وراودني إحساس فظيع بأن اثوثينا ورولف موجودان إلى جانبي، يفصلهما عني زجاج لا يمكن اجتيازه. تمكنت من متابعة الأحداث ساعة فساعة، عرفت ما بذله صديقي من جهد لإخراج الطفلة من حبسها ولمساعدتها على تحمل العذاب، سمعت مقاطع من حديثهما واستطعت أن أخمن بقيته، كنت حاضرة عندما علّمتْ هي رولف كيف يصلي وعندما شاغلها هو بالحكايات التي كنتُ قد رويتها له في ألف ليلة وليلة تحت كلّة سريرنا البيضاء.

وعندما خيم ظلام اليوم الثاني حاول تنويمها بأغنيات أستوريا القديمة التي تعلمها من أمه، ولكنها كانت قد أصبحت فيما وراء النعاس. أمضيا شطراً كبيراً من الليل وهما يتحدثان، وكلاهما مستنفد، جائع، مرتجف من البرد. وعندئذ، وشيئاً فشيئاً، بدأت تنهار البوابات الثقيلة التي احتجزت ماضي رولف كارليه طوال سنوات كثيرة، وتدفق أخيراً تيار كل ما كان قد خبأه في أعمق طبقات ذهنه وأكثرها سرية، تدفق جارفاً معه العوائق التي حاصرت وعيه لوقت طويل. لم يستطع أن يقول كل شيء لأثوثينا، لأنها ربما كانت لا تعرف أن هناك عالماً فيما وراء البحر، ولا زمناً سابقاً على

زمنها، كانت عاجزة عن تخيل أوربا في فترة الحرب، فلم يحدثها عن الهزيمة، ولا عن المساء الذي اقتاده فيه الروس إلى معسكر الاعتقال النازي لدفن الأسرى الميتين من الجوع. لماذا إخبارها بأن الأجساد العارية المكدسة مثل جبل من الجذوع كانت تبدو كأنها من فخار مكسر؟ كيف يتحدث إلى طفلة تحتضر عن الأفران والمشانق؟ ولم يذكر لها كذلك شيئاً عن الليلة التي رأى فيها أمه عارية تنتعل حذاء أحمر ذا كعب عال وتبكي من الإذلال. لقد صمت عن أشياء كثيرة، ولكنه عاد في تلك الساعات ليتذكر من جديد، ولأول مرة، كل ما كان يحاول أن يمحوه من ذهنه. لقد سلمته أثوثينا خوفها، فأجبرت بذلك رولف، ودون قصد منها، على اللقاء مع خوفه. فهناك، إلى جوار تلك البئر اللعينة، كان من المستحيل على رولف أن يواصل الهرب من نفسه وداهمه فجأة ذلك الرعب الذي وسم طفولته. رجع إلى نفسه حين كان في عمر أثوثينا وأصغر منها، ووجد نفسه محشوراً مثلها في بئر لا مخرج منها، مدفوناً في الحياة، ورأسه على مستوى الأرض، رأى أمام وجهه جزمة أبيه وساقيه وقد نزع الحزام عن خصره، وراح يهزه في الهواء بصفير لا يُنسى مثل صفير حية هائجة. داهمه الألم غير الملموس والمحدد، مثلما كان قابعاً على الدوام في ذاكرته. رجع إلى الخزانة التي كان أبوه يقفلها عليه عقاباً له على أخطاء وهمية وبقي هناك ساعات أبدية وهو مغمض العينين حتى لا يرى الظلام، مغلقاً أذنيه بيديه حتى لا يسمع نبضات قلبه، مرتجفاً ومنكمشاً على نفسه مثل حيوان. وفي عتمة ذكرياته وجد أخته كاترينا، المخلوقة العذبة المتخلفة التي أمضت حياتها مختبئة على أمل أن ينسى الأب نكبة ميلادها. زحف نحوها تحت طاولة المطبخ واختبأا هناك وراء شرشف أبيض، بقي الصغيران متعانقين، ومتيقظين للخطوات والأصوات. وصلته رائحة كاترينا مختلطة برائحة عرقه، وبشذى المطبخ.. ثوم، حساء، خبز طازج؛ وبرائحة طين

نتن غريبة. يد أخته في يده، لهاثها المرتعب، حفيف شعرها المشعث على خديه، وتعبير نظرتها البريئة. كاترينا، كاترينا... برزت خافقة أمامه مثل راية، ملفوفة بالشرشف الأبيض الذي تحول إلى كفن، واستطاع أخيراً أن يبكي موتها وذنبه في التخلي عنها. وأدرك عندئذ أن مآثره الصحفية، تلك التي جلبت له الشهرة والاعتراف الواسعين، لم تكن إلا محاولة للإبقاء على خوفه القديم تحت السيطرة، عن طريق الاختباء وراء عدسة لعل الحياة تصبح أكثر تحمّلاً. كان يواجه مخاطر جسيمة كتمرين على الشجاعة، وكأنه يتدرب في النهار لمواجهة المسوخ التي تعذبه ليلاً. ولكن ساعة الحقيقة قد أزفت ولم يعد بإمكانه الهرب من ماضيه. إنه أثوثينا، وهو مدفون في الوحل، ورعبه لم يكن انفعالاً بعيداً من طفولة شبه منسية، وإنما مخلب يشد على حنجرته. وفي اختناق البكاء ظهرت له أمه، بثوب رمادي وهي تشد حقيبتها المصنوعة من جلد تمساح إلى حضنها، مثلما رآها آخر مرة في الميناء، حين خرجت لتودعه في السفينة التي نقلته إلى أمريكا. لم تأت لتمسح دموعه، بل لتقول له احمل رفشاً، لأن الحرب قد انتهت ويجب الآن دفن الموتى.

قالت له أثوثينا عند الفجر:

ـ لا تبك. لم يعد يؤلمني شيء، إنني على ما يرام.

فابتسم لها رولف كارليه:

ـ لست أبكي من أجلك، إنني أبكي لأن كل شيء يؤلمني.



بدأ اليوم الثالث في وادي الكارثة بضوء شاحب بين سحب سوداء. انتقل رئيس الجمهورية إلى المنطقة وظهر هناك ببدلة الميدان ليؤكد أنها أسوأ كارثة في هذا العصر، كانت البلاد في حداد، وقدمت البلدان

الشقيقة المساعدات، وأُعلنت حالة الطوارئ، فالقوات المسلحة ستتصرف دون رحمة، وستعدم دون أي إجراءات كل من يُقبض عليه وهو يسرق أو يرتكب إساءات أخرى. وأضاف الرئيس أنه من المستحيل إخراج كل الجثث أو تقديم رقم دقيق لآلاف المفقودين، ولهذا سيُعتبر الوادي كله مقبرة وسيأتي الأساقفة لإقامة جناز مهيب من أجل راحة أرواح الضحايا. وتوجه إلى خيام الجيش، حيث كان يتكدس الناجون ليقدم لهم التهدئة بوعود غير أكيدة، ثم إلى المستشفى الميداني ليوجه كلمة تشجيع إلى الأطباء والممرضات المستنزفين من كل ساعات العوز تلك. ثم طلب أخذه في الحال إلى المكان الذي توجد فيه أثوثينا، وكانت قد أصبحت مشهورة آنذاك، لأن صورتها قد لفت الكوكب كله. صافحها بيد رجل الدولة النحيلة، وسجلت الميكروفونات صوته المتأثر ونبرته الأبوية حين قال لها إن شجاعتها هي نموذج للوطن. وقاطعه رولف كارليه ليطلب منه مضخة، فأكد له أنه سيهتم شخصياً بالأمر. تمكنتُ من رؤية رولف لبضع لحظات وهو يجلس القرفصاء إلى جوار البئر. وفي نشرة أخبار المساء كان ما يزال بالوضع نفسه؛ وبينما كنت أنا أتطلع إلى الشاشة مثل منجمة أمام كرتها الزجاجية، أدركت أن شيئاً جوهرياً قد تبدل فيه، وأن مقاومته قد انهارت خلال الليل وأنه استسلم للألم. لقد لمستْ تلك الطفلة جزءاً من روحه لم يكن هو نفسه يدخله ولم يشاركني فيه على الإطلاق. أراد رولف أن يواسيها فكانت أثوثينا هي من واسته.

لقد انتبهت بالضبط إلى اللحظة التي توقف فيها رولف عن النضال واستسلم لعذاب مراقبة احتضار الفتاة. لقد كنت معهما طوال ثلاثة نهارات وليلتين، أرصدهما في الجانب الآخر من الحياة. لقد كنت هناك حين قالت له إن أي فتى لم يقل لها إنه يحبها خلال سنوات عمرها الثلاث

عشرة، وأنها تأسف لمغادرة هذه الدنيا دون أن تعرف الحب، فأكد لها هو أنه يحبها أكثر من أي شيء أحبه في حياته كلها، أكثر من حبه لأمه ولأخته، وأكثر من حبه لكل النساء اللواتي نمن بين ذراعيه، وأكثر من حبه لي، أنا رفيقته، وأنه مستعد لتقديم أي شيء من أجل أن يعلق مكانها في تلك البئر، وأنه مستعد لاستبدال حياته بحياتها، ورأيته حين انحنى على رأسها البائس وقبّل جبهتها، مثقلاً بإحساس عذب وكئيب لا يمكنه تسميته. وأحسست كيف أنهما نجوا كلاهما في تلك اللحظة من اليأس، وتخلصا من الوحل، وصعدا عالياً فوق النسور وطائرات الهيلوكبتر، وحلقا معاً فوق مستنقع العفونة والحسرات ذاك. وتمكنا أخيراً من تقبل الموت. صلى رولف كارليه بصمت لكي تموت بسرعة، لأنه لم يعد بالإمكان تحمل كل ذلك الألم.

في تلك الأثناء كنت قد توصلت إلى الحصول على مضخة، وقد اتصلت بجنرال أبدى استعداده لإرسالها في فجر اليوم التالي في طائرة عسكرية. ولكن عند مغيب شمس ذلك اليوم الثالث، وتحت المصابيح الكاشفة وعدسات آلات التصوير السينمائية، استسلمت أثوثينا، تاهت عيناها في عيني هذا الصديق الذي ساندها حتى النهاية. انتزع رولف كارليه منها طوق النجاة، وأغلق رموشها، واحتضنها إلى صدره لدقائق ثم أفلتها. فراحت تغرق ببطء، مثل زهرة في الوحل.

❖ ❖ ❖

لقد رجعتَ إلي، ولكنك لم تعد الرجل نفسه. كثيراً ما أرافقك إلى محطة التلفزيون ونشاهد معاً من جديد أشرطة الفيديو التي تظهر فيها أثوثينا، فتدرس الأشرطة باهتمام باحثاً عن شيء كان بإمكانك أن تفعله

عشرة، وأنها تأسف لمغادرة هذه الدنيا دون أن تعرف الحب، فأكد لها هو أنه يحبها أكثر من أي شيء أحبه في حياته كلها، أكثر من حبه لأمه ولأخته، وأكثر من حبه لكل النساء اللواتي نمن بين ذراعيه، وأكثر من حبه لي، أنا رفيقته، وأنه مستعد لتقديم أي شيء من أجل أن يعلق مكانها في تلك البئر، وأنه مستعد لاستبدال حياته بحياتها، ورأيته حين انحنى على رأسها البائس وقبّل جبهتها، مثقلاً بإحساس عذب وكئيب لا يمكنه تسميته. وأحسست كيف أنهما نجوا كلاهما في تلك اللحظة من اليأس، وتخلصا من الوحل، وصعدا عالياً فوق النسور وطائرات الهيلوكبتر، وحلقا معاً فوق مستنقع العفونة والحسرات ذاك. وتمكنا أخيراً من تقبل الموت. صلى رولف كارليه بصمت لكي تموت بسرعة، لأنه لم يعد بالإمكان تحمل كل ذلك الألم.

في تلك الأثناء كنت قد توصلت إلى الحصول على مضخة، وقد اتصلت بجنرال أبدى استعداده لإرسالها في فجر اليوم التالي في طائرة عسكرية. ولكن عند مغيب شمس ذلك اليوم الثالث، وتحت المصابيح الكاشفة وعدسات آلات التصوير السينمائية، استسلمت أثوثينا، تاهت عيناها في عيني هذا الصديق الذي ساندها حتى النهاية. انتزع رولف كارليه منها طوق النجاة، وأغلق رموشها، واحتضنها إلى صدره لدقائق ثم أفلتها. فراحت تغرق ببطء، مثل زهرة في الوحل.

❖ ❖ ❖

لقد رجعتَ إلي، ولكنك لم تعد الرجل نفسه. كثيراً ما أرافقك إلى محطة التلفزيون ونشاهد معاً من جديد أشرطة الفيديو التي تظهر فيها أثوثينا، فتدرس الأشرطة باهتمام باحثاً عن شيء كان بإمكانك أن تفعله

لإنقاذها لم يخطر لك في الوقت المناسب. أو ربما كنت تشاهد الأشرطة لترى نفسك عارياً، كما في مرآة. لقد تخليتَ عن آلات التصوير وركنتها في إحدى الخزائن، ولم تعد تكتب أو تغني، بل تبقى لساعات جالساً قبالة النافذة ونظرك مصوب إلى الجبال. وأنا إلى جانبك أنتظر أن تنهي الرحلة في أعماقك نفسها وتشفى من جراحك القديمة. أعرف أنك حين ترجع من كوابيسك، سنمشي معاً يداً بيد، كما في السابق.

وحينئذ أدرك شهرزاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح.

(من ألف ليلة وليلة.)

الفهرس

كلمتان 11

طفلة خبيثة 21

فم الضفدع 37

ذهب توماس فارغاس 45

إذا ما لمست قلبي 59

واليماي 71

استير لوثيرو 81

ماريا المجنونة 91

زوجة القاضي 103

طريق نحو الشمال 115

نزيل المعلمة 131

مع كل الاحترام اللازم 141

انتقام 151

رسائل حب مغدور 161

من طين خلقنا 175



فتاة تكتشف الكلمات فجأة فتتخذ منها سلعة لتجارتها، ولكن بنزاهة وإخلاص؛ وطفلة متوحدة تقع في حب عشيق أمها وتمارس في حمّى الحب طقوساً غامضة؛ وزعيم محلي غيور يحبس امرأة أحبها في قبو طوال نصف قرن؛ ورجل عنيف يؤرقه حب امرأة اغتصبها وهي صبية غضة وقتل أباها... هذه بعض قصص هذا الكتاب الذي يستعيد شخصيات رواية إيفا لونا: رولف كارليه، المعلمة إينس، رياض حلبي، وغيرهم... خمس عشرة قصة حب وعنف يربط بينها خيط قصصي رفيع مستوحى من ألف ليلة وليلة، ولغة عنيفة متدفقة تعيد خلق ظروف مشؤومة في عالم خصيب وشهواني.

وبرقة أنثوية وصنعة أدبية عالية، تلاحق إيزابيل ألليندي مصير شخصياتها كجزء لا ينفصل عن المصير الجماعي لأميركا اللاتينية، القارة التي تتميز بالخلاسية وحدّة القهر الاجتماعي والبحث الدؤوب عن الهوية. هذا العالم القصصي المرسوم بإتقان هو محصلة وعي تاريخي واجتماعي ثاقب، وتناول جمالي فني يقدم صورة فريدة للواقعية السحرية.

COVER DESIGN BY: RIYADH NEAMA

ISBN: 2-84305-968-X

